أجاثا كريستي

Agatha Christie

مكتبة النخبة

لغز القطار الأزرق

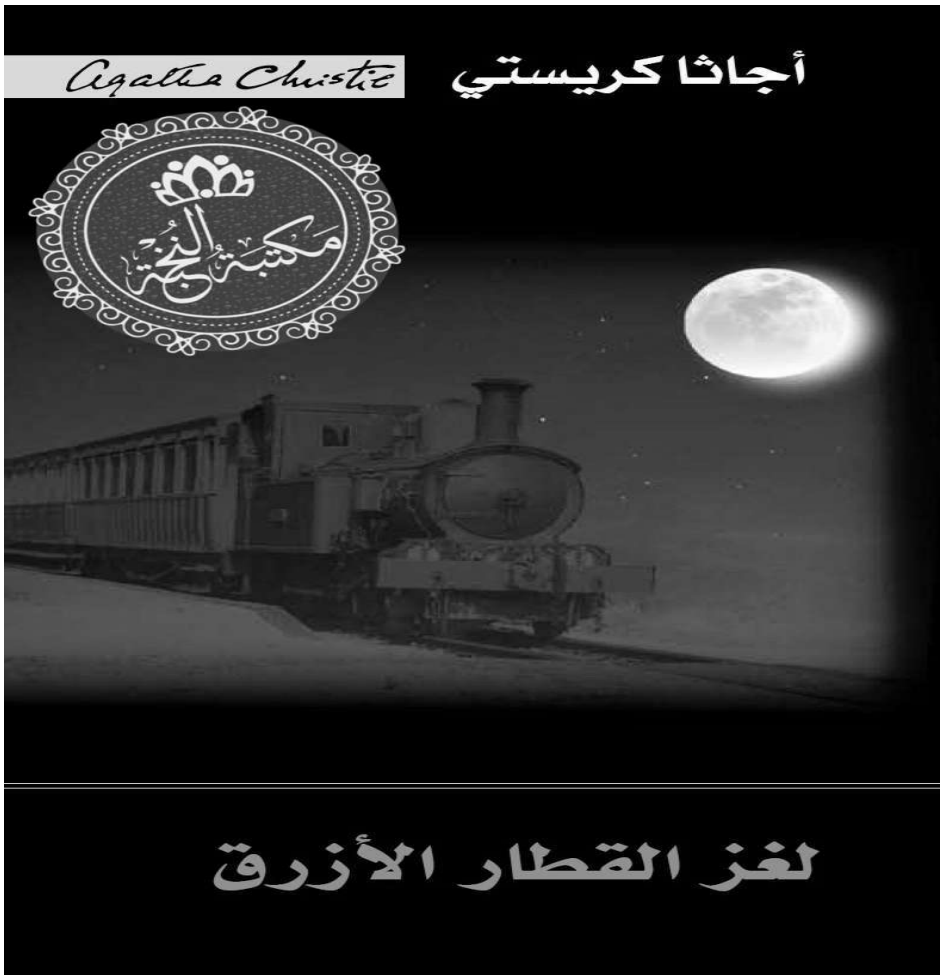

لغز القطار الأزرق

لغز القطار الأزرق

أجاثا كريستي

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore

للتعرف على فروعنا في

المملكة العربية السعودية - قطر - الكويت - الإمارات العربية المتحدة

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت www.jarirbookstore.com

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: jbpublications@jarirbookstore.com

إخلاء مسؤولية

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية من الكتاب. وعلى الرغم من أننا بذلنا قصارى جهدنا في نشر وترجمة الطبعة العربية، فإننا لا نتحمل أي مسؤولية أو نقدم أي ضمان فيما يتعلق بصحة أو اكتمال المادة التي يضمها الكتاب، لذا فإننا لا نتحمل، تحت أي ظرف من الظروف، مسؤولية أي خسائر أو تعويضات سواء كانت مباشرة، أو غير مباشرة، أو عرضية، أو خاصة، أو مترتبة، أو أخرى.
كما أننا نخلي مسؤوليتنا بصفة خاصة عن أي ضمانات حول ملاءمة الكتاب عموماً
أو ملاءمته لغرض معين.

الطبعة الثالثة ٢٠١٠

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

AGATHA CHRISTIE™ POIROT™ 2010 © Agatha Christie Limited (a Chorion company).
All rights reserved.
The Mystery of the Blue Train was first published in 1928

No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system.

المملكة العربية السعودية ص.ب. ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧١ - تليفون ٤٦٢٦٠٠٠ ١ ٩٦٦+ - فاكس ٤٦٥٦٣٦٣ ١ ٩٦٦+

Agatha Christie™

THE MYSTERY OF THE BLUE TRAIN

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore

نبذة عن المؤلفة

تُعرف أجاثا كريستى فى كل أنحاء العالم باسم "ملكة الغموض"، ولقد حققت مبيعات كتبها ما يربو على مليار نسخة باللغة الإنجليزية إضافة إلى مليار نسخة أخرى ترجمت إلى مائة لغة أجنبية، وهى تعد أكثر كاتبة نُشرت لها كتب على مر العصور على مستوى كل اللغات، ولم يفُقها فى المبيعات إلا كتب شكسبير، وقد قامت بتأليف ثمانين كتابًا، ما بين روايات ومجموعات من القصص القصيرة فى الجريمة، كما قامت بتأليف تسع عشرة مسرحية، وست روايات تحت اسم مارى ويستماكوت.

ولقد كتبت أجاثا كريستى روايتها الأولى *"السر الغامض فى ستايلز"* قرب نهاية الحرب العالمية الأولى، والتى كانت تعمل خلالها فى الجيش ممرضة. وقد قامت فى هذه الرواية بابتكار شخصية هيركيول بوارو، ذلك المحقق البلجيكى ضئيل الجسم الذى صار أشهر محقق فى روايات الجرائم بعد شيرلوك هولمز، وقد نشرت الرواية بواسطة دار نشر *The Bodley Head* فى عام 1920.

وفى عام 1926، وبعد أن اعتادت تأليف رواية واحدة كل عام، قامت أجاثا كريستى بتأليف روايتها العظيمة *"من الذى قتل السيد روجر أكرويد؟"*، تلك الرواية التى كانت أول رواية تنشرها لها دار النشر *Collins* والتى أسست علاقة ربطت بين الكاتبة والناشر دامت لخمسين عامًا ونتج عنها ما يزيد على سبعين رواية، كما كانت رواية *"من الذى قتل السيد روجر أكرويد؟"* هى أولى رواياتها التى يتم تمثيلها مسرحيًا ـ تحت عنوان *Alibi* ـ واستمر عرضها بنجاح على مسرح ويست إند فى لندن لمدة طويلة، وقد تم افتتاح مسرحية *"مصيدة الفئران"* ـ أشهر مسرحياتها على الإطلاق ـ فى عام 1952، وهى المسرحية المعروفة بكونها صاحبة أطول فترة عرض فى التاريخ .

وقد منحت أجاثا كريستى لقب "فارسة صاحبة مقام رفيع" فى عام 1971، وتوفيت فى عام 1976. ومنذ ذلك الحين ظهرت عدة مؤلفات لها منها تلك الرواية التى حققت أعلى المبيعات *Sleeping Murder* وظهرت لاحقًا فى نفس عام وفاتها. بعد ذلك نُشِرَت السيرة الذاتية لها، ثم مجموعة القصص القصيرة *Miss Marple's Final Cases* و *Problem at Pollensa Bay* و *While the Light Lasts*، وفى عام 1998 تم تحويل أول مسرحية لها وهى *Black Coffee* إلى رواية بواسطة مؤلف آخر هو "تشارلز أوزبورن" .

إهداء

إلى عضوى مؤسسة
أوه. إف. دى. المميزين
كارلوتا وبيتر

الفصل الأول

الرجل ذو الشعر الأبيض

دنت الساعة من منتصف الليل حينما عبَر ذاك الرجل ميدان الكونكورد، ورغم أنه كان يرتدى معطفاً ذا فرو أنيق يلف جسده النحيل، إلا أنَّ شيئاً من الوضاعة والحقارة كان يسم ملامحه.

كان رجلاً ضئيلاً ذا وجه يشبه وجه جرذ، رجلاً ستقول إن رأيته: إنَّ من المحال أن يلعب ذلك الرجل دوراً مهماً فى أى شىء، أو أن يرقى لشهرة على أى نحو كان. لكن من يراقبه ويصل معه إلى هذا الانطباع قد يكون على غير الصواب؛ فهذا الرجل على رغم ما يبدو عليه من تفاهة وانحطاط قدر، قد لعب دوراً رئيساً فى تحديد مصير هذا العالم؛ ففى مملكة يسود فيها الجرذان كان هو ملكهم.

والآن، هناك سفارة دولة ما تنتظر عودته، لكنَّ مهمة ما عليه أن ينفذها أولاً – مهمة لم تُبلَّغ بها تلك السفارة بشكل رسمى. كانت عيناه تلمعان بشدة فى ضوء القمر، وفى أنفه الرفيع تقوُّس لا يكاد الرائى يلحظه. كان والده مهاجراً من بولندا، وكان خياطاً بارعاً. كانت تلك المهمة التى سافر من أجلها الليلة ليسعد بها والده.

وصل إلى نهر السين وعبَره، ودخل إحدى مناطق باريس المتواضعة. وفيها توقَّف أمام مبنى طويل متهالك، واتخذ طريقه صاعداً إلى الطابق الرابع. لم يكد يطرق الباب حتى فتحته امرأة كان من الواضح أنها كانت ترتقب وصوله. لم تحيِّه لكنها ساعدته فى نزع معطفه وقادته إلى غرفة جلوس ذات أثاث رخيص. كان ضوء المصباح الكهربى باهتاً وملطخاً بنقوش زينة وردية اللون، هذا الضوء الضعيف بهَّت صورتها لكنه لم يخف وجهها تلك الألوان الفجَّة التى صبغته بها، ولم يخف أيضاً ملامحها المنغولية الواضحة. لم يكن هناك من معضلة فى تحديد وظيفة "أولجا ديمروف" وجنسيتها.

"هل كل شىء على ما يرام؟".

"نعم يا بوريس إيفانوفيتش".

أومأ برأسه، وغمغم قائلاً: "لا أظن أنَّ هناك من تبعنى إلى هنا".

لكنَّ ثمة توتراً كان يشوب صوته؛ فتوجَّه إلى النافذة، وأزاح الستار قليلاً، واسترق النظر فى اهتمام، ثم ابتعد عنها بعنف.

"هناك رجلان على الرصيف المقابل – يبدو لى أن ...". توقف عن الحديث وبدأ فى قضم أظافره – وتلك عادة يلجأ إليها دائمًا حين ينتابه القلق.

هزت الفتاة الروسية رأسها فى بطء.

"إنهما هنا قبل مجيئك".

"الأمر عندى سواء، يبدو لى أنهما كانا يراقبان هذا المنزل".

أقرت قائلة فى لا مبالاة: "هذا محتمل".

"لكن حين إذن ...".

"ما المشكلة؟ فحتى لو أنهما يعرفان أى شىء – فلن يكونا هنا من أجلك".

فارتسمت على شفتيه ابتسامة جافة خاطفة.

ووافقها قائلاً: "نعم هذا صحيح".

فكَّر لحظات ثم قال: "هذا الأمريكى اللعين – لعله يتمكَّن من الاهتمام بأمر نفسه كأى شخص آخر!".

"أفترض ذلك".

ذهب إلى النافذة ثانية.

تمتم قائلاً: "زبائن متعِبون"، ثم تابع بابتسامة خافتة: "أخشى أن يكون معروفاً لدى الشرطة. حسنًا، حسنًا. فليكن صيداً موفقاً لقطَّاع الطرق".

فهزت أولجا رأسها.

"إن كان الأمريكى من النوع الذى وُصف عليه؛ فلن يفلح معه اثنان من هؤلاء اللصوص الجبناء". توقَّفت ثم تابعت: "أتساءل لو أنَّ ...".

"ماذا؟".

"لا شىء. كل ما فى الأمر أنَّ رجلاً مرَّ من الشارع مرتين هذا المساء – رجل ذو شعر أبيض".

"وما الغريب فى ذاك؟".

"الغريب أنه حين مرَّ بهذين الرجلين، سقط منه قفّازه، فقام أحد الرجلين بالتقاط القفّاز وأعاده إليه".

"هل تعنين – تعنين أنَّ الرجل ذا الشعر الأبيض زعيمهما؟".

"شيء من هذا القبيل".

فزع الروسى وبدا عليه القلق.

"هل أنت على يقين من أنَّ العلبة بأمان؟ ولم يعبث بها؟ لقد سرى الكثير من الحديث عن الأمر".

عاد لقضم أظافره ثانية.

"لتفحصْها بنفسك".

مالت على المدفأة، وأخذت تزيل الفحم فى خفة، ومن تحت الفحم وبين كرات ملفوفة من ورق الصحف - التقطت لفافة مستطيلة لُفَّت بورق صحف قديم، ثم أعطتها للرجل.

قال بإيماءة تأييد لفعلها: "تصرُّف ذكى".

"لقد فتَّشت الشقة مرتين. ومزقت مرتبة سريرى".

غمغم قائلاً: "كما قلت؛ فقد سرى الكثير من الحديث حول الأمر. ذلك الذى دار حول السعر – لقد كان ذلك خطأ".

فضَّ ورقة الصحيفة. كان بداخلها علبة صغيرة مغطَّاة بورق بنى اللون، ففضَّه هو الآخر، وتحقَّق من محتويات العلبة، وسريعاً قام بلفِّها ثانية. وبينما هو كذلك دقَّ جرس الباب الكهربى فى حدَّة.

قالت أولجا وهى ترمق ساعتها: "دقيق هو هذا الأمريكى".

غادرت الغرفة وبعد لحظات عادت وهى تقود خلفها الضيف الذى كان ضخماً عريض المنكبين، وكانت ملامحه الأمريكية بادية تماماً. نظرة عينيه الصارمة تنقَّلت بينهما.

سأل فى أدب: "أنت السيد كراسنين؟".

فقال بوريس: "نعم أنا. أعتذر لك للطبيعة غير التقليدية لمكان لقائنا هذا. لكن السرِّية أمر ضرورى. لا يمكننى تحمُّل تبعات شيوع ارتباطى بهذا العمل".

فقال الأمريكى بأدب: "أحقاَ؟".

"ألم تتعهَّد بجعل كافة تفاصيل هذه المعاملة بعيدة عن العلانية؟ هذا أحد الشروط – شروط البيع".

قال بلا مبالاة: "هذا أمر تمَّ الاتفاق عليه بالفعل. والآن هل لك أن تبرز البضاعة؟".

"هل معك المال – نقداً؟".

فرد الآخر: "نعم".

لكنه لم يحاول إبراز شىء. وبعد لحظة تردَّد، أشار كراسنين إلى العلبة الصغيرة على سطح المنضدة.

تناول الأمريكى العلبة وفضَّ غلافها. توجَّه بمحتوياتها نحو مصباح كهربى صغير وأخضعها لفحص دقيق، وبعدما رضى أخرج من جيبه محفظة جلدية ممتلئة وأخرج منها لفافة من الأوراق المالية، ثم أعطاها للروسى الذى قام بعدِّها بعناية.

"تمام؟".

"شكراً لك سيدى، كل شىء على ما يرام".

فقال الآخر وهو يضع العلبة فى جيبه بإهمال: "نعم"، ثم انحنى لأولجا وقال: "أمسية طيبة يا آنسة؛ أمسية طيبة سيد كراسنين".

ثم خرج وأغلق الباب خلفه. تلاقت عينا من بقى بالغرفة، ومرر الرجل لسانه على شفتيه الجافتين.

قال مغمغماً: "هل سيتمكَّن من العودة آمناً إلى الفندق؟".

وفى توافق تلقائى استدار كلاهما نحو النافذة. فى اللحظة ذاتها ظهر الأمريكى فى الشارع. استدار ناحية اليسار وسار بطول الشارع فى خطوة معتدلة دون أن يلتفت برأسه ولو لمرة. وعلى الفور انسل طيفان من مدخل الباب وبدآ تتبعه فى هدوء. ثم اختفى ثلاثتهم فى ظلام الليل، وبدأت أولجا بالحديث.

قالت: "سوف يعود سالماً إلى الفندق؛ فليس عليك أن تخاف من شىء – أو تأمل فى شىء – أيهما كان أقرب إليك".

فسأل كراسنين فى فضول: "ما الذى يجعلك على يقين من عودته سالماً؟".

فقالت أولجا: "رجل جمع كل هذا المال لا يمكن أن يكون أحمق، وبمناسبة حديث المال ـــــ".

ونظرت لكراسنين نظرة موحية.

"ماذا؟".

"أريد حصتى يا بوريس إيفانوفيتش".

بشىء من الكراهة أعطاها كراسنين ورقتين من رزمة النقود، فأومأت برأسها شاكرة على نحو خالٍ تماماً من المشاعر، ثم دسَّت النقود فى جوربها.

عقَّبت فى رضا: "هذا جيد".

نظر إليها بفضول وقال: "ألا تشعرين بالندم يا أولجا".

"ندم؟ أى ندم؟".

"على ما كان بحوزتك. إنَّ بعض النساء - بل معظم النساء- برأيى قد يطير صوابهن لشىء كهذا".

فأومأت بشكل انعكاسى.

"نعم، إنك على حق؛ فمعظم النساء قد يصيبهن الجنون أمام شىء كهذا. لكننى لست من هؤلاء. لكننى أفكِّر الآن فى ...".

فسأل بفضول: "فيمَ؟".

"إنَّ الأمريكى سيعود سالماً - أنا واثقة من ذلك - لكن بعد ذلك ...".

"فيم تفكرين؟".

"إنَّه سيعطيها فى النهاية لامرأة ما. فماذا سيحدث حين ...".

انتفضت من أفكارها واتَّجهت نحو النافذة، وفجأة صاحت مستغربة ونادت رفيقها.

"انظر، إنه يسير فى الشارع الآن – أعنى ذلك الرجل الذى مرَّ سابقاً".

حدَّق كلاهما إلى أسفل. كان رجلاً ذا قوام معتدل رشيق يسير فى الشارع بخطى وئيدة. كان يرتدى قبعة عالية وعباءة. وبينما كان يمر تحت مصباح الشارع أظهر الضوء خصلة من شعر

أبيض كثيف.

الفصل الثانى

السيد لى ماركيز

تابع الرجل ذو الشعر الأبيض سيره الوئيد، غير مبال بما يحيط به، ثم قام بالتفاتة جانبية نحو اليمين وأخرى ناحية اليسار. وبين الفينة والأخرى كان يهمهم لنفسه بشىء.

وفجأة توقَّف تماماً وأرهف السمع؛ فقد سمع صوتاً ما. ربما يكون انفجار إطار سيارة، وربما يكون طلقة رصاص. بدت على شفتيه ابتسامة ماكرة، ثم تابع سيره المتراخى.

وفى دورانه فى زاوية توقَّف عند مشهد مثير للانتباه؛ فهناك رجل شرطة يكتب ملاحظاته على المشهد فى مدوَّنة، واثنان من عابرى السبيل المتأخرين فى الشارع. سأل الرجل ذو الشعر الأبيض أحد هذين الشخصين ـــ بكل أدب ـــ عما يجرى.

"هل هناك مشكلة؟".

"نعم سيدى، لقد هاجم لصان رجلاً أمريكياً".

"هل أصاباه؟".

فقال الرجل ضاحكًا: "كلا بالطبع؛ فقد كان الأمريكى يحمل مسدساً فى جيبه، وقبل أن يهاجماه أطلق هو رصاصات بالقرب منهما فذعرا وفرَّا، وقد وصلت الشرطة متأخِّرة كالعادة".

فقال السائل: "هكذا إذن!".

وفى هدوء وعدم اكتراث واصل الرجل سيره الوئيد، ثم عبر نهر السين منتقلاً لأكثر أحياء المدينة ثراءً. وبعد مسيرة عشرين دقيقة توقَّف أمام منزل فى شارع أرستقراطى هادئ.

كان المنزل الذى كان متجراً فى حقيقة الأمر - محدوداً وبسيطاً. كان السيد بابوبولويس تاجر التحف من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى إعلان، وبطبيعة الحال كان معظم عمله يدور فى الخفاء؛ فالسيد بابوبولويس يمتلك شقة فى غاية الأناقة تطل على تشامبس إليسى، وكان المفترض أن يكون فيها الآن فى تلك الساعة، وليس فى محل عمله هذا، لكنَّ الرجل ذا الشعر الأبيض بدا واثقاً من وجوده هنا وهو يدق جرس الباب الذى لم يكن فى مكان ظاهر، رامقاً الشارع الخالى بنظرة سريعة.

ثقته فى وجوده لم تخب؛ فقد فتح الباب رجل ووقف ساداً فرجة الباب بجسده، كان يرتدى أقراطاً فى أذنيه وبدت ملامحه داكنة.

قال الزائر: "مساء الخير. هل سيِّدك بالداخل؟".

فرد الآخر فى نفور: "نعم بالداخل، لكنه لا يستقبل ضيوفاً فى هذا الوقت بدون موعد سابق".

"أظنُّه سيرحب بلقائى. أخبره بأن صديقه لى ماركيز حاضر للقائه".

فتح الرجل الباب على اتساعه وسمح للزائر بالدخول.

ذلك الرجل الذى عرَّف نفسه باسم لى ماركيز كان يوارى وجهه بيديه حين كان يتحدَّث. وحين عاد الخادم معلناً أن السيد بابوبولويس يرحب بلقاء الزائر، كان ثمة تغيير قد وقع على ملامح الزائر. والخادم لا يمكن إلا أن يكون غير دقيق الملاحظة أو أنه دُرِّب جيداً؛ لأنه لم يظهر دهشة لرؤية قناع أسود صغير كان يغطى ملامح الضيف. قاده نحو باب فى نهاية الصالة، وفتح الباب وقال فى صوت خفيض مهذب: "السيد لى ماركيز".

كان الرجل الذى قام باستقبال الضيف مهيب الهيئة، وثمة ملمح فى مظهره يشع بالوقار والعظمة. كانت له جبهة مرتفعة مدوَّرة ولحية بيضاء جميلة، وفى أسلوبه شىء من البراءة.

قال السيد بابوبولويس: "مرحباً صديقى العزيز لى ماركيز".

كان يتحدَّث الفرنسية بصوت قوى ورنان.

قال الزائر: "أعتذر لقدومى فى هذه الساعة المتأخِّرة".

فقال بابوبولويس: "لا بأس على الإطلاق، بل هى ساعة مناسبة، لعل أمسيتك هذه الليلة كانت مثيرة؟".

فقال لى ماركيز: "لم تكن الإثارة من حظى أنا شخصياً".

فقال بابوبولويس: "بالطبع بالطبع. هل من أخبار لديك؟".

رمى صاحبه بنظرة جانبية حادَّة، نظرة لم تكن على الأقل سلمية أو حميدة.

"ليس هناك من أخبار. لقد فشلت المحاولة. إننى لم أتوقَّع غير هذا".

فقال بابوبولويس: "تماماً، إن أى تصرف أخرق ..."، ثم أشاح بيده معبراً عن بغضه الشديد لأى خطأ من أى نوع. وبالطبع لم يكن هناك من خطأ بشأن السيد بابوبولويس أو البضاعة التى يتعامل

فيها؛ فقد كان معروفاً تماماً فى معظم القصور الملكية الأوربية، وكان الملوك يدعونه دميتريوس رافعين الكلفة فى تعاملهم معه بطريقة ودية. إنه معروف بالحذر والتكتُّم الشديد. وتلك الصفة هى التى ساعدته - إلى جانب جودة بضاعته - فى تجاوز الكثير من الصفقات التى كانت موضع شك.

قال بابوبولويس: "إن الهجوم المباشر ..."، ثم هزَّ رأسه وتابع: "نادراً ما يأتى بنتيجة".

فهز الآخر كتفيه بلا مبالاة.

وقال معلقاً: "إنه يوفِّر الوقت، وفشله لا يكلِّف شيئاً – تقريباً - أما الخطة الأخرى فلن تفشل".

فقال بابوبولويس وهو يمعن النظر فى صاحبه: "صحيح".

أومأ الآخر ببطء.

قال تاجر التحف: "إنَّ لدى ثقة عظيمة فى – فى سمعتك".

فابتسم لى ماركيز برقة.

وقال مغمغماً: "إنَّ ثقتك هذه لن تخيب".

قال الآخر، ورنة حسد تشوب صوته: "إنك تحصل على فرص نادرة".

فقال لى ماركيز: "أنا من يصنعها".

ثم نهض من مقعده وتناول عباءته التى كان يرمى بها فى إهمال على ظهر كرسى.

"سوف أبقيك على اطلاع بما يجرى يا سيد بابوبولويس، من خلال القنوات المعتادة؛ لكن يجب ألا يكون هناك خلل فى ترتيباتك".

امتعض السيد بابوبولويس قائلاً:

"ترتيباتى لم تختل قط".

فابتسم الآخر، وبدون كلمة واحدة غادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه.

ظل السيد بابوبولويس مستغرقاً فى تفكيره لحظات، عابثاً بلحيته المهيبة، ثم عبر الغرفة باتجاه باب آخر يفتح داخلها. وما إن بدأ فى إدارة مقبض الباب حتى اندفعت إلى الغرفة شابة بدا واضحاً جداً أنها كانت تميل بأذنيها على ثقب الباب. لم يبد السيد بابوبولويس دهشة أو اكتراثاً؛ فقد بدا أنَّ الأمر طبيعى جداً بالنسبة له.

سألها: "حسنًا، ما الأمر يا زيا؟".

فقالت زيا شارحة: "لم أشعر به وهو يغادر".

كانت شابة جميلة، ذات ملامح مثالية، ولها عينان سوداوان لامعتان، وشبهاً عاماً فى الشكل مع السيد بابوبولويس بشكل يجعل من اليسير الحكم بأنهما والد وابنته.

قالت متضجِّرة: "إنَّه من المزعج ألا يستطيع المرء النظر والاستماع من ثقب الباب فى آن واحد".

فقال السيد بابوبولويس فى بساطة شديدة: "لطالما أزعجنى ذلك أنا أيضاً".

قالت زيا ببطء: "إذن هل دائماً ما يرتدى السيد لى ماركيز قناعاً على وجهه يأبى؟".

"نعم، دائماً".

سرى الصمت لحظات.

ثم سألت زيا: "الأمر يخص الماسات، أليس كذلك؟".

فأومأ الوالد إيجاباً.

سألها بوميض مرح يبدو فى عينيه: "ما رأيك إذن صغيرتى؟".

"فى السيد لى ماركيز؟".

"نعم".

فقالت زيا ببطء: "أظن أنَّ من النادر أن تجد رجلاً إنجليزياً حسن التربية يتحدَّث الفرنسية على هذا النحو الجيد".

فقال بابوبولويس: "هذا إذن ما ترينه".

وكالعادة لم يورِّط نفسه برأى، وإنما وافقها بلباقة.

قالت زيا: "أرى أيضا أنَّ رأسه كان ذا شكل غريب".

فقال والدها: "كان كبيراً، كبيراً بشكل يدعو للسخرية. لكن هذا لا يكون إلا بشعر مستعار".

ثم نظر كل منهما للآخر، وابتسما.

الفصل الثالث

قلب النيران

عبر "روفوس فان ألدن" الأبواب الدوَّارة لفندق سافوى، واتجه نحو مكتب الاستقبال؛ فقابله موظف الاستقبال بابتسامة مهذبة وقال:

"سعيد بلقائك ثانية يا سيد فان ألدن".

أومأ المليونير الأمريكى برأسه فى تحية اعتيادية.

وسأل: "هل كل شىء على ما يرام؟".

"نعم يا سيدى، المايجور نايتون فى جناحك الآن".

فأومأ فان ألدن ثانية.

وسأل بتلطُّف: "هل وصلتنى خطابات؟".

"أرسلت جميعها لجناحك يا سيدى. أوه، مهلاً".

ثم دسَّ يده فى خزانة أوراق، وأخرج منها خطاباً.

وقال شارحاً: "لقد وصل هذا لتوه".

أخذ فان ألدن الخطاب منه، فتغيَّر وجهه وهو ينظر للخط المكتوب على الخطاب، كان خطاً نسائياً واضحاً، وعلى الفور لانت خطوط وجهه الحادة، وانبسط خط شفتيه الجاف فى ابتسامة، وبدا شخصاً مختلفاً تماماً، ثم سار فى اتجاه المصعد والخطاب بيده والابتسامة لا تزال على شفتيه.

وفى غرفة الاستقبال بجناحه الخاص، جلس شاب على المكتب يصنِّف البريد الوارد فى خفة وبراعة اكتسبها من طول الممارسة. انتفض الشاب واقفاً حين دخل فان ألدن وحياه قائلاً:

"مرحبًا نايتون".

"سعيد بلقائك ثانية يا سيدى، هل استمتعت بوقتك؟".

قال المليونير فى برود: "كثيراً؛ إنَّ باريس مدينة تافهة هذه الأيام. لكننى مع ذلك حصلت على ما سعيت إليه".

وابتسم لنفسه ابتسامة شرسة.

فقال المساعد ضاحكاً: "أنت دائماً تحصل على ما تريد يا سيدى".

فقال الآخر موافقاً: "هذا صحيح".

كان يتحدَّث بلهجة تقريرية، وكأنَّه يذكر حقيقة مؤكدة. سار نحو المكتب وهو يقذف بمعطفه الثقيل.

"هل من شىء مهم؟".

"لا أظن يا سيدى؛ فمعظمها مكاتبات روتينية، وإننى لم أنته من تصنيفها بعد".

فأومأ فان ألدن إيماءة مقتضبة. كان فان ألدن رجلاً يندر أن يبدى لوماً أو يعبِّر عن ثناء. كان نهجه مع موظفيه بسيطاً؛ فهو يمنحهم فرصة تجريب ثم يصرف بلا تردد من لا يثبت كفاءة. اختياراته للموظفين كانت غير تقليدية؛ فـ "نايتون" - على سبيل المثال - كان قد قابله صدفة فى منتجع سويسرى قبل شهرين؛ فراقه الرجل، واطلع على سجلِّه الحربى، ووجد فيه تفسيراً للعرج الذى يظهر فى مشيته. لم يُخْفِ نايتون حقيقة بحثه عن عمل، وبالطبع سأل المليونير على استحياء إن كان يعرف فرصة متاحة. يذكر فان ألدن - بابتسامة كالحة فيها شىء من التفكُّه- تلك الدهشة التامة التى غشَّت ذلك الشاب حين عُرِضَت عليه وظيفة المساعد الشخصى لذلك الرجل العظيم.

قال متلعثماً: "لكن – لكننى لا أملك خبرة فى عمل كهذا".

فرد فان ألدن: "ليس هذا بالأمر المهم، إن لدى بالفعل ثلاثة مساعدين يهتمون بالعمل. لكننى على الأرجح سأكون فى إنجلترا طيلة الأشهر الستة القادمة، وسأكون بحاجة لرجل إنجليزى ملم بالأمور ويمكنه القيام عنى بواجباتى الاجتماعية".

وحتى الآن وجد فان ألدن أنَّ حكمه عليه كان فى محلِّه؛ فقد أظهر نايتون سرعة، وذكاءً، وسعة حيلة، وأظهر أسلوباً له سحر مختلف.

أشار المساعد إلى ثلاثة أو أربعة خطابات وضعت جانباً على سطح المكتب وقال: "لعل هذه تكون مهمة يا سيدى؛ فلو أنك نظرت فيها، وأولها يخص اتفاق كولتون ـــــــ".

لكن فان ألدن رفع يده معترضاً.

وقال: "لن أنظر الليلة فى أمور منهكة"، وأضاف وهو ينظر إلى الخطاب الذى يحمله بيده: "يمكن تأجيلها جميعاً حتى الصباح، إلا هذا الخطاب". ومرة أخرى تسلَّلت تلك الابتسامة الغريبة إلى وجهه.

ابتسم ريتشارد نايتون فى رقة وغمغم قائلاً: "أهو من السيدة كيترنج؟ لقد اتَّصلت أمس واليوم. يبدو أنها تريد لقاءك فى الحال، سيدى".

"حقاً، الآن!".

تلاشت الابتسامة عن وجه المليونير، وفتح المظروف واستخرج الورقة المرفقة به، وما إن شرع فى القراءة حتى اكفهر وجهه وزمّ شفتيه كمن وقعت به كارثة مالية، وانعقد حاجباه تنبؤاً بشر. فأشاح نايتون بوجهه، وتابع عمله بفتح الخطابات وتصنيفها. أفلتت من فم المليونير سبة، وقبض يده وضرب بها المنضدة فى عنف.

غمغم قائلاً لنفسه: "لن أحتمل ذلك، يالها من فتاة مسكينة، من حسن حظها أنَّ أباها العجوز لا يزال بجوارها".

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا لعدة دقائق، وحاجباه معقودان معاً فى عبوس؛ ظل نايتون مائلاً فى ثبات على المكتب، وفجأة توقَّف فان ألدن. تناول معطفه من على الكرسى حيث ألقاه.

"هل تخرج ثانية سيدى؟".

"نعم، سأذهب لرؤية ابنتى".

"وماذا لو اتَّصل جماعة كولتون ـــــ".

فقال فان ألدن: "قل لهم أن يذهبوا إلى الجحيم".

ارتدى فان ألدن معطفه، ووضع قبعته على رأسه وهو يتَّجه ناحية الباب، ثم توقَّف ويده على مقبض الباب.

ثم قال: "أنت رفيق مثالى يا نايتون؛ فأنت لا تزعجنى حين أكون فى ثورة غضبى".

ابتسم نايتون ابتسامة خفيفة لكنه لم يرد.

فقال فان ألدن: "إنَّ روث هى ابنتى الوحيدة، ولا أحد يمكنه تقدير ما تعنيه لى".

سرت ابتسامة شاحبة فى وجهه، ودفع يده فى جيبه ثم قال:

"دعنى أرِكَ شيئاَ يا نايتون".

ثم عاد ثانية إلى سكرتيره.

أخرج من جيبه علبة ملفوفة بإهمال فى ورق بنى، وألقى بالغلاف وكشف عن علبة كبيرة حمراء مخملية رخيصة، وفى وسطها كتبت حروف أولى محاطة بتاج. فتح العلبة، فشهق المساعد بشدة. وتحت الجانب الداخلى الأبيض الرث قليلاً، توهَّجت الأحجار بارقة بلون الدم!

قال نايتون:"يا إلهى، هل هى – هل هى حقيقية سيدى؟".

ضحك فان ألدن مستخفاً وقال:

"لا أعجب لسؤالك هذا، فبين هذه الماسات الثلاث، الماسة الأكبر فى العالم. لقد ارتدتها كاثرين ملكة روسيا يا نايتون، تلك الوسطى تسمى "قلب النيران". إنها مثالية الصنع – ليس فيها عيب واحد".

غمغم المساعد قائلاً: "لكن، لابد أنها تساوى ثروة كبيرة".

فقال فان ألدن فى غير اكتراث: "أربعمائة أو خمسمائة ألف دولار؛ هذا ناهيك عن القيمة التاريخية لها".

"ومع هذا تحملها فى جيبك على هذا النحو؟!".

فضحك فان ألدن فى تفكُّه.

"نعم، إنها هدية صغيرة من أجل روثى".

فابتسم المساعد فى تحفُّظ وقال:

"يمكننى الآن تفهُّم قلقها بشأن لقائك على الهاتف".

لكن فان ألدن هز رأسه، وعاد وجهه لجدِّيته، ثم قال:

"فى هذه أنت مخطئ؛ فهى لا تعلم بأمر هذه الهدية؛ فستكون مفاجأتى لها".

أغلق العلبة وبدأ يغطيها فى بطء ثانية.

قال فان ألدن: "لكم هو قليل يا نايتون ما يمكن للمرء أن يقدِّمه لأحبَّائه. إننى على استعداد لأن أشترى جزءاً من هذا الكوكب وأمنحه لروث إن كان ذلك ينفعها، لكن ذلك غير ممكن. إننى أرغب

فى أن أحيط عنقها بهذه الماسات لعلها تمنحها بعض السعادة، ربما، لكن ـــــ".

لم ينه جملته؛ فأومأ مساعده بتحفُّظ؛ فهو يعلم تمام العلم سمعة السيد ديريك كيترينج زوج ابنته. تنهَّد فان ألدن، وأعاد العلبة إلى جيب معطفه، ورد الإيماءة لنايتون وترك الغرفة.

الفصل الرابع

شارع كارزون

وضع لوك خطته بحرص واستعد لتنفيذها دون مزيد من الجلبة حينما نزل لتناول الإفطار فى صباح اليوم التالى.

يعيش الشريف ديريك كيترينج فى شارع كارزون. ميَّز الخادم الذى فتح الباب فان ألدن على الفور وسمح لنفسه بابتسامة ترحيب متحفظة، ثم قاده لأعلى حيث غرفة الاستقبال المزدوجة فى الطابق الأول.

بادرته الشابة التى كانت تجلس بجوار النافذة صائحة:

"أبى! كيف يمكن الوصول إليك! طيلة اليوم وأنا أتصل بالماجور نايتون فى محاولة للوصول إليك، لكنه لم يستطع أن يؤكد موعد عودتك".

كانت روث كيترينج شابة فى الثامنة والعشرين، ومع كونها غير جميلة، أو بالأحرى دون أى درجة من الجمال؛ فقد كانت لافتة للانتباه؛ نظراً للونها. لقد كان فان ألدن فى أيام شبابه يشبهه الناس متندرين بالجزر والزنجبيل، وكانت روث ذات شعر كستنائى تماماً. ومع هذا الشعر كانت ذات عينين سوداوين وأهداب شديدة السواد – لكنها كانت تعدل هذا التناقض قليلاً بأدوات التجميل. كانت طويلة ورشيقة، وذات مشية حسنة. ويكاد الناظر إليها يشبه وجهها بوجه النساء اللاتى يرسمهن رافاييل فى لوحاته. لكن بالنظر المتمعِّن تكتشف أنَّها تمتلك ذات الفك والذقن اللذين لأبيها؛ هذا فضلاً عن أنها تمتلك أيضاً ذات الحدة والتصميم الذيْن لأبيها. إن صفاتها تناسب رجلاً أكثر من مناسبتها امرأة. إنَّ روث فان ألدن تعوَّدت منذ طفولتها ألا تتبع إلا رأيها، وكل من حاولوا الوقوف فى طريقها، أدركوا سريعاً أنَّ ابنة فان ألدن لا تستسلم أبداً.

قال فان ألدن: "لقد أخبرنى نايتون أنَّك اتصلت به، وأنا لم أعد من باريس سوى من نصف ساعة فقط، أكل هذا بسبب ديريك؟".

قالت باكية: "إنَّ الأمر يفوق الوصف؛ لقد تجاوز كل الحدود. إنه – إنه لا يصغى لأى شىء أقوله".

كان فى صوتها نبرة من الذهول بقدر ما فيه من الغضب.

فقال المليونير فى حدة: "سوف يستمع لى أنا".

تابعت روث كلامها قائلة:

"أنا تقريباً لم أره طيلة الشهر الماضى؛ إنه يجول فى كل مكان مع تلك المرأة".

"أية امرأة؟".

"ميريلى تلك التى ترقص فى البارثنون".

فأومأ فان ألدن.

"لقد كنت فى بيت ليكونبرى الأسبوع الماضى، وتحدَّثت – تحدثت إلى اللورد ليكونبرى، كان الرجل فى غاية اللطف والتعاطف، وقال إنَّه سيتحدث إلى ديريك".

فقال فان ألدن: "صحيح!".

"ماذا تعنى بتعليقك هذا يا أبى؟".

"أعنى ما تفهمينه تماماً يا روث؛ إنَّ حديث العجوز المسكين ليكونبرى لا قيمة له، هو متعاطف معك بالطبع، ويحاول أن يهدّئ ثورتك بلا شك؛ فكون ولده ووريثه زوجاً لابنة واحد من أثرى أثرياء الولايات المتحدة، يكون حرصه على عدم فساد العلاقة أمراً طبيعياً. لكن الرجل أقرب للموت منه إلى الحياة، والكل يعلم ذلك، وأى شىء يقوله لن يكون له كبير أثر لدى ديريك".

قالت روث بعد لحظات صمت: "ألا يمكنك فعل شىء يا أبى؟".

فقال المليونير: "ربما أمكننى"، ثم صمت مفكراً لثوان، ثم تابع قائلاً: "ثمة أمور كثيرة يمكننى القيام بها، لكن واحداً فقط من بينها هو ما قد يجدى، ما مدى ما لديك من جرأة يا روث؟".

حدَّقت إليه، فأومأ لها مشجعاً.

"إننى أعنى تمامًا ما قلته. هل لديك الجرأة بحيث تعترفين للعالم كله بأنك كنت على خطأ؟ فليس هناك سوى مخرج واحد من تلك المعضلة يا روث، ضعى حداً لخسائرك وابدئى من جديد".

"هل تقصد ـــــ".

"أعنى الطلاق".

"الطلاق!".

ابتسم فان ألدن بسمة جافة.

"أنت تقولين الكلمة وكأنك لم تسمعيها من قبل يا روث، مع أنَّ أصدقاءك يفعلون ذلك من حولك فى كل يوم".

"أعلم ذلك، ولكن ـــــــ".

توقَّفت وهى تعض على شفتيها، فأومأ والدها برأسه متفهماً، ثم قال:

"أنا أفهمك ياروث، فأنت مثلى، لا تتحمَّلين الاستسلام، لكننى تعلَّمت، وعليك أيضاً أن تتعلمى أنَّ ذلك يمكن أن يكون السبيل الوحيد أحياناً. ربما أمكننى أن أجد طريقة لإعادة ديريك إليك، لكن سننتهى إلى ذات النهاية كل مرة. ليس هناك من فائدة فيه يا روث؛ لقد فسد فساداً تاماً. واسمحى لى، إننى ألوم الآن نفسى؛ لأننى سمحت لك بالزواج منه. لكن بدا أنك مصرَّة على الاقتران به، وبدا هو عازماً على اتخاذ منحنى جديد فى حياته – حسناً لقد قاومتك مرة حبيبتى ...".

لم ينظر إليها وهو يلفظ كلماته الأخيرة، فلو فعل للاحظ ما بدا على وجهها من تغيُّر سريع.

قالت بصوت جاف: "نعم فعلت".

"وكان قلبى لينفطر لو فعلت ذلك بك ثانية، رغم أنى وددت لو أنى استطعت، لقد عشت حياة بائسة فى السنوات القليلة الماضية يا روث".

فقالت السيدة كيترينج: "لم تكن حياة – مقبولة".

"هذا ما يجعلنى أقول إنَّ عليك إنهاء هذه الحياة". ضرب الطاولة بقوة محدثاً صوتاً مرتفعاً وأكمل: "ربما لا يزال لديك توق لهذا الشخص، اقض على هذا التوق، واجهى الحقائق، إن ديريك كيترينج لم يتزوجك إلا لما لديك من مال؛ هذا كل هدفه، فتخلصى منه يا روث".

نظرت روث كيترينج فى الأرض للحظات، ثم قالت دون أن ترفع رأسها:

"وإذا لم يقبل؟".

فنظر إليها فان ألدن فى اندهاش، ثم قال:

"لن يكون له رأى فى هذا الأمر من الأساس".

فاحمرَّ وجهها وعضَّت شفتيها.

"كلا – كلا بالطبع لن يكون، أنا أعنى فقط ـــــ".

توقَّفت؛ فنظر أبوها فى عينيها نظرة فاحصة، ثم قال:

"ماذا تعنين إذن؟".

"أعنى – " ثم توقَّفت؛ لتختار ألفاظها بعناية: "أعنى أنه ربما لن يرغب فى الاستسلام".

انتفض المليونير قائلاً فى حدة:

"هل تعنين أنه قد يرغب فى اللجوء للقضاء؟ فليفعل إن أراد! لكن اعلمى أنك مخطئة فى ظنّك هذا؛ فهو لن يواجه، فأى محام يلجأ إليه سوف يخبره أنَّ قضيته خاسرة لا محالة".

"ألا تظن" – تردَّدت قليلاً – "أعنى أنه – بغض النظر عن كراهيتى له – قد يحاول تعقيد الأمور قدر الإمكان؟".

نظر إليها أبوها فى اندهاش.

"هل تعنين أنه سيحاول خوض سبيل اللجوء للقضاء للنهاية؟".

ثم هز رأسه نافياً.

"هذا غير محتمل بالمرة، ينبغى أن يكون لديه ما يستند إليه".

لم تجب السيدة كيترينج، بينما نظر أبوها إليها بحدة.

"قولى ما لديك يا روث، ثمة شىء يعتمل داخلك فما هو؟".

"لا شىء؛ لا شىء بالمرة".

لكن رنة صوتها لم تكن مقنعة.

"تخشين ذيوع الأمر، أليس كذلك؟ دعى ذلك لى. سوف أدير الأمر كله بسلاسة لا تثير أى ضجة".

"حسنًا يا أبى، فليكن، إن كان ذلك ما تراه أفضل الحلول".

"هل ما زلت تحبينه يا روث؟ أهذا ما يؤلمك؟".

"كلا".

خرجت الكلمة من فمها خالية من اليقين، لكنَّ أباها قنع بما وصلا إليه وربت كتفها.

"لا تقلقى يا صغيرتى، سيكون كل شىء على ما يرام، والآن انسى كل هذا؛ فقد أحضرت لك هدية من باريس".

"هدية من أجلى أنا؟ هل هى جميلة؟".

فقال فان ألدن باسماً: "آمل أن تجديها كذلك".

أخرج العلبة من جيب معطفه وأعطاها إياها، نزعت الغطاء فى حماسة، ثم فتحت العلبة؛ فخرجت من بين شفتيها صيحة انبهار طويلة. كانت روث كيترينج تحب المجوهرات – لطالما كانت كذلك.

"إنها رائعة – رائعة بحق يا أبى".

قال المليونير فى رضا: "إنها ثروة بذاتها، هل أعجبتك؟".

"أعجبتنى! إنها أحجار كريمة يا أبى. كيف استطعت الحصول عليها؟".

"آه، هذا سرِّى للغاية؛ لطالما بيعت هذه الماسات سراً بطبيعة الحال، إنها ماسات ذات شهرة كبيرة، هل ترين تلك الماسة الوسطى؟ لعلك سمعت بها من قبل، إنها ماسة "قلب النيران" التاريخية".

فقالت السيدة كيترينج مكررة :"ماسة قلب النيران!".

تناولت العقد الماسى من العلبة وحملته إلى صدرها، والأب يراقبها. كان يفكر فى سلسلة النساء اللاتى سبق لهنَّ أن ارتدين تلك الجوهرة. وجعل يذكر الاكتئاب، والغم، والأحقاد التى ارتبطت بها. إن ماسة "قلب النيران" كغيرها من الماسات الشهيرة التى تركت خلفها آثاراً ضخمة من المآسى والعنف. لقد بدت تلك الجوهرة فى يد روث الواثقة وكأنها فقدت قوة الشر الكامنة فيها. إنَّ تلك المرأة بأسلوبها الهادئ الرصين وطابعها الغربى الحديث سوف تكون حداً لهذه المآسى أو البلايا المرتبطة بالجوهرة. أعادت روث العقد الماسى للعلبة، ثم قفزت متعلِّقة برقبة والدها وقالت:

"شكراً، شكراً، شكراً، يا أبى، إنها رائعة! إنك دائماً تمنحنى أروع الهدايا".

فقال فان ألدن مربتاً كتفها: "هذا صحيح؛ فأنت كل ما لدى يا روث".

"ابق معنا للعشاء يا أبى".

"لا أظننى فاعلاً؛ لقد كنتِ على وشك الخروج، أليس كذلك؟".

"بلى، لكننى سألغى موعدى بسهولة؛ فليس ثمة ما يمتع فيه بأية حال".

فقال فان ألدن: "كلا، بل اذهبى لموعدك؛ إنَّ لدى صفقة كبيرة علىَّ أن أعمل على إتمامها. أراك غداً يا حبيبتى. وربما اتصلت بك وتقابلنا فى مكتب جالبراث".

كان يقصد جالبراث وكاثبريستون محامييه فى لندن.

فقالت فى تردد: "حسنًا يا والدى، لا أظن ذلك سيمنعنى من الذهاب إلى الريفييرا".

"ومتى تنوين الذهاب؟".

"فى الرابع عشر من هذا الشهر".

"حسنًا، سيكون ذلك مناسباً تماماً. بالمناسبة يا روث، لا يجدر بك السفر للخارج بهذه الماسات، الأفضل أن تودعيها خزانة فى المصرف".

فأومأت كيترينج موافقة.

قال الأب ممازحاً: "نحن لا نريد أن تكون "قلب النيران" سبباً فى سرقتك أو قتلك".

فردَّت ابنته باسمة: "ومع هذا فأنت تأتى بها فى جيبك هكذا".

"نعم – " انقطع حديثه، فلفت ذلك انتباهها.

"ما الأمر يا أبى؟".

فقال باسماً: "لا شىء، فقط تذكَّرت مغامرتى الصغيرة فى باريس".

"مغامرة؟".

"نعم، فى الليلة التى اشتريت فيها هذه الماسات".

كان يتحدَّث وهو يشير إلى علبة المجوهرات.

"أخبرنى بها إذن".

"لا شىء أحكيه يا روث، بعض اللصوص هاجمونى، فأطلقت الرصاص باتجاههم؛ هذا كل شىء".

فنظرت إليه نظرة فخر.

"أنت هدف صعب يا أبى".

"كونى على ثقة من ذلك يا روث".

قبَّلتْه بحب ثم افترقا. ولدى عودته إلى السافوى، أمر نايتون فى اقتضاب قائلاً: "حاول الاتصال برجل يدعى جوبى، ستجد عنوانه فى مفكرتى الخاصة. عليه أن يكون هنا غداً صباحاً فى الساعة التاسعة والنصف".

"حاضر يا سيدى".

"أريد أيضاً مقابلة السيد كيترينج، فتش عنه في كل مكان حتى تجده. ابحث عنه فى ناديه – حاول الاتصال به بأى شكل، ورتِّب للقائى به غداً صباحاً. الأفضل أن تؤخِّر موعده لقرب الحادية عشرة؛ فهو ليس ممن يستيقظون مبكراً على أية حال".

أومأ المساعد فى تفهُّم لتلك التعليمات. ترك فان ألدن نفسه لخادمه. فأعد حمَّامه، واستلقى فى ترف فى حوض المياه الساخنة، وعاد بذهنه لحواره مع ابنته. كان إجمالاً يشعر بالرضا لما استقرَّا عليه الأمر. لقد أعمل عقله كثيراً حتى استقر إلى أنَّ الطلاق هو السبيل الوحيد لخلاصها. لقد قبلت روث حله المقترح بسرعة لم يتوقعها. ورغم قبولها، ظل لديه إحساس غامض بعدم الارتياح؛ فثمة شىء ما شاب أسلوبها؛ فلم يكن طبيعياً تماماً؛ فتجهَّم مع نفسه.

غمغم قائلاً: "ربما كنت واهماً، لكننى مع هذا على يقين من أن ثمة شيئاً لم تخبرنى به".

الفصل الخامس

رجل مفيد

حين دخل نايتون الغرفة، كان فان ألدن قد أنهى لتوه إفطاره السريع المكوَّن من قهوة وخبز محمَّص؛ وهذا هو كل ما يسمح به لنفسه.

"السيد جوبى فى انتظارك بالأسفل يا سيدى".

نظر المليونير إلى ساعته؛ فوجد عقاربها تشير إلى التاسعة والنصف.

قال فى خشونة: "حسناً، يمكنه المجىء إلى هنا".

بعد دقيقة أو اثنتين دخل جوبى إلى الغرفة. كان رجلاً ضئيلاً كبير السن، يلبس ثياباً رثة، وله عينان تتفحصان باهتمام كل ما يحيط به عدا الشخص الذى دعاه.

قال المليونير: "صباح الخير يا جوبى، اجلس".

"شكراً لك يا سيد فان ألدن".

جلس السيد جوبى ويداه على ركبتيه وعيناه مثبتتان على المدفأة.

"أريدك فى مهمة يا جوبى".

"وما هى يا سيد فان ألدن؟".

"إن ابنتى متزوجة من السيد ديريك كيترينج، ولعلك تعلم ذلك".

حوَّل السيد جوبى نظره إلى الدرج الأيسر للمكتب، وسمح لابتسامة استنكار أن تعلو وجهه. إنَّ السيد جوبى يعلم أشياء كثيرة مهمة للغاية، لكنه دائماً ما يكره الاعتراف بالحقيقة.

"ونزولاً على نصيحتى، فإنها على وشك تقديم عريضة دعوى لطلب الطلاق. هذا بالطبع عمل المحامى، لكننى لأسباب خاصة بى، أريد منك أكبر قدر من المعلومات وأتمها".

فنظر السيد جوبى إلى إفريز المكتب وسأل مغمغماً: "تقصد عن السيد كيترينج؟".

"نعم، عن السيد كيترينج".

"حسناً يا سيدى".

نهض السيد جوبى واقفاً.

"متى ستكون هذه المعلومات متوفِّرة لدىّ؟".

"هل أنت فى عجلة من أمرك يا سيدى؟".

فقال المليونير: "أنا دائماً فى عجلة من أمرى".

فابتسم جوبى متفهماً ونظره متَّجه نحو حاجز المدفأة.

وسأل: "الساعة الثانية بعد الظهر، هل يناسبك هذا؟".

قال الآخر موافقاً: "ممتاز، عمت صباحاً يا جوبى".

"عمت صباحاً يا سيد فان ألدن".

وبينما كان جوبى مغادراً، وعاد مساعده إلى الغرفة قال المليونير:"إنه رجل مفيد جداً؛ فهو محترف فى مجاله".

"وما مجاله؟".

"جلْب المعلومات، فلا يتطلب الأمر منه أكثر من أربع وعشرين ساعة كى يأتيك بسيرة مفصلة لحياة أى شخص تريده ولو كان يسكن أقاصى الأرض".

فقال نايتون بابتسامة: "ذلك نوع مفيد من الرجال حقاً".

قال فان ألدن: "قد أفادنى على هذا النحو مرة أو مرتين. والآن أنا مستعد للعمل يا نايتون".

وعلى مدار الساعات التالية، أُنجزَت كمية كبيرة من العمل على نحو سريع. وفى تمام الحادية عشرة والنصف دق جرس الهاتف، وأعلم فان ألدن أنَّ السيد كيترينج كان يتَّصل، فنظر نايتون إلى فان ألدن الذى أومأ برأسه، فأصدر نايتون أمره إلى محدثه على الهاتف قائلاً:

"اطلب من السيد كيترينج أن يصعد إلى هنا من فضلك".

جمع المساعد أوراقه ورحل. تلاقى الضيف والمساعد عند باب الجناح، فتنحَّى السيد كيترينج جانباً حتى يمر الآخر أولاً، ثم دخل وأغلق الباب خلفه.

"صباح الخير يا سيدى، سمعت أنك تريد رؤيتى".

أيقظ صوته الخامل ذو الرنة الساخرة ذكريات فى رأس فان ألدن. كان فى صوته سحر – كان دوماً كذلك. نظر فان ألدن إلى زوج ابنته فى حنق. كان ديريك رجلاً فى الرابعة والثلاثين من عمره، نحيل الجسد، له وجه أسمر دقيق، تشوبه حتى الآن سمة صبيانية لا يمكن وصفها.

قال فان ألدن بخشونة: "تعال، اجلس".

دفع كيترينج نفسه فى أحد الكراسى، ونظر لحماه نظرة مستخفة.

قال معلقاً فى لطف: "لم أرك منذ أمد بعيد يا سيدى، هل رأيت روث؟".

قال فان ألدن: "رأيتها بالأمس".

فقال الآخر باستخفاف: "تبدو فى حالة ممتازة، أليس كذلك؟".

قال فان ألدن بطريقة جافة: "لا أظن أنه كانت لديك فرصة للحكم على حالتها".

رفع ديريك كيترينج حاجبيه.

قال باستخفاف: "نحن نتقابل أحيانًا فى ذات النادى الليلى".

فقال فان ألدن بخشونة: "سأدخل فى الموضوع مباشرة، لقد نصحت روث بأن تقيم دعوى طلاق".

فغمغم قائلاً: "هائل! هل تسمح لى بالتدخين يا سيدى".

أشعل سيجارة، ونفث دخان سيجارته وهو يضيف: "وماذا قالت روث؟".

فقال الوالد: "لقد قبلت نصيحتى".

"حقاً!".

فسأل فان ألدن بحدة: "هل هذا كل ما لديك لتقوله؟".

نفض كيترينج رماد سيجارته فى نافذة المدفأة.

وقال: "أرى أنها بهذا ترتكب خطأ فادحاً".

فقال فان ألدن فى تجهُّم: "هو كذلك من وجهة نظرك ولا شك".

قال الآخر: "دعنا لا نشخص الأمور، إننى هنا لا أفكر فى نفسى هذه اللحظة، إننى الآن أفكر فى روث، أنت تعلم أنَّ والدى العجوز لن يبقى طويلاً على قيد الحياة، كل الأطباء يؤكدون ذلك. ومن الأفضل أن تبقى روث سنة أخرى أو اثنتين، حينها سأصبح أنا لورد لوكينبرى وتصبح هى أميرة لوكينبرى، وهو ما كانت تريد الزواج منى لأجله".

قال فان ألدن بصوت هادر: "لا أريد وقاحة".

ابتسم ديريك كيترينج فى لا مبالاة.

وقال: "هذه فكرة قبيحة فعلاً، فليس هناك ما يغرى فى الألقاب هذه الأيام، لكن يبقى أن لوكينبرى مكان جميل عتيق، وفى كل الأحوال عائلتنا هى واحدة من أعرق عائلات إنجلترا. وسيكون من المزعج للغاية بالنسبة لروث إن هى طُلقت ورأتنى أتزوج مرة ثانية، وأن امرأة أخرى تصبح سيدة لوكينبرى بدلاً منها".

فقال فان ألدن: "إننى جاد فيما أقول أيها الشاب".

فقال كيترينج: "وكذلك أنا، إننى فى وضع مالى سيئ للغاية؛ وسأكون فى وضع لا أحسد عليه إن هى طلقتنى، وطالما أنها احتملتنى طيلة عشرة أعوام، فما يمنعها من الاحتمال بضعة شهور أخرى؟ إننى أؤكد لك أن والدى العجوز لن يبقى حياً أكثر من ثمانية عشر شهراً أخرى، وكما قلت لك سيكون من المؤسف ألا تحصل روث على ما تزوجتنى من أجله".

"هل تريد القول إنَّ ابنتى قد تزوجتك للقب، ومركز عائلتك؟".

فضحك ديريك ضحكة لم تكن كلها مرحاً.

"هل كنت تظن أن ما كان بيننا قصة حب ملتهبة؟".

فقال فان ألدن: "أعلم أنه لم يكن كذلك؛ فقد كان كل منكما يتحدث حديثاً مختلفاً تماماً قبل عشرة أعوام فى باريس".

"أحقاً فعلت؟ ربما. لقد كانت روث حينها جميلة جداً، كانت أقرب لتكون ملاكاً أو امرأة تقية. أمَّا أنا فأذكر أنه قد كانت لدى أفكار جيدة عن بدأ منعطف جديد من حياتى، عن الاستقرار والعيش وفق أعظم تقاليد الحياة العائلية البريطانية حيث الزوجة الجميلة المحبَّة".

ضحك مرة أخرى فى رنة أكثر نشازاً.

وقال: "لكنك لا تصدِّق ذلك على الأرجح؟".

فقال فان ألدن فى جمود: "لا شك عندى أنك تزوجت ابنتى من أجل مالها".

فقال الآخر ساخراً: "وهل تزوجتنى هى لحبها لى؟".

فقال فان ألدن "بالطبع".

حدق إليه ديريك للحظات ثم أومأ برأسه قائلاً:

"أتفهَّم اعتقادك هذا، أنا أيضاً كنت أظن ذلك فى حينه، لكننى أؤكد لك أننى سريعاً ما اكتشفت الحقيقة".

فقال فان ألدن: "لا أعلم ما ترمى إليه، ولست مهتماً به على أية حال، المهم أنك عاملت روث بطريقة مسيئة لأبعد الحدود".

فوافقه كيترينج فى استخفاف قائلاً: "نعم، فعلت. لكنها صعبة المراس، أنت تعلم ذلك فهى ابنتك، فتحت نعومتها الظاهرة تختبئ صلابة كصلابة حجر الصوان. لطالما عرفت أنت بأنك رجل صعب المراس، وهذا ما أخبرت به. لكنها أشد صلابة منك؛ ففى حياتك شخص واحد على الأقل تحبُّه أكثر من نفسك، لكن روث لم تفعل ذلك ولن تفعل".

قال فان ألدن: "هذا يكفى، لقد طلبت حضورك هنا كى أخبرك بالعدل والإنصاف ما نويت القيام به. آن لابنتى أن تنال شيئاً من السعادة، وتذكَّر، أننى سوف أكون خلفها دوماً".

نهض كيترينج وتوقَّف بجوار المدفأة، ثم رمى سيجارته، وبدأ حديثه فى هدوء تام.

قال: "ما الذى تقصده بالضبط من كلامك هذا؟".

فقال ألدن: "أعنى أنه لا يحسن بك أن تسعى إلى اللجوء إلى القضاء".

قال كيترينج: "أوه هل هذا تهديد؟".

فقال ألدن: "اعتبره كما تشاء".

سحب كيترينج كرسياً باتجاه الطاولة ليجلس فى مواجهة ألدن ثم قال:

"وماذا لو أننى سعيت للتقاضى لمجرد المضايقة؟".

هز ألدن كتفيه وقال:

"ليست لديك أية دعائم تستند إليها إن سعيت لذلك أيها الأحمق، وسل محاميك، سيؤكدون لك ذلك؛ فسمعتك السيئة غدت متندر أهل لندن كلهم".

"أعلم أن روث منزعجة من أمر ميريلى، وهذا حمق كبير منها، فأنا لا أتدخَّل فى أمر من تتخذ من أصدقاء".

فقال ألدن بحدة "ماذا تعنى؟".

ضحك ديريك وقال: "أرى أنك لا تعلم كل شىء، سيدى إنك مضلل، وهذا ربما يكون طبيعياً".

نهض وتناول قبعته وعصاه وتحرك باتجاه الباب.

ثم ألقى بضربته الأخيرة وقال: "إنَّ بذل النصح ليس من دأبى، لكن فى هذه الحال، أنصح ملحاً بوجوب الصراحة التامة بين الوالد وابنته".

غادر الغرفة سريعاً وأغلق الباب خلفه فى ذات اللحظة التى انتفض فيها المليونير من مجلسه.

ثم قال وهو يعود ثانية لمجلسه: "ما الذى يقصده بقوله هذا؟".

وصل قلقه إلى الذروة، فثمة شىء لم يتضح له تماماً، كان الهاتف بجوار مرفقه؛ فتناوله، وطلب رقم هاتف منزل ابنته.

"مرحباً! مرحباً! هل هذا هو 81907 رقم هاتف منزل مای فير؟ هل السيدة كيترينج موجودة؟ هى بالخارج إذن! آه خرجت لتناول الغداء، متى ستعود؟ آه، حسناً؛ كلا، ليس هناك من رسالة".

أعاد سماعة الهاتف ضارباً إياها فى غضب، وفى تمام الثانية كان يقطع أرض الغرفة سيراً فى انتظار جوبى، وقد وصل هذا الأخير فى الثانية وعشر دقائق.

صاح المليونير فى حدة: "ها، ماذا لديك؟".

لكن السيد جوبى تأنى وهو يجلس على الطاولة وأخرج مدوَّنة جيب مهترئة، وشرع يقرأ منها على نحو رتيب. أرهف المليونير سمعه لما يقرأ، والرضا يزداد على وجهه، وصل جوبى لنهاية قراءته، ثم وجَّه بصره نحو سلة المهملات.

قال فان ألدن: "حسنًا! الأمر يبدو محسوماً، قضيتنا ستنتهى فى طرفة عين؛ فذلك الدليل الخاص بالفندق كفيل بالأمر،أليس كذلك؟".

فقال جوبى وهو ينظر بحسد نحو كرسى مطلى بالذهب: "إنه دليل قاطع".

"وهو مالياً فى وضع سيئ جداً؛ فهو يحاول الحصول على قرض كما ذكرت. وقد حصل بالفعل على كل ما يستطيع تحصيله اعتماداً على ما يقدِّر الحصول عليه من ميراث أبيه، وبمجرد شيوع أخبار الطلاق، لن يستطيع الحصول على سنت واحد، ليس هذا فقط، فسوف يغرق فى ديونه ويوضع تحت الضغط من هذه الزاوية، لقد نلنا منه يا جوبى، لقد سحقناه".

ضرب الطاولة بقبضة يده فى قوة، وعلت وجهه أمارات الحدة والشعور بالنصر.

قال جوبى بصوت خفيض: " يبدو أنَّ المعلومات مرضية".

فقال المليونير: "علىَّ الآن الذهاب فى جولة بشارع كارزون. أنا ممتن لك جداً يا جوبى، لقد أحسنت بالفعل".

علت ابتسامة رضا شاحبة وجه جوبى.

وقال: "شكراً لك يا سيد فان ألدن، إننى أحاول تقديم الأفضل".

لم يتوجَّه فان ألدن مباشرة نحو شارع كارزون. بل نزل أولاً إلى المدينة؛ حيث أجرى مقابلتين أضافا رضًا إلى رضاه. ومن هناك استقل قطار الأنفاق إلى شارع داون. وبينما يسير فى شارع كارزون خرج شخص من البناية رقم 160 والتفت سائراً باتجاهه، ومر كل منهما بالآخر على رصيف المشاة. للحظة ظن المليونير أنه رأى ديريك كيترينج؛ فطول الرجل وبنيته قريبان منهما عند ديريك. لكن حين تلاقت الوجوه، أدرك أنه رجل لا يعرفه، لكنه – لكنه ليس غريباً تماماً؛ فوجه الرجل يستدعى فى عقل المليونير صورة ما مميزة لديه، وهى مرتبطة بشىءٍ غير لطيف لديه. حاول اعتصار ذهنه لتذكُّره دون جدوى؛ فتابع طريقه وهو يهز رأسه فى توتُّر؛ إنه يكره الشعور بالحيرة.

كان من الواضح أنَّ روث كيترينج كانت تنتظره، جرت نحوه وقبَّلته حين دخل.

"كيف تسير الأمور يا والدى؟".

فقال ألدن: "على نحو ممتاز، لكن أود الحديث معك قليلاً يا روث".

شعر على الفور بالتغيير الذى انتابها؛ فلقد تغيَّر وجهها من ترحيب تلقائى بأبيها إلى حذر وترقُّب لما عنده، فجلست على كرسى ضخم ذى أذرع.

فسألت: "ما الخطب يا أبى؟".

فقال فان ألدن: "لقد قابلت زوجك هذا الصباح".

"قابلت ديريك؟".

"نعم. وقد قال لى أشياء كثيرة، هى فى معظمها وقحة. وقبل أن يغادر بلحظات قال شيئاَ لم أفهمه. لقد نصحنى بأن تكون الثقة كاملة بين الوالد وابنته، فما الذى يعنيه بقوله هذا يا روث؟".

تحرَّكت السيدة كيترينج فى كرسيها.

"لست أدرى ما يعنيه، وكيف لى أن أعرف يا أبى؟".

فقال فان ألدن: "بل تعرفين. لقد قال شيئاً آخر، عن أن له الحرية فى اتخاذ الأصدقاء فى مقابل أنه لا يتدخل فى صداقاتك. ما الذى يعنيه بهذا؟".

فقالت روث كيترينج ثانية: "لست أدرى".

جلس فان ألدن، وفمه مزموم فى تجهُّم.

"اسمعى يا روث، إننى لن أمضى فى طريقى هذا معصوب العينين. أنا لست متأكداً ما إن كان زوجك يود إحداث متاعب أم لا. وهو الآن لا يمكنه إحداث هذه المتاعب. فلدىَّ الوسائل الكفيلة بإسكاته، وإغلاق فمه نهائياً، لكننى أريد أن أعرف إن كنت فى حاجة لاستخدام هذه الوسائل أم لا. فما الذى عناه بأنَّ لديك صداقات؟".

فهزت السيدة كيترينج كتفيها.

قالت فى تردد: "إنَّ لدىَّ أصدقاء كثيرين، ولست أدرى ما الذى يعنيه فعلاً".

بدا يتحدَّث الآن كما لو أنه يتحدَّث إلى خصم.

وقال: "لنكن أكثر وضوحاً، مَنِ الرجل الذى يعنيه؟".

"أى رجل؟".

"الرجل. الرجل الذى كان ديريك يلمِّح إليه، رجل ذو منزلة خاصة من بين أصدقائك. لا داعى للقلق، حبيبتى، أعلم أنه ليس ثمة ما يضر، لكن ينبغى علينا البحث فى أى شىء قد يُطرح فى المحكمة؛ فبإمكان المحامين تحوير أمور كهذه وتصفيتها. أريد منك الآن معرفة هذا الرجل ومعرفة مدى درجة الود التى بينكما".

لم تجب روث؛ بل ظلت تفرك يديها ببعضهما فى انهماك حاد وعصبى.

فقال فان ألدن فى صوت أكثر نعومة: "هيا يا حبيبتى، لا تخافى من والدك العجوز. أنا لست قاسياً جداً، ألم أكن متسامحاً حتى فى تلك المرة بباريس؟ اللعنة!".

توقّف مشدوهاً.

ثم قال مغمغماً: "إنه هو، ظننت أنى عرفت وجهه".

"ما الذى تتحدث عنه يا أبى؛ أنا لا أفهم شيئاً".

سار المليونير نحو ابنته وأمسك بها من معصمها بقوة.

"تحدثى، ياروث، هل عدت لمقابلة ذلك الشخص ثانية؟".

"أى شخص؟".

"ذلك الذى تنازعنا بسببه منذ سنوات، تعلمين من أعنى".

"هل تعنى – ترددت قليلاً – هل تعنى أمير لاروش؟".

فقال فان ألدن متذمراً: "أمير لاروش! لقد أخبرتك أنه لا يصلح لأن يكون أكثر من محتال. لقد ارتبطت به بشدة، لكننى استطعت انتزاعك من بين مخالبه".

فقالت روث بمرارة: "نعم، فعلت. وزوجتنى من ديريك كيترينج".

فقال المليونير بحدة "أنت أردت ذلك".

فهزت رأسها.

فقال فان ألدن ببطء: "والآن، لقد عدت الآن لملاقاته – بعد كل ما قلته لك. لقد كان فى هذا المنزل اليوم، لقد رأيته بالخارج، ولم أستطع تمييزه للوهلة الأولى".

استعادت روث كيترينج رباطة جأشها وقالت:

"أريد أن أقول لك شيئاً واحداً يا أبى، لقد كنت مخطئاً تماماً بشأن أرماند – أعنى أمير لاروش. أعلم أنَّ عدة حوادث تستوجب الندم حدثت له فى شبابه – وقد أخبرنى بهذه الحوادث – لكنه طالما كان مهتماً بى، وقد انفطر قلبه حين فرَّقت بيننا فى باريس، والآن -".

قاطعتها زمجرة أبيها الساخطة.

"إذن فقد وقعت فى هذا الشرك؟ أنت، ابنتى أنا! ياإلهى!".

نفض يديه عنها وقال:

"إن النساء أحياناً يكن فى غاية الحماقة!".

الفصل السادس

ميريلى

خرج ديريك كيترينج من جناح فان ألدن باندفاع شديد جعله يصطدم بامرأة كانت تسير فى الممر. اعتذر لها، وقبلت اعتذاره بابتسامة ودودة وتجاوزته تاركة لديه انطباعاً حسناً بأسلوبها اللطيف وعينيها الرماديتين الجميلتين.

مع كل ما أبداه من لا مبالاة، إلا أن مقابلته مع والد زوجته قد هزته بشدة. تناول الغداء منفرداً، ثم انطلق - وهو مكدر - باتجاه تلك الشقة الفخمة التى تسكنها السيدة التى تدعى ميريلى. استقبلته امرأة فرنسية بالابتسامات، وقالت له:

"تفضل يا سيدى؛ فالسيدة تستريح قليلاً".

قادته إلى غرفة طويلة ذات طابع غربى يعرفه جيداً. كانت ميريلى مستلقية على الأريكة الطويلة، مستندة إلى عدد هائل من الوسائد جميعها بدرجات متفاوتة من اللون الكهرمانى، منسجمة مع اللون الأصفر الذهبى لبشرتها. كانت جميلة القوام، ورغم أن وجهها من خلف قناعه الأصفر بدا منهكاً، فقد كان له سحره الخاص، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ترحيب نحو كيترينج.

حياها ثم دفع بنفسه إلى كرسى.

"ماذا كنت تفعلين بنفسك؟ أظنُّك استيقظت من نومك للتو؟".

اتسع الفم البرتقالى بابتسامة كبيرة وقالت: "لا، بل كنت فى العمل".

مدَّت يدها الطويلة الشاحبة نحو البيانو، فخرجت منه نغمات غير منتظمة.

"لقد كان أمبروز هنا. كان يعزف لى المقطوعة الموسيقية الجديدة".

أومأ كيترينج برأسه دون أن يبدى اهتماماً؛ فلم يكن ديريك مهتماً أبداً بشأن كلود أمبروز أو بالتصميم الموسيقى الراقص الذى وضعه لمسرحية بير جنت لهنريك إبسن. فقدان الاهتمام ذاته كان لدى ميريلى، سوى أنه كانت ترى فى مشروعه فرصة فريدة لها لتقديم إصدارها الخاص من شخصية أنيترا.

قالت مغمغمة: "إنها رقصة رائعة، سأضع فيها كل الأحاسيس المفعمة للصحراء. سأرقصها مرصَّعة بشتى أشكال الجواهر –آه، بالمناسبة يا حبيبى، لقد رأيت بالأمس عقد لؤلؤ بمحل فى

شارع بوند – لؤلؤ أسود".

ثم توقَّفت، ونظرت نحوه مستنهضة.

فقال كيترينج: "عزيزتى، لا جدوى من الحديث معى عن لآلئ سوداء؛ فأنا فى اللحظة الراهنة، لا جدوى منى".

انتبهت سريعاً لنبرة صوته؛ فنهضت، وقد اتسعت عيناها السوداوان الكبيرتان، وقالت:

"ما الذى تقوله يا ديريك؟ ما الذى تعنيه؟".

فقال كيترينج: "حماى العزيز، يرتِّب للنهاية التى لا مردَّ لها".

"ماذا؟".

"أعنى أنه يريد تطليقى من روث".

فقالت ميريلى: "ما هذا الحمق، وما الذى يدفع روث لطلب الطلاق؟".

فقال: "أنت السبب الرئيسى".

فهزت كتفيها فى لا مبالاة.

وقالت فى نبرة تقريرية جداً: "هذا حمق، حمق بالغ".

فكرر ديريك متفقاً: "حمق بالغ حقاً".

فقالت ميريلى: "ما الذى ستفعله حيال هذا الأمر؟".

"ما الذى يمكننى فعله يا عزيزتى؟ فمن جانب، الرجل بالغ الثراء؛ ومن جانب آخر، أنا غارق فى الديون. الأمر سينتهى لمصلحته ولا شك".

فعلقت ميريلى قائلة: "غريبون هم أولئك الأمريكيون، لقد بدا الأمر وكأن زوجتك كانت مغرمة بك".

فقال ديريك: "حسناً، ماذا سنفعل حيال هذا؟".

فنظرت إليه فى تساؤل، فاتجه نحوها وقال:

"هل تقفين إلى جوارى؟".

"ما الذى تعنيه؟ تعنى بعد ـــــــــ؟".

فقال كيترينج: "نعم، بعد أن يهاجمنى الدائنون، هجوم الذئاب على طريدتهم، إننى متيَّم بك يا ميريلى؛ فلا تتركينى".

قالت: "تعلم أنى أحبك يا ديريك".

فطن إلى ملمح المراوغة فى نبرة صوتها؛ فقال:

"هكذا إذن؟ الآن حيث تغادر الجرذان المركب الغارق".

"أوه، ديريك!".

فقال بعنف: "قوليها، قولى إنَّك ستتخلين عنى، أليس كذلك؟".

هزت كتفيها بلا مبالاة، وقالت:

"إننى أحبك عزيزى – بالتأكيد مغرمة بك؛ فأنت فتى ساحر، لكن الوضع هكذا سيكون غير عملى".

"أنتِ دائماً فى ركاب ثرى، أليس كذلك؟".

"ليكن، إن كان هذا ما تفهمه".

مالت بظهرها على وسائدها، وأرخت رأسها، وقالت:

"أنا أحبك يا ديريك، على أية حال".

سار نحو النافذة ووقف هناك ينظر منها ويعطى رفيقته ظهره. فرفعت هى نفسها على مرفقيها وحدَّقت إليه فى فضول.

"فيمَ تفكر يا حبيبى؟".

"فأدار وجهه وابتسم، كانت ابتسامة مريبة، ابتسامة أقلقتها.

"كنت أفكر، قدراً، فى امرأة".

"امرأة؟".

ألحت ميريلى على ما لم تفهمه فى حديثه.

"أكنت تفكِّر فى امرأة أخرى؟".

"أوه، لا تتزعجى من هذا عزيزتى؛ إنها مجرد صورة جميلة فى ذهنى، صورة لامرأة ذات عيون رمادية".

فقالت ميريلى فى حدة: "متى قابلتها؟".

"لقد اصطدمت بسيدة فى ممر فندق السافوى".

"حسناً، وماذا قالت؟".

"ما أذكره، أننى قلت: "معذرة" وردت هى قائلة "لا بأس" أو شيئاً على نحو ذلك".

فقالت فى إصرار: "وماذا بعد؟".

"لا شىء، كانت تلك هى نهاية القصة".

فقالت: "إننى لا أفهم كلمة واحدة مما تقول".

فقال ديريك: "إنها صورة لامرأة ذات عيون رمادية، وأغلب الظن أنى لن أراها ثانية".

"وما يمنعك؟".

"الظاهر أنها قد جلبت لى الحظ السيئ، هكذا تكون النساء أحياناً".

انسلت ميريلى بهدوء من أريكتها، وسارت نحوه، ومدت ذراعاً طويلة ثعبانية، لفتها حول عنقه.

غمغمت قائلة: "أنت أحمق يا ديريك، أحمق جداً. وأنا أحبك بشدة. لكننى لا أريد الفقر – بالقطع، لن أحيا فى الفقر. والآن، اسمعنى، الأمر بسيط جداً. عليك أن تصلح ما بينك وبين زوجتك".

فقال ديريك بجفاف: "أخشى أنَّ هذا لن يكون فى نطاق الممكن".

"كيف؟ لست أفهم".

"فان ألدن لن يتراجع، إنه من الرجال الذين يتخذون القرار ويلتزمون به".

فأومأت متفهمة وقالت: "لقد سمعت به، إنه رجل ثرى جداَ، أليس كذلك؟ بل هو تقريباَ أغنى رجل فى أمريكا، منذ يومين، اشترى من باريس أعظم ماسة فى العالم – ماسة تدعى "قلب النيران"".

لم يجب كيترينج، فتابعت حديثها:

"إنها جوهرة رائعة – جوهرة لا تليق إلا بامرأة مثلى؛ فأنا أحب الجواهر يا ديريك؛ فهى تهمس لى بأشياء. آه! لكم هو رائع امتلاك جوهرة مثل "قلب النيران"".

أطلقت تنهيدة خاطفة، ثم عادت لواقعيتها ثانية.

"أنت لا تفهم هذه الأشياء يا ديريك؛ فأنت رجل. إنَّ فان ألدن سيعطى هذه الجوهرة لابنته، حسب ظنِّى، أليست هى ابنته الوحيدة؟".

"نعم".

"هذا يعنى أنه حين يموت، سترث هى كل ماله. ستصبح امرأة ثرية جداً".

فقال كيترينج فى جفاء: "هى كذلك بالفعل، فقد منحها مليونى دولار حين تزوجت".

"مليونى دولار! لكن هذا مبلغ كبير جداً، فماذا لو ماتت فجأة؟ هذا يعنى أن هذا المال سيئول إليك، أليس كذلك؟".

فقال كيترينج ببطء: "هذا صحيح طالما ظل الوضع على حاله؛ فهى حسب علمى لم تكتب وصيَّتها".

فقالت: "رائع، فإذا ماتت، كان ذلك حلاً".

ساد الصمت لحظات، ثم انطلق كيترينج ضاحكاً.

"يعجبنى عقلك البسيط العملى يا ميريلى، لكن للأسف ما ترغبين به لن يكون؛ فحالة زوجتى الصحية ممتازة".

قالت ميريلى: " نعم لكن أحياناً تقع حوادث".

فنظر إليها بحدَّة لكنه لم يجب.

فتابعت حديثها:

"أنت على صواب يا عزيزى، ينبغى ألا نتصرَّف وفق احتمالات. والآن اسمعنى يا ديريك، ينبغى أن يتوقف حديث الطلاق هذا، ينبغى أن تتخلى زوجتك عن هذه الفكرة".

"وإذا لم تفعل؟".

ضاقت عيناها بشدة وقالت:

"بل ستفعل؛ فزوجتك من النوع الذى يتخوَّف من الدعايات؛ فثمة خبر أو اثنين بشأن طلاقها لن تحب أن يقرأه أصدقاؤها فى الصحف".

فسأل كيترينج بحدة: "ماذا تعنين؟".

ضحكت ميريلى وهى تعود برأسها للخلف.

"أعنى ذلك الرجل الذى يدعو نفسه دوق لاروش. إننى أعرف كل شىء بشأنه، لا تنس أننى امرأة باريسية. لقد كان حبيبها قبل الزواج منك، أليس كذلك؟".

فأمسك كيترينج بكتفيها فى قوة.

وقال: "هذه كذبة حقيرة. وتذكَّرى - لو سمحت - أن من تتحدثين عنها هى زوجتى على كل حال".

فتجهَّمت ميريلى قليلاً، وقالت شاكية: "مبالغون أنتم أيها الإنجليز. إنَّ الأمريكيين باردون جداً بالمقارنة. لكن اسمح لى بالقول إنَّها كانت تحبّه قبل الزواج منك، وتدخَّل أبوها فى الأمر وأقصاه، وقد بكته الابنة كثيراً، لكنها أطاعت والدها. لكن ثمة قصة مختلفة ينبغى أن تعرفها يا ديريك، إنها الآن تقابله كل يوم تقريباً، وفى الرابع عشر من هذا الشهر ستذهب لملاقاته فى باريس".

فقال كيترينج: "كيف علمت هذا كله؟".

"عزيزى ديريك، إنَّ لدى أصدقاء فى باريس يعرفون الدوق جيداً. إنَّ أمر لقائهم مرتَّب بالكامل؛ فهى ستقول إنَّها ذاهبة للريفييرا، لكنها ستذهب لملاقاته فى باريس و – ومن يدرى! نعم، نعم ثق بكلامى، لقد رتَّبا للقاء".

وقف ديريك كيترينج فى مكانه دون حراك.

فقالت فى صوت خفيض: "أرى أنك لو كنت حصيفاً، لأحكمت سيطرتك عليها، بإمكانك أن تشد عليها الخناق".

فصاح بها: "هلا هدأتِ، أغلقى فمك اللعين هذا".

فدفعت ميريلى نفسها إلى أريكتها ضاحكة، والتقط ديريك قبعته ومعطفه وغادر الشقة، ضارباً بابها فى عنف. فى حين ظلت ميريلى فى أريكتها تضحك لنفسها فى هدوء، لم تكن سعيدة بما تفعل.

الفصل السابع

خطابات

"تقدِّم السيدة ساموبل هارتفيلد تمنياتها الطيبة للآنسة كاثرين جراى، وترجو بيان أنه وفق الظروف الحالية فإن الآنسة جراى قد لا تكون مدركة ـــــــ".

كانت السيدة هارتفيلد تكتب خطابها بفصاحة شديدة حتى الآن، ثم توقَّفت بشكل مفاجئ، حين واجهتها المعضلة الكبرى التى تواجه الكثيرين حال الكتابة – إنها معضلة التعبير عن الذات باستخدام ضمير الغائب دون أن تعدم اللباقة.

وبعد لحظات من التردد، مزَّقت السيدة هارتفيلد الخطاب وبدأت من جديد.

عزيزتى الآنسة جراى – مع تقديرى الكامل لجهودك التى بذلتها على النحو المناسب حيال ابنة عمى إيما (والتى كانت وفاتها صدمة لنا جميعاً)، إلا أنه لا يسعنى سوى الشعور –

ومرة أخرى توقَّفت السيدة هارتفيلد عن إتمام خطابها، ومرة أخرى كان مصير الخطاب إلى سلة القمامة. ولم تتم السيدة خطابها إلا بعد أربع محاولات فاشلة، حين كتبت الرسالة التى أرضتها. ووصل الخطاب الذى كان مختوماً بخاتم البريد الباهت، ومعنوناً إلى الآنسة كاثرين جراى، ليتل كرامبتون، ساينت مارى ميد، كينت، وقد كان الخطاب بجوار طبق إفطارها فى صباح اليوم التالى ومعه خطاب آخر يبدو أكثر أهمية فى ظرف أزرق.

فتحت كاثرين جراى الخطاب الأول، وكانت النسخة النهائية منه كالتالى:

عزيزتى الآنسة جراى، أود أنا وزوجى أن نقدِّم جزيل شكرنا لما بذلتموه من خدمات تجاه ابنة عمى المسكينة إيما. لقد كانت وفاتها صدمة لنا جميعاً، رغم إدراكنا منذ زمن مرضها العقلى، وأرى أن رغباتها الأخيرة تجاه الوصية كانت نابعة من عقل غير واع، وهى لم تكن لتصمد بالطبع إذا عرضت للبحث فى أية محكمة. وليس لدىَّ أدنى شك أنك بما تحظين به من رجاحة عقل قد أدركت فعلاً تلك الحقيقة. ويرى زوجى أنه لو تمَّ التفاهم فى الأمر على نحو من الخصوصية، فسيكون ذلك أفضل. ويسعدنا كثيراً أن نزكِّيك بقوة لوظيفة مماثلة، ونرجو منك قبول هدية بسيطة منا، وتقبَّلى أخلص الأمنيات.

مارى آن هارتفيلد

قرأت كاثرين جراى الخطاب، وتبسَّمت قليلاً، ثم قرأته ثانية. كان وجهها وهى تضع الخطاب بعد قراءته للمرة الثانية يبدو عليه التفكُّه الواضح، ثم تناولت الخطاب الثانى، وبعد قراءة متأنية موجزة

وضعت الخطاب ثم حدقت أمامها مباشرة، لكن دون ابتسامة هذه المرة، كان من الصعب للغاية لأى مراقب يراها الآن أن يخمِّن ما تخفيه نظرتها الهادئة من مشاعر.

كانت كاثرين جراى فى الثالثة والثلاثين من العمر، وهى ابنة عائلة ثرية، لكنَّ أباها خسر كل ماله، واضطرت كاثرين للعمل منذ سن مبكرة، كانت لا تزال فى الثالثة والعشرين حين بدأت عملها كمرافقة للسيدة العجوز هارتفيلد.

كان معروفاً عن السيدة هارتفيلد صعوبة معاشرتها للمرافقين. فما إن يأتوا حتى ينصرفوا، فكانوا يبدءون عملهم محمَّلين بالأمل، ثم سريعاً ما ينصرفون باكين، لكن منذ اللحظة التى خطَّت كاثرين جراى بقدمها منزل ليتل كرامبتون - منذ عشر سنوات مضت - ساد السلام التام. ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك، إن الحواة لا يتعلَّمون صنعتهم بل يولدون حواة. وكاثرين جراى ولدت ومعها قدرة السيطرة على السيدات العجائز، والكلاب، والأطفال الصغار، وهى تفعل ذلك دون عناء يذكر.

فى سن الثالثة والعشرين، كانت كاثرين فتاة هادئة لها عينان جميلتان. الآن وهى فى الثالثة والثلاثين هى امرأة هادئة، لها ذات العينين الرماديتين، تشع بهما على العالم بصفاء وبشاشة لا يهزهما شىء، وفوق ذلك، وُهبت كاثرين روح فكاهة لا تزال تتمتع بها.

وبينما هى تجلس على مائدة إفطارها، دق جرس الباب، مصحوباً بنقر بمقرعة على الباب. وبعد لحظات فتحت الخادمة الصغيرة الباب وقالت فى لهاث:

"دكتور هاريسون".

دخل الطبيب ضخم الجثة متوسط العمر، تملؤه حيوية ونشاط نمَّت عنهما انقضاضته على مقرعة الباب.

"صباح الخير يا آنسة جراى".

"صباح الخير يا دكتور هاريسون".

قال الطبيب بادئاً الحديث: "لقد أتيت مبكراً ودون موعد، فى حال وصول شىء من آل هارتفيلد هؤلاء إليك. السيدة ساموِيل هذه – امرأة خطيرة جداً".

دون كلمة واحدة، تناولت كاثرين خطاب السيدة هارتفيلد من على الطاولة وأعطته إياه. وبقدر كبير من الاستمتاع راقبت قراءته المتأنِّية للخطاب، وانعقاد حاجبيه الكثين، وأصوات تذمُّره الحادة اعتراضاً على ما يقرأ، ثم ألقى به على الطاولة.

قال غاضباً: "شىء بشع فعلاً، لا تسمحى لهذا الكلام أن يثير قلقك يا عزيزتى. إنَّه كلام فارغ؛ فعقل السيدة هارِتفيلد كان سليماً، تماماً كعقلى وعقلك، وليس هناك من أحد يمكنه قول العكس. إنهم

لا يملكون شيئاَ يستندون إليه، وهم يعلمون ذلك. وحديثهم عن نقل الأمر إلى المحكمة هو محض هراء؛ ومن ثم فهذه ليست إلا محاولة لإقناعك بترضية سرِّية. اسمعى يا عزيزتى، لا تسمحى لهم بخداعك بمعسول الكلام. ولا تتصورى أنَّ عليك التعفُّفَ عن هذا المال، أو أن تستسلمى لهواجس تأنيب أحمق للضمير".

"الحق أنَّ تلك الهواجس لم تواتنى أبداً؛ فكل هؤلاء الناس كانوا أقرباء بعيدى الصلة بزوج السيدة هارتفيلد، ولم يتقرَّبوا منها قط أو يسألوا عنها أبداً طوال حياتها".

قال الطبيب: "أنت امرأة طيبة، أعلم أنك عشت معها حياة صعبة طوال السنوات العشر الماضية، وأنت تستحقين كل مدَّخرات السيدة العجوز؛ مهما كان قدرها".

فابتسمت كاثرين وهى فى حال من التأمُّل.

قالت مكررة عبارته: "مهما كان قدرها، أنت لا تعلم قدرها يا دكتور".

"حسنًا، ستكون بما يكفى لإدرار خمسة آلاف كل عام أو نحو ذلك".

فأومأت كاثرين برأسها.

وقالت: "هذا ما كنت أظنه، لكن اقرأ هذا".

ناولته الخطاب الذى كان بالظرف الطويل الأزرق. قرأ الطبيب الخطاب وزفر زفرة اندهاش كامل.

غمغم قائلاً: "مستحيل، مستحيل".

لقد كانت واحدة من المسهمين الأصليين فى شركة مورتالدز. وعلى مدار الأربعين عاماً الماضية كانت تدرّ أسهمها ما بين ثمانية إلى عشرة آلاف فى العام. وأنا على يقين أنها ما كانت لتنفق أربعمائة منها على الأكثر فى كل عام. لقد كانت حريصة جداً على المال؛ حتى إننى ظننت أنها مجبولة على الحرص فى إنفاق كل سنت".

"وطوال تلك المدة وهذا الدخل يتراكم بفائدة مركَّبة، إنك ستصبحين امرأة ثرية للغاية، عزيزتى".

فقالت: "نعم، سأكون".

كانت تتحدث بلهجة محايدة وغير شخصية، كما لو أنها تتأمل الموقف من خارجه.

فقال الطبيب معداً نفسه للرحيل: "حسناً، تهانىَّ المخلصة لك يا كاثرين"؛ ثم نقر خطاب ساموبل بإبهامه وقال: "لا تقلقى بشأن تلك المرأة أو بخطابها البغيض هذا".

فقالت كاثرين فى تساهل: "إنه ليس بالكريه فى الحقيقة، فوفق هذه الظروف أراه رد فعل طبيعيًّا جداً".

فقال الطبيب: "أحياناً أحتار فى أمرك".

"لماذا؟".

"لما ترينه طبيعياً فى غرائب الأمور".

فضحكت كاثرين جراى.

روى الطبيب تلك الأنباء السارَّة لزوجته على الغداء، وقد ابتهجت كثيرًا لما سمعته.

"أمر عجيب – أن تكون للسيدة هارتفيلد كل هذا المال، إننى سعيدة؛ لكون هذا المال ذهب لكاثرين جراى. هذه الفتاة أقرب لأن تكون ملاكاً".

فالتوى وجه الطبيب ساخراً.

"لا؛ إن كاثرين جراى أميل لأن تكون إنسانة طبيعية من أن تكون ملاكاً".

فقالت الزوجة وهى تغمز بعينها: "حسنًا، اعتبرها ملاكاً ذا روح دعابة. ومع هذا، فلا أظنك لاحظت قط أنها - فى الحقيقة - جميلة جداً".

فقال الطبيب باندهاش حقيقى: "كاثرين جراى؟ بل أعلم أنَّ لها عينين جميلتين جداً".

فصاحت الزوجة: "آه منكم أيها الرجال، عميان كالخفافيش. إنَّ كاثرين تحظى بكل صفات الجمال، ولا ينقصها سوى بعض الثياب المناسبة!".

"ثياب؟ وما بال ثيابها؟ لطالما كانت حسنة المظهر".

تنهَّدت الزوجة بنفاد صبر؛ فى حين نهض الطبيب ليستعد لبدأ جولاته على مرضاه.

قال مقترحاً: "يجدر بك زيارتها يا بولى".

فردت السيدة هاريسون مباشرة: "سوف أفعل".

وقد وفَّت بوعدها قرب الساعة الثالثة.

قالت بنبرة دافئة وهى تشد على يدى كاثرين: "أنا سعيدة جداً يا عزيزتى، وكل من فى القرية سيسعد لهذا أيضاً".

فقالت كاثرين: "وددت لو أنَّك جئت؛ لأننى أردت السؤال عن جونى".

"أو! جونى، حسنًا ـــــ".

جونى هو الابن الأصغر للسيدة هاريسون، وقد بدأت السيدة فور الحديث عنه سرد رواية طويلة عن زائدة جونى الأنفية ولوزتيه، وكيف أنها التهبت بشدة. فى حين جعلت كاثرين تنصت لقصتها فى تعاطف كبير. إنَّ العادات الراسخة لا تموت سريعاً؛ فقد كان الاستماع بصبر هو قدرها طوال السنوات العشر الماضية. وهذا أحدِ نماذج استماعها: "عزيزتى، هل أخبرتك من قبل عن حفل البحرية فى بورتسموث. ذاك حين أعجب لورد تشارلز بثيابى ليلتها". فتجيب كاثرين بهدوء وود: "أظنُّك فعلت ذلك يا سيدة هارتفيلد، لكننى نسيت تفاصيل ذلك، فهلا أخبرتنى بها ثانية؟"، فتعود السيدة العجوز لحكاية القصة كاملة، مع الكثير من التصحيحات والتوقُّفات، والتفاصيل. وتكون كاثرين منصتة بنصف قدرتها الذهنية، وترد بالردود المناسبة حال توقُّف السيدة ...

والآن، وبذات الازدواج الذهنى الغريب الذى اعتادته، جعلت تستمع إلى السيدة هاريسون.

وبعد نصف ساعة من الحديث، انتبهت السيدة فجأة، ثم قالت متعجبة: "لقد ظللت أتحدَّث عن نفسى طوال نصف ساعة، مع أنى أتيت هنا للحديث معك فيما تخططين له".

"لا أدرى، فليس لدى أية خطط حتى الآن".

"عزيزتى – لا أحسبك تبقين هنا".

ابتسمت كاثرين من نبرتها الفزعة.

"لا، لن أبقى، إننى أريد الرحيل؛ فأنا لم أر جل أنحاء البلاد، كما تعلمين".

"إننى لا أتصوَّر كم كانت تلك السنوات بشعة؛ فلقد أمضيتِها شابة محبوسة هنا".

فقالت كاثرين: "لست أدرى إن كانت بشعة، لقد عشتها بحرِّية تامة".

لاحظت ذهول ضيفتها، فاحمرَّ وجهها قليلاً.

"قد يبدو قولى هذا أحمق، لم تكن هناك حرِّية بالمعنى المادى".

فقالت السيدة هاريسون فى ارتياح: "لا أظن ذلك بالفعل". وقد تذكَّرت أنَّ كاثرين نادراً ما كانت تأخذ إجازة.

"لكن القيد المادى الشديد هذا يتيح آفاقاً ذهنية ضخمة؛ فدائماً ما تكون لك الحرية فى التفكير. لطالما كنت أشعر فى كل تلك السنوات بحرية العقل".

فهزت السيدة هاريسون رأسها، وقالت:

"لا يمكننى فهم هذا".

"لو كنت مكانى لأمكنك فهمه. لكن - على أية حال - أشعر برغبة فى التغيير. إننى أريد – أريد تغيراً فى سير الأحداث. ليس بالنسبة لى بالطبع، فأنا لا أعنى ذلك. بل أريد أن أكون وسط الأحداث – أحداث مثيرة – حتى لو كنت أنا المشاهد الوحيد فيها. إنها أحداث ليست من شاكلة ما يقع بساينت مارى ميد".

قالت السيدة هاريسون: "هذا صحيح ولا شك".

فقالت كاثرين: "سأذهب أولاً إلى لندن، فينبغى أن أقابل بعض المحامين، بعد ذلك، أظن أننى قد أسافر للخارج".

"ممتاز".

"لكن قبل كل شىء ـــــ".

"ماذا؟".

"ينبغى أن أبتاع بعض الملابس".

فصاحت زوجة الطبيب: "هذا بالضبط ما قلته لآرثر هذا الصباح. أتعلمين يا كاثرين، أنك قد تبدين جميلة على نحو لافت لو حاولت ذلك".

ضحكت الآنسة جراى دون تأثُّر باد.

وقالت فى لهجة صادقة: "لا يمكنك بأى حال خلق امرأة جميلة منى. لكننى سأستمتع حقاً بشراء بعض الملابس الجديدة. أخشى أننى كثيراً ما أتحدَّث عن نفسى بشكل بشع".

نظرت لها السيدة هاريسون نظرة فطنة.

وقالت بجفاف: "لابد أن تجربتك القادمة ستكون غريبة عليك تماماً".

ذهبت الآنسة كاثرين لتودِّع الآنسة العجوز فينر قبل أن تغادر البلدة. الآنسة فينر كانت أكبر بعامين من السيدة هارتفيلد، وكانت مأخوذة بنجاحها فى تجاوز صديقتها المتوفية عمراً.

قالت لـ كاثرين مزهوة: "لا أحسب أنك كنت تتوقعين أن أعيش لما بعد وفاة جين هارتفيلد؟ لقد كنَّا رفاق دراسة. وها هى قد ماتت وبقيت أنا، من كان يتوقع هذا الترتيب؟!".

فقالت كاثرين على نحو آلى: "لطالما كنت تأكلين الخبز الأسمر فى العشاء".

"ممتاز أنك ما زلت تذكرين يا عزيزتى، هذا صحيح بالفعل، لو أنَّ جان داومت ولو على شريحة صغيرة من الخبز الأسمر كل مساء وتناولت قليلاً من المنبِّهات مع وجباتها، لربما كانت بيننا الآن".

توقَّفت السيدة العجوز، وأومأت برأسها فى زهو؛ ثم تابعت بشىء تذكَّرته للتو:

"وأنت أيضًا حصلت على مال كثير، حسبما سمعت. حسنًا، حسنًا. حافظى عليه جيداً. إذن أنت ذاهبة إلى لندن للاستمتاع قليلاً؟ لكن لا تنشغلى بالزواج، عزيزتى؛ لأنك لن تتزوجى. فلست من النوع الذى يجذب الرجال، إضافة إلى أنك جاوزت أوانه، كم عمرك الآن؟".

فقالت كاثرين: "ثلاث وثلاثون".

فقالت مس فينر متشكِّكة: "حسنًا، هذا ليس سيئاً للغاية، لكنك فقدت بالطبع نضارتك الأولى".

فقالت كاثرين، مستمتعة بالحديث: "إننى خائفة بشدة".

قالت السيدة فينر بلطف: "لكنك فتاة طيبة للغاية، وأنا على يقين من أنَّ كثيراً من الرجال قد يفعلون أى شىء لاتخاذك زوجة بدلاً من أولئك الثرثارات اللواتى انتشرن هذه الأيام وهنَّ يظهرن من أرجلهن ما يأباه الله عليهنَّ. وداعاً عزيزتى، وأرجو أن تستمتعى بحياتك، لكن اعلمى أنَّ الأمور نادراً ما تبدو على حقيقتها".

غادرت كاثرين، متأثِّرة بتلك النصائح، وأتاها ما يقارب من نصف أهل القرية ليودعوها عند محطة القطار، بما فيهم خادمتها الصغيرة "أليس" التى أحضرت لربة عملها باقة ورد صغيرة يابسة وبكت بإخلاص.

قالت أليس باكية حين غادر القطار محطته: "ليس من اليسير أن يجد المرء مثيلاً لها. منذ تخلَّى عنا تشارلى أنا وفتاة مصنع الألبان، لم أجد أكثر عطفاً من الآنسة جراى، ورغم حساسيتها المفرطة إزاء الأوانى النحاسية والغبار، فإنها كانت خير من يلاحظ أنَّ شيئاً ما يحتاج إلى مزيد من التنظيف. إننى ما حييت سأكون فى خدمتها؛ فهى امرأة نبيلة بحق، وهكذا أسمِّيها".

هكذا كان رحيل كاثرين من سانت مارى ميد.

الفصل الثامن

السيدة تامبلين تكتب خطاباً

قالت السيدة تامبلين: "حسنًا، حسنًا".

وضعت جانباً جريدة الديلى ميل، وحدقت إلى زرقة مياه المتوسط أمامها. فوق رأسها مباشرة، تدلّى فرع من شجرة ميموزا ذهبية؛ جعل مشهدها فى غاية الروعة، بشعرها الذهبى، وعينيها الزرقاوين وثوبها الجميل. كان شعرها الذهبى هذا يدين ببعض الفضل للمسات تجميل فنية، وكذلك لون بشرتها الأبيض ذو الصبغة الوردية، لكن اللون الأزرق لعينيها هو هبة ربَّانية خالصة، وبهذا تظل السيدة تامبلين وهى فى الرابعة والأربعين فى نطاق السيدات الجميلات.

وبقدر جاذبيتها تلك، لم تكن السيدة تامبلين تفكِّر فى نفسها أبداً. تحديداً لم تكن تفكِّر فى مظهرها؛ فقد كانت تفكِّر دوماً بمسائل أهم.

لقد كانت السيدة تامبلين شخصية معروفة فى الريفييرا، وحفلاتها فى فيلا مارجريتا ذائعة الصيت. لقد كانت امرأة على قدر كبير من الخبرة، وسبق لها الارتباط بأربعة أزواج. الزيجة الأولى كانت مجرد طيش؛ ولذا ندر أن تشير إليها السيدة. كان لدى زوجها الأول هذا حدس صادق بأنه سيموت فى كامل عافيته؛ فتزوجت أرملته من رجل صناعة ثرى يعمل فى صناعة الأزرار. وقد رحل هو الآخر بعد ثلاث سنوات من الزواج – قيل إنَّ وفاته وقعت بعد مساء لطيف مع بعض الرفاق المرحين. بعد ذلك تزوجت "الفيسكونت تامبلين" وهو مَنْ أمن لها الحياة التى لطالما حلمت بها. وقد احتفظت باسمه كلقب لها بعد زواجها الرابع. وزواجها الرابع، لم يكن إلا بهدف المتعة المحضة؛ فالسيد تشارلز إيفانز - شاب فى السابعة والعشرين من عمره - شديد الوسامة، مغرم بالرياضة، لا يملك شيئًا من المال.

كانت السيدة تامبلين سعيدة وراضية تماماً بحياتها بشكل عام، لكنها أحياناً ما تنشغل قليلاً بما يخص المال. إنَّ صانع الأزرار قد ترك لها ثروة معقولة، لكن باعتبار أنها السيدة تامبلين، فإنها تميل للقول: "المصائب لا تأتى فرادى"؛ كانت المصيبة الأولى هى تهاوى الأسهم بسبب الحرب، والأخرى هى إسراف الزوج الراحل اللورد تامبلين. لكنها لا تزال مستريحة إلى وضعها المالى. لكن مجرد الشعور بالارتياح لا يكاد يكون مرضياً لشخص له مزاج تامبلين.

لذا، ففى صباح هذا اليوم تحديداً من شهر يناير، فتحت عينيها الزرقاوين على اتساعهما وهى تقرأ خبراً معيناً وتكرر فى غير ترابط كلمة "حسنًا". كان رفيقها الوحيد فى الشرفة ابنتها لينوكس تامبلين. كانت ليونكس مثل شوكة فى جنب السيدة تامبلين؛ فهى فتاة لا تتميز بلباقة، وتبدو أكبر فعلياً من سنِّها، ولها أسلوب تهكّمى غريب، أقل ما يوصف به أنه غريب.

قالت السيدة تامبلين: "تصورى يا عزيزتى".

"ما الأمر؟".

تناولت الليدى تامبلين صحيفة الديلى ميل، وناولتها ابنتها، وأشارت بإصبع مهتز نحو الفقرة موضع الاهتمام.

قرأت لينوكس الفقرة دون أدنى قدر من الانفعال البادى على أمها، ثم أعادت إليها الجريدة.

وسألت: "ما اللافت للنظر فى هذا؟ إنَّه خبر يحصل فى كل يوم؛ حيث السيدات العجائز اللواتى فى أنحاء الريف يمتن بعد ترك ثرواتهن التى تقدَّر بالملايين لمرافقاتهن الوضيعات".

فقالت الأم: "نعم، هذا أعلمه يا عزيزتى، وأكاد أجزم أنَّ الثروة ليست بالقدر الذى أدعوه؛ فالصحف لا تكون دقيقة أبداً. لكن حتى لو كانت نصف ما ذكر ـــــ".

فقالت لينوكس "حسنًا، إنها ليست كذلك على أية حال".

قالت السيدة تامبلين: "ليس تماماً يا عزيزتى؛ فهذه الفتاة "كاثرين جراى" هى فعلياً من أبناء عمومتى؛ فهى من آل جراى فى ورسيسترشير، فرع إدجوورث. إنها ابنة عمى مباشرة! تصورى!".

فقالت لينوكس: "آه – ها".

قالت الأم: "فماذا لو أن ـــــ".

فقاطعتها لينوكس وهى تبتسم ابتسامة طالما كَبُر على والدتها فهمها: "ليس لنا من هذه الثروة شىء".

فقالت السيدة برنة توبيخ خفيفة: "أوه يا عزيزتى".

كانت رنة توبيخ خفيفة جداً؛ لأن السيدة تامبلين اعتادت على صراحة حديث ابنتها وما أسمته هى طريقة لينوكس غير المريحة فى فهم الأمور.

قالت السيدة ثانية، عاقدة ما بين حاجبيها المحدَّدتين بعناية: "ماذا لو – أوه، صباح الخير يا عزيزى تشابى، هل أنت ذاهب للعب التنس؟ رائع!".

ابتسم تشابى فى لطف، وقال بطريقة آلية لامبالية: "كم أنت رائعة فى هذه الثياب البحرية التى ترتدينها"، ثم تجاوزهما هابطاً درجات سلم الشرفة.

بحنان، قالت السيدة فى إثر زوجها: "حبيب قلبى هو"، ثم تحوَّلت بتفكيرها لأمور الأعمال ثانية: "حسنًا، ماذا كنت أقول؟ آه، ماذا لو".

"بربك، أنهى جملتك هذه، إنها المرة الثالثة".

"حسنًا، كنت أفكر بأنه سيكون من اللطيف لو كتبنا إلى العزيزة كاثرين ودعوناها لزيارتنا هنا. طبيعى ألا تكون على تواصل مجتمعى. سيكون جيداً بالنسبة لها أن تجد من أهلها من يساندها. ستكون ميزة لها، وهى كذلك بالنسبة لنا".

فسألت لينوكس: "إلى أى مدى يمكنك استدرارها؟".

فنظرت إليها أمها نظرة لوم، وقالت مغمغمة:

"إنَّ علينا أن نتدبَّر وضعنا المالى، بكل تأكيد؛ فالمشكلات تواتينا مجتمعة – فهناك الحرب – وهناك إفلاس والدك".

فقالت لينوكس: "والآن يوجد تشابى، فهو رفاهية مكلِّفة - إن أردت القول".

قالت السيدة متابعة أفكارها: "أذكر أنَّها كانت فتاة لطيفة، وهادئة، ولم ترغب قط فى دفع نفسها للأمام، ولم تكن جميلة، ولا من النوع الذى يستطيع اصطياد الرجال".

قالت لينوكس: "هل ستترك تشابى لحاله إذن؟".

فنظرت إليها الليدى فى اعتراض وقالت: "تشابى لن يحاول أبداً أن ـــــــ".

فقاطعتها لينوكس: "لا، لا أظنه يفعل؛ فهو يعرف جيداً أين يطبخ ثريده".

قالت السيدة تامبلين: "عزيزتى، إنَّ لديك طريقة شاذة فى فهم الأمور".

فقالت لينوكس: "أنا آسفة".

جمعت السيدة تامبلين الجريدة والثياب وحقيبة التجميل، وبعض الخطابات المتنوعة.

قالت: "سأكتب فى التو خطاباً لكاثرين، وسأذكِّرها بأيام إدجوورث".

دخلت السيدة إلى منزلها وغرضها يلتمع فى عينيها.

وبخلاف خطاب السيدة ساميول هارتفيلد، تدفَّق الكلام بسهولة تحت قلمها، فكتبت أربع صفحات دون جهد أو توقف، وحين أعادت قراءته لم تجد مبرراً لتغيير كلمة منه.

تلقّته كاثرين فى الصباح حال وصولها إلى لندن. وسواء قرأت ما بين سطوره أم لا فذاك شىء آخر. وضعته فى حقيبة يدها وخرجت حتى تدرك موعدها مع محامى السيدة هارتفيلد.

كان مكتب المحاماة قديماً فى أحد شقق إن فيلد فى لينكولن، وبعد دقائق من التأخير اصطُحبت كاثرين لملاقاة المحامين فى حضور الشريك الأكبر بالمكتب، والذى كان رجلاً كبيراً رقيقاً، له عينان زرقاوان تطل منهما الفطنة والرقة الأبوية.

ناقشوا معها وصية السيدة هارتفيلد وعدة مسائل قانونية أخرى خلال عشرين دقيقة، ثم سلَّمت المحامى خطاب السيدة ساموبل.

قالت: "أرى أنَّ من المناسب أن أريكم هذا الخطاب، رغم أننى أراه سخيفاً تماماً".

فقرأ الخطاب وعلى فمه ابتسامة خفيفة.

"ليس سوى محاولة خرقاء للابتزاز يا آنسة جراى، ولا أظننى مضطراً لأن أوضح لك أنَّ هؤلاء الناس لا يملكون أية حجة لادعاء الميراث، ولو تجاسروا على دحض الوصية فلن يلقى ذلك أذناً صاغية فى المحكمة".

"كان ذلك هو ما خلص إليه تفكيرى أنا أيضاً".

"لا يتحلَّى الناس بالحكمة دوماً؛ فلو أننى مكان السيدة ساموبل لآثرت أن أحاول اكتساب عطفك بدلاً من مقاضاتك".

"وهذا من بين ما وددت الحديث معك فيه، إننى أود منح هؤلاء الناس مبلغاً من المال".

"لست مضطرة لذلك".

"أعلم هذا".

"ولن يقبلوا المال على النحو الذى قُصد به منحهم إياه. سيعتبرون ذلك محاولة لترضيتهم، رغم أنهم لن يرفضوه".

"أعرف ذلك؛ لكن لا مفر من هذا".

"إننى أنصحك يا آنسة جراى بنسيان هذه الفكرة".

هزَّت كاثرين رأسها، وقالت: "أنت محق تماماً؛ لكننى أود هذا بكل الأحوال".

"سيأخذون المال ويعودون لابتزازك من أجل المزيد".

فقالت كاثرين: "حسنًا، دعهم يفعلوا إن أرادوا". لكل منّا طريقته فى إسعاد نفسه. إنهم - فى النهاية - أقارب السيدة هارتفيلد الوحيدون، ورغم أنهم احتقروها باعتبارها من الأقارب الفقراء ولم يلقوا بالاً لها عندما كانت على قيد الحياة، يبدو لى أن يكون من الظلم ألا يخرجوا بأى شىء من المال".

وذكرت تلك الملاحظة وخرجت على الرغم من أن المحامى لم يكن لديه رغبة فى ذلك، وخرجت للتو فى شوارع لندن ولديها يقين مريح بأن بإمكانها إنفاق المال بحرية مطلقة وتنفيذ خططها المستقبلية التى كانت ترغب فيها. وكانت أول خطوة لها فى ذلك هى زيارة متجر شهير لبيع الملابس.

استقبلتها سيدة فرنسية عجوز رشيقة كانت أقرب إلى زوجة دوق حالمة، وتحدثت كاثرين بلهجة فرنسية واضحة.

"إننى أريد - إن شئت أن تقولى - أن أسلم نفسى لك. لقد كنت طوال حياتى معدمة للغاية ولا أعرف أى شىء عن الملابس، ولكننى الآن أملك بعض المال وأريد أن أبدو حقاً فى أفضل مظهر لى".

كانت السيدة الفرنسية جذابة للغاية وكانت تتمتع بحس فنى عال، وظهر هذا جلياً من خلال زيارة سيدة أرجنتينية ثرية لها أصرت على الحصول على بعض من تلك الموديلات التى تتناسب مع جمالها الصارخ. فحصت كاثرين بحرص وبعينين ماهرتين وقالت: "نعم - نعم، إنه لأمر يسعدنى. إنك تتمتعين بقوام جيد للغاية وستتناسب معه خطوط الموضة التى تتميز بالبساطة. وأنت أيضاً ذات جسم نحيل، بعض السيدات يغضبن عندما أقول هذا ولكنى متأكدة أنك لست مثلهن ".

وفجأة توقف سلوك الدوقة الحالمة، وصاحت السيدة فى اتجاهات مختلفة على عدد من عارضات الأزياء: "كلوثلايد، فيرجينى، أسرعن يا صغيراتى، هيا يا صغيرتى مارسيلى".

كان صباحاً مبهجاً؛ فقد جاءت كل من مارسيلى وكلوثلايد وفيرجينى ومررن ببطء واستعرضن ملابسهن كما تفعل عارضات الأزياء عند تقديم أحدث خطوط الموضة. وجلست الدوقة بجوار كاثرين ودونت بعض الملاحظات فى مفكرة صغيرة كانت معها.

"اختيار رائع فعلاً يا سيدتى. إنك حقاً لا تستطيعين اختيار أفضل من تلك الملابس القليلة إن كنت تودين الذهاب إلى الريفييرا فى هذا الشتاء حسب اعتقادى".

قالت كاثرين: "اسمحى لى أن أرى ثياب ذلك المساء مرة أخرى - الفستان ذا اللون القرنفلى البنفسجى".

وظهرت فيرجينى وهى تدور ببطء.

قالت كاثرين وهى تفحص الأقمشة ذات الألوان البنفسجى والرمادى والأزرق: "هذا أحسنها جميعاً، ماذا تطلقين عليه؟".

"أناقة الخريف، بالفعل، بالفعل، إنه حقاً الثياب المناسب لك تماماً يا سيدتى".

فما الذى كان فى تلك الكلمات أعاد لكاثرين مشاعر الحزن والمرارة بعد أن غادرت متجر الملابس؟

"أناقة الخريف، بالفعل، بالفعل، إنه حقاً الثياب المناسب لك يا سيدتى". الخريف، لقد كان الخريف بالنسبة لها؛ التى ما عادت تعرف متى انتهى الربيع ومتى بدأ الصيف ولن تعرف بعد الآن. لقد فقدت شيئاً لم يكن بالإمكان استعادته مرة أخرى - لقد عرفت ذلك فى سنوات خدمتها فى ساينت مارى ميد – وحياة العنت التى عاشتها إبان ذلك.

قالت كاثرين: "إننى حمقاء، حمقاء بحق. ما الذى أفعله؟ ما السر فى أننى كنت أكثر رضا وسعادة قبل شهر من الآن".

سحبت من حقيبتها الخطاب الذى تلقَّته هذا الصباح من السيدة تامبلين. لم تكن كاثرين بالحمقاء. كانت تفهم كأى شخص فى مكانها ما خفى فى سطور الخطاب وتفهم السر فى هذا الحب المفاجئ الذى أظهرته السيدة لقريبة كانت منسية لزمن بعيد ولم تكن مجهولة. إنَّ السر فى الاستفادة، وليس السعادة التى تمنَّتها السيدة بشدة حين تجتمع بابنة عمومتها. حسنًا؛ ولمَ لا فالاستفادة ستكون للجانبين.

كانت فى تلك اللحظات تسير فى شارع بيكاديلى، ثم توجَّهت لشركة كوك لإنهاء أمر تلبية الدعوة فورًا. كان عليها الانتظار لبضع دقائق؛ فالرجل الذى انشغل معه الموظف يقصد الريفييرا هو الآخر. لقد شعرت أنَّ الكل متوجِّه للريفييرا. حسنًا، إنها للمرة الأولى فى حياتها تفعل ما يفعله الجميع.

استدار الرجل الذى كان أمامها فجأة، وخطَّت هى مكانه. قدَّمت طلبها للموظف، فى الوقت الذى كان جزء من عقلها قد انشغل بأمر آخر. وجه ذلك الرجل – فهو على نحو ما مألوف لها. أين رأته قبل الآن؟ وفجأة تذكَّرت. لقد رأته فى فندق السافوى خارج غرفتها فى ذلك الصباح. لقد اصطدما ببعضهما فى الممر. يالها من مصادفة غريبة أن تصطدم به مرتين فى يوم. نظرت خلفها، فراعها شىء ما. كان الرجل واقفاً عند الباب ينظر نحوها. سرت بجسدها رعدة باردة؛ انتابها إحساس غامض باقتراب مأساة، وشيكة الحدوث ...

ثم نفضت عنها ذلك الانطباع بتفكيرها السليم المعتاد واستدارت بكامل انتباهها نحو ما يقوله الموظف لها.

الفصل التاسع

عرض مرفوض

كان من النادر أن يفقد ديريك كيترينج أعصابه؛ فقد كانت اللامبالاة واحدة من أهم صفاته، ولقد ساعدته صفته تلك على تجاوز مواقف عصيبة. حتى فى هذه اللحظة - وبعد أن غادر شقة ميريلى - هدَّأ من ثورته؛ فقد كان بحاجة إلى الهدوء؛ فهذا الموقف العصيب الحالى - هو الأشد من بين كل ما مر به، وتفاصيله التى لم تكن بالحسبان تتصاعد، وحتى هذه اللحظة لم يكن يدرى كيف يتصرَّف.

سار غارقاً فى أفكاره. حاجبه متغضِّن، ولم يكن أى من ملامحه السهلة المرحة بادياً على وجهه. وعدة احتمالات تجوب ذهنه. كان ديريك، ربما، أقل حمقاً مما يبدو عليه؛ فقد رأى عدة خيارات أمامه عليه أن يتخذ واحداً منها تحديداً. وإن هو قاومه، فلحين؛ فالأمراض الميئوس منها تحتاج إلى إجراءات استثنائية. لقد فهم حماه خير الفهم. فحرب بين ديريك كيترينج وفان ألدن لا يمكن أن تنتهى إلا بنتيجة واحدة. لعن ديريك المال فى نفسه. سار من شارع ساينت جيمس حتى شارع بيكادلى، وسار فيه باتجاه سيرك بيكادلى. وحين مر بمكاتب توماس كوك وأولاده، تباطأت خطواته. ثم تابع سيره، وهو لا يزال يقلِّب الأمر فى رأسه. وفى النهاية أومأ لنفسه إيماءة سريعة، ثم استدار بشدة - حتى كاد أن يصطدم بمن خلفه من المارة، واستدار عائداً من حيث أتى. وفى هذه المرة لم يمر بمكتب كوك، بل دخله. كان المكتب شبه خالٍ، وسريعاً كان أمام الموظف وقال له:

"أود السفر إلى نيس فى الأسبوع القادم، فهلا أعطيتنى التفاصيل؟".

"فى أى موعد يا سيدى؟".

"فى الرابع عشر من هذا الشهر، ما أفضل قطار لديكم؟".

"أفضل قطار سيدى هو ذلك الذى يدعى القطار الأزرق. ستتحاشى فيه ضجر إجراءات الجمارك فى كاليه".

أومأ ديريك موافقاً؛ فهو يعرف ذلك خير المعرفة.

غمغم الموظف قائلاً: "تقول الرابع عشر، هذا موعد قريب جداً. القطار الأزرق عادة ما يكون محجوزاً بكامله تقريباً".

قال الموظف: "حسنًا، إذا اتضح أنه لم يعد أماكن ـــــ" لم يكمِّل عبارته وارتسمت على وجهه ابتسامة.

اختفى الموظف لعدة دقائق، وعاد سريعاً: "حسنًا يا سيدى، لا تزال هناك ثلاثة أماكن. سأحجز لك أحدها، أخبرنى بالاسم".

فقال ديريك: "بافت"، وذكر له عنوانه فى شارع جيرمين.

فأومأ الموظف، وأنهى كتابة الاسم والعنوان، وتمنَّى لديريك صباحاً سعيداً، واتَّجه بانتباهه نحو العميل التالى.

"أريد الذهاب إلى نيس – فى الرابع عشر من هذا الشهر، لديكم قطار يدعى القطار الأزرق، أليس كذلك؟".

فاستدار ديريك نحو الصوت بحدة.

صدفة – إنها صدفة غريبة حقاً. وتذكَّر كلماته الغريبة مع ميريلى. "صورة لفتاة بعيون رمادية، لا أظننى سأراها ثانية". لكن ها هو يراها ثانية، والأعجب أنها الآن تريد السفر إلى الريفييرا وفى ذات اليوم وذات القطار الذى سيسافر فيه أيضاً.

لثوان سرت بجسده رعدة؛ إنه متطيِّر على نحو ما. وقال فى نفسه بشبه استخفاف، هذه امرأة قد تجلب لى النحس. وافترض أنَّ هذا سيثبت لاحقاً. ومن عند مدخل المكتب عاد ينظر إليها وهى تتحدَّث مع الموظف. إنَّ ذاكرته لم يسبق أن خانته قط. إنها ليدى – ليدى بمعنى الكلمة. ليست صغيرة جداً، ليست جميلة بشكل لافت. لكن شيئاً فيها يجعلها فريدة من نوعها – وذات عيون رمادية ترى الكثير حولها. أدرك وهو خارج من المكتب أنه بدأ يخاف من تلك المرأة على نحو ما. لقد شعر بشىء من التشاؤم يملؤه.

عاد إلى شقته فى شارع جيرمن واستدعى تابعه.

"خذ هذا الشيك يا بافت، واذهب إلى مكتب توماس كوك فى بيكادلى. ستجد لديهم تذاكر محجوزة باسمك، ادفع ثمنها وائتنى بها".

"حسناً يا سيدى".

وانصرف بافت.

سار ديريك باتجاه منضدة جانبية والتقط من فوقها بعض الخطابات. كانت ذات طابع مألوف له تماماً. إنها فواتير، فواتير صغيرة، وأخرى ضخمة القيمة، الكل يلح على الدفع. لغة المطالبة لا تزال مهذّبة. يعلم ديريك تمام العلم أنَّ تلك النبرة المهذبة ستتلاشى إذا شاعت عنه أخبار ما.

فى نكد ظاهر، حط ديريك نفسه فى مقعد كبير ذى كساء جلدى. يالها من معضلة لعينة – تلك التى استحكمت عليه. نعم، معضلة لعينة فعلاً! وسبل الخروج منها ليست مبشِّرة.

عاد بافت معلناً عن قدومه بسعلة مكتومة.

"هناك من يريد لقاءك سيدى، إنه الماجور نايتون".

"نايتون؟".

اعتدل ديريك فى جلسته مغتماً وقد انتبه فجأة. قال بصوت خفيض يكاد يخاطب به نفسه: "نايتون – ترى ماذا وراءه؟".

"هل أسمح له بالدخول يا سيدى؟".

فأومأ سيده. وحين دخل نايتون إلى الغرفة وجد مضيفه فى انتظاره عذباً وباشاً.

قال ديريك: "لطيف منك أن تأتينى يا نايتون".

كان نايتون عصبيًّا.

لاحظ الآخر عصبيته تلك من الوهلة الأولى. فلا شك أن الرسالة التى يحملها ليست على هواه أبداً. فرد على حديث ديريك المتدفِّق فى آلية شديدة، ورفض تناول شراب، بل وازداد وجهه تيبُّساً وحدة. وقد لاحظ ديريك ذلك.

قال فى مرح: "حسنًا، ما الذى يريده منى حماى المبجَّل؟ فلقد أتيت لغرض يريده، أعلم ذلك جيداً".

لم يبتسم نايتون فى المقابل.

وقال بعناية: "نعم، أنا هنا فى شأنه. ولكم تمنَّيت أن لو اختار غيرى لتلك المهمة".

رفع ديريك حاجبه مصطنعاً الفزع.

"هل ما بعثك به سيئ لهذه الدرجة؟ لست شديد الحساسية يا نايتون، أؤكد لك".

فقال نايتون: "لا، ولكن هذا ـــــ".

ثم توقَّف.

راقبه ديريك فى تحفُّز.

ثم قال فى لطف: "هيا، هات ما عندك. أعلم أن رسائل حماى العزيز لا تكون ودِّية فى العادة".

تنحنح نايتون، وبدأ الحديث بنبرة رسمية - جاهد كثيراً حتى تكون خالية من الارتباك.

"لقد كلَّفنى السيد فان ألدن بأن أعرض عليك عرضاً محدداً".

"عرض؟!". للحظة، أبدى ديريك دهشته. إنَّ مفتتح حديث نايتون لم يعن أبداً ما توقَّعه ديريك. فعرض على نايتون سيجارة، وأشعل سيجارة لنفسه، وعاد يقبع فى كرسيه ثانية، وقال فى لهجة تحمل بعض السخرية:

"تحمل عرضاً! هذا أمر مثير للاهتمام".

"هل أتابع حديثى؟".

"تفضَّل. واغفر لى اندهاشى، لكن يبدو لى أنَّ حماى العزيز قد هدَّأ من روعه كثيراً منذ انتهاء محادثتنا معاً هذا الصباح. وهذا الهدوء هو شىء ليس معتاداً عليه؛ إنه من ذوى البأس الشديد، وأباطرة المال وغيرهم؛ ولذا يبدو أنَّ موقفه قد انجلى عن ضعف لم يكن يتصوَّره".

استمع نايتون بأدب لحديثه الساخر؛ دون أن يبدى أى إشارة من أى نوع على ملامح وجهه الباردة، وانتظر حتى أتمَّ ديريك حديثه، ثم قال بهدوء:

"سأعرض ما لدىَّ فى أوجز عبارات ممكنة".

"تابع حديثك إذن".

لم ينظر نايتون بوجهه، وتحدَّث فى لهجة تقريرية جافة.

"الأمر ببساطة، أنَّ السيدة كيترينج - وكما تعلم - على وشك رفع دعوى تطليق. وفى حال لم تواجه الدعوة فى المحكمة، فسوف تحصل على مائة ألف فى ذات اليوم الذى يسرى فيه المرسوم القضائى".

فى أثناء حديث نايتون كان ديريك يشعل سيجارة؛ فتوقف فجأة لما سمع.

"مائة ألف دولار؟".

"بل مائة ألف جنيه إسترلينى؟".

سرى صمت مطبق فى المكان لدقائق. كان كيترينج يفكر بما سمع وهو عاقد حاجبيه. هذا يعنى أنه يعلم بأمر ميريلى، ويعلم بحياته اللاهية العابثة. هذا يعنى أنه يعلم شيئاً ما؛ ففان ألدن لا يدفع ماله عبثاً. نهض من مقعده ووقف بجوار المدفأة.

وسأل فى نبرة باردة تتصنّع التهذيب: "وماذا لو أننى رفضت عرضه السخى هذا؟".

ظهرت علامات الاستنكار على نايتون.

ثم قال على نحو جاد: "دعنى أؤكد لك يا سيد كيترينج، أننى أتيتك بهذه الرسالة على غير رغبة منى مطلقاً".

فقال كيترينج: "حسنًا، لا تغضب؛ فليس لك فى الأمر من شىء. وأنا الآن أسألك سؤالاً، فهلا أجبتنى عنه؟".

فقال نايتون: "فى حال رفضت العرض، كلفنى السيد فان ألدن بأن أخبرك بأنه سوف يسحقك سحقاً".

رفع كيترينج حاجبيه، لكنه ظل محتفظاً باستخفافه.

قال "حسنًا، حسنًا! أظنه يستطيع. ولا أظننى بالطبع قادراً على فعل الكثير أمام مليونير أمريكا الكبير. مائة ألف! أترى أنها كافية لرشوة شخص ما؟ ماذا لو قلت لك إننى مستعد لما طلبت مقابل مائتى ألف؟".

فقال نايتون فى برود: "سأعود بردك هذا للسيد فان ألدن؛ فهل هو ردك النهائى؟".

فقال ديريك: "لا؛ فهذا أيضاً لا يكفى. بل تذهب لحماى العزيز وتقول على لسانى أن يذهب هو ورشواه إلى الجحيم. أهذا واضح؟".

قال نايتون: "حسنًا"، ثم نهض - متردداً - ثم اندفع قائلاً: "سأسمح لنفسى سيد كيترينج بالقول، إنَّنى سعيد بإجابتك هذه".

لم يجب ديريك. وحين غادر ضيفه الغرفة ظل لدقيقة أو اثنتين غارقاً فى أفكاره، ثم ارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه.

ثم قال بصوت خفيض: "هذا هو!".

الفصل العاشر

على متن القطار الأزرق

"أبى!".

بدأت السيدة كيترينج حديثها بعنف. كانت أعصابها خارجة عن السيطرة هذا الصباح. كانت فى أناقة كاملة، معطف فرو وقبَّعة صينية ذات لونٍ أحمر قاتم، وكانت تسير برصيف المشاة فى شارع فيكتوريا المزدحم وهى غارقة فى أفكارها، ومثَّل ظهور والدها المفاجئ أمامها وتحيَّته الحارة لها، أثراً غير متوقع بالنسبة لها.

"مرحى يا روث، يا لها من صدفة!".

"لم أتوقَّع مقابلتك يا أبى؛ لقد ودَّعتنى ليلة أمس وقلت لى إنَّ لديك مؤتمراً هذا الصباح".

قال فان ألدن: "هذا صحيح، لكنَّك أهم لدىَّ من أية اجتماعات لعينة. لقد أتيت لألقى عليك نظرة أخيرة؛ فلن أراك لبعض الوقت".

"هذا لطف كبير منك يا أبى، تمنَّيت أن لو أتيت معى".

"فماذا تقولين لو فعلت؟".

جملته كانت مجرد مزحة، لكنه اندهش عندما رأى التحوُّل الشديد فى وجهها، وللحظة شعر أنه قد لمح خوفاً يطل من عينيها. وضحكت فى تردد وعصبية.

"للوهلة الأولى شعرت أنَّك تعنى ذلك بالفعل".

"هل تسعدين بذلك؟".

فقالت فى تأكيد مبالغ به: "بالطبع".

فقال فان ألدن: "حسنًا، هذا جيد".

فتابعت روث: "لن يطول بك الحال على كل حال، أعلم أنك ستسافر أنت أيضاً فى الشهر القادم".

قال فان ألدن ببرود: "آه! أحياناً أود لو أننى ذهبت إلى أحد أطباء هارلى ستريت الكبار؛ ليقول لى أنت فى حاجة الآن وفوراً للاستلقاء فى أشعة الشمس وتغيير الجو لبعض الوقت".

صاحت روث: "لا تكن كسولاً، الشهر القادم سيكون أفضل بكثير من هذا الشهر هناك؛ فسوف تنال كل ما لن يتوفَّر لك الآن هناك".

فقال فان ألدن بتنهيدة: "حسنًا، هذا ما أظنه فعلاً. يجدر بك أن تكونى على متن قطارك الآن يا روث. أين مقعدك؟".

بدت روث غامضة على متن القطار، على باب أحد عربات البولمان الفاخرة من القطار، كانت تقف امرأة نحيفة طويلة ترتدى ثياباً سوداء – تلك كانت خادمة روث. انزاحت المرأة جانباً حين أتت مخدومتها صاعدة.

"لقد وضعت حقيبة ملابسك تحت مقعدك، فى حال احتجت لها يا سيدتى. هل آخذ الأغطية، أم تحتاجين إلى أحدها؟".

"لا، لا، لن أحتاج. يحسن بك أن تذهبى لتجدى مقعدك الآن يا ماسون".

"حاضر يا سيدتى".

غادرت الخادمة.

دخل فان ألدن عربة البولمان مع ابنته. حدَّدت مقعدها، ودفع أمامها فان ألدن تشكيلة منوَّعة من الصحف والمجلات. كان المقعد المقابل لها محجوزاً بالفعل، وبنظرة سريعة لمح فان ألدن صاحبته؛ فلمح عيوناً رمادية وملابس سفر أنيقة. انخرط مع ابنته فى حوار عابر، وهى تلك الحوارات التى يتبادلها من يودعون بعضهم بعضاً.

ومع نفير القطار، نظر فان ألدن فى ساعته.

"يجدر بى أن أغادر الآن. إلى اللقاء يا عزيزتى. لا تقلقى وسأتدبَّر الأمر على خير ما يرام".

"أوه، أبى!".

فاستدار نحوها بحدة. ثمة شىء كان يملأ صوت روث، شىء غريب تماماً على طبيعتها؛ حتى إنه فزع. لقد كان نداؤها أقرب لصرخة يأس. لقد قامت بتحرُّك عفوى تجاهه، لكن بعد ثوان عادت لعهدها القديم ثانية.

قالت فى اهتمام: "حتى نلتقى الشهر القادم".

بعد دقيقتين أقلع القطار.

جلست روث ساكنة تماماً، كانت تعض شفتها السفلى فى محاولة جاهدة لكتمان دموعها. لقد انتابها شعور مفاجئ بالكآبة. اعترتها رغبة عنيفة بالقفز خارج القطار وأن تعود قبل أن يفوت الأوان. إنها وهى الهادئة جداً، الواثقة للغاية، تشعر وللمرة الأولى أنها ورقة فى مهب الريح. لو علم أبوها ذلك، فما عساه أن يقول؟

هذا جنون! محض جنون! إنها لأول مرة فى حياتها تنجرف وراء عواطفها، تنجرف وراء عواطفها للحد الذى يدفعها للإقدام على فعل تعلم أنه فى غاية الحمق والطيش. إنَّ لها من صفات أبيها ما يجعلها تدرك خطأها الذى تقدم عليه، وكان لديها من الاتزان العقلى ما يمكِّنها من نقد تصرفاتها. لكنها كانت تملك من صفاته ما يسير بها لعكس ذلك؛ فقد كان لديها ذات التصميم الحديدى للحصول على ما يُراد، وأنها متى اتخذت القرار فلا رجعة فيه؛ فمنذ نعومة أظفارها وهى عنيدة، حتى إنَّ ظروف حياتها دعَّمت فيها تلك الصفة. وتلك الصفة هى ما يدفعها الآن دون تأنيب ضمير.

رفعت عينيها لتلاقى تلك المرأة التى تجلس قبالتها. انتابها شعور مفاجئ بأن تلك المرأة تقرأ أفكارها. لقد رأت فى تلك العيون الرمادية فهماً لها و – تعاطفاً.

كان مجرد شعور عابر. ثبت وجه المرأتين على تجميد متعمَّد لأية مشاعر. التقطت السيدة كيترينج مجلة، بينما اتجهت الآنسة جراى بنظرها نحو الشباك تتطلَّع إلى أفق لا نهائى من الشوارع الكئيبة وبيوت الضواحى.

وجدت روث صعوبة متزايدة فى التركيز بنظرها فى صفحة المجلة، ورغماً عنها تكالب على ذهنها آلاف التساؤلات. أى حماقة وقعت فيها! وكم هى حمقاء بفعلتها ما تفعل! إنها ككل الذين يتمتَّعون بالرزانة والاستقلالية، وحين تفقد السيطرة على نفسها تفقدها بالكلية. كان الأوان قد فات ... هل فات بالفعل؟ هل فات الوقت لتجد شخصاً تتحدث إليه، شخصاً تستنصحه. إنها لم ترغب من قبل فى شىء كهذا؛ فلطالما احتقرت فكرة الاعتماد على حكم غير حكمها هى، لكن الآن، ما الذى حل بها الآن؟ إنه الفزع. نعم إنَّ أفضل توصيف لحالها هو الفزع. نعم، لقد كانت روث كيترينج مذعورة تماماً وبالكلية.

استرقت النظر نحو مَنْ فى قبالتها. ليت لها رفيقة كهذه، رفيقة لطيفة، هادئة، عطوفة؛ فهذا هو الصنف الذى يمكنها الحديث إليه. لكن هذا أمر غير ممكن، غير ممكن أن تفضى بمكنونك لشخص لا تعرفه. سخرت روث من الفكرة، ثم تناولت المجلة ثانية. إنَّ عليها أن تسيطر على نفسها؛ ففى النهاية هى التى دبَّرت لذلك كله. هى مَنْ قررت بكامل إرادتها الحرة. ما السعادة التى لاقتها فى حياتها حتى الآن؟ قالت لنفسها فزعة: "لماذا لا أكون سعيدة؟ لا أحد يدرى".

لم يطل الوقت حتى وصل القطار إلى دوفر. كانت روث بحالة جيدة. كرهت برد العربة وكانت سعيدة بالوصول إلى القمرة الخاصة التى أبرقت لحجزها. روث كانت ممن يميلون للتطير؛ رغم أنها تنكر فكرة كهذه. كانت من النوع الذى تؤرِّقهم الصدف. وبعد ترجُّل لبعض الوقت فى كاليه، والنزول هى وخادمتها فى القمرة المزدوجة الخاصة بالقطار الأزرق - توجَّهت إلى عربة الطعام.

اندهشت بعض الشيء حين وجدت نفسها تجلس على طاولة صغيرة فى قبالة المرأة نفسها التى كانت معها فى عربة البولمان؛ فتبادلت المرأتان ابتسامة خفيفة.

قالت السيدة كيترينج: "هذه مصادفة عجيبة حقاً!".

قالت كاثرين: "نعم، غريب هو مجرى الأمور أحياناً".

انطلق نحوهما الخادم فى سرعة مدهشة بطبقين من الحساء الذى تقدِّمه دوماً للمسافرين شركة "انترناشونال دى واجنز لايتس". ومع قدوم أطباق الأومليت كانتا قد انخرطتا فى حديث ودى.

قالت روث فى استرخاء: "سيكون رائعاً الاستلقاء تحت أشعة الشمس".

"أنا على يقين من أنه سيكون شعوراً رائعاً فعلاً".

"هل تعرفين الريفييرا جيداً؟".

"لا؛ فهى أولى زياراتى لها".

"توقَّعت ذلك".

"تذهبين كل عام حسب ظنى، أليس كذلك؟".

"صحيح؛ فشهرا يناير وفبراير بشعان فى لندن".

"لقد كنت أعيش فى الريف، وهما شهران سيئان هناك أيضاً؛ فالوحل يكون هو السائد".

"ما الذى جعلك تفكرين بالسفر فجأة؟".

فقالت كاثرين: "المال؛ فطوال عشر سنوات كنت أعمل مرافقة بأجر يكفى على الأكثر لشراء أحذية ريفية قوية، أمَّا الآن فقد حصلت على ما يبدو أنه ثروة كبيرة، مع أنى أكاد أجزم أنها لن تكون كبيرة بالنسبة لك".

"ما يدفعك للقول بأنها لن تبدو لى ثروة كبيرة".

ضحكت كاثرين: "لست أدرى؛ فالمرء يكوِّن انطباعات عن الآخرين دون التفكير بها. وقد استقرَّ لدى أنَّك من أغنى الناس فى هذا العالم، إنه مجرد انطباع، وربما أكون مخطئة".

قالت روث وقد أصبحت جافة على نحو مفاجئ: "لا، لست مخطئة. أيوجد أية انطباعات أخرى أخذتِها عنى؟".

"أنا ـــــــ".

اندفعت روث متجاهلة حرج محدِّثتها: "هيا، لا تكونى متحفِّظة. أريد أن أعرف. حين غادرنا فيكتوريا نظرت إليك، ووقع فى خاطرى أنك – أنك تفهمين ما فى ذهنى".

فقالت كاثرين باسمة: "أؤكد لك أننى لست قارئة للأفكار".

"لا، لكن هلا أخبرتنى أرجوك، بما دار فى بالك عنى". كان إلحاح روث شديداً ومخلصاً حتى نالت ما رغبت فيه.

"سأخبرك إن أردت، لكن لا ينبغى أن تعتبرينى وقحة. لقد ظننت لسبب ما أنك كنت فى حالة توتُّر ذهنى شديد، وكنت حزينة من أجلك".

"أنت على حق، أنت محقة تماماً؛ فأنا فى أزمة كبرى. ووددت لو أنى حكيت لك عن ذلك".

حدَّثت كاثرين نفسها قائلة: "أوه يا إلهى، غريب هو تشابه الحال الذى ألقاه أينما حللت! لطالما كان الناس فى مارى ميد يحكون لى شئونهم، وها هو الأمر ذاته هنا، وأنا لا أود سماع مشكلات أحد على الإطلاق".

لكنها ردت بأدب: "أخبرينى".

كانا قد أتمَّا غداءهما للتو. شربت روث قهوتها سريعاً، ونهضت من مقعدها ناسية أنَّ كاثرين لم تشرب شيئاً من قهوتها، وقالت: "تعالى معى إلى قمرتى الخاصة".

كانتا قمرتين فرديتين يصل بينهما باب. وفى الثانية كانت الخادمة الطويلة، وقد رأتها كاثرين فى فيكتوريا، تجلس بشكل منتصب تماماً على أحد المقاعد، وتمسك بيدها حقيبة قرمزية فاخرة عليها الأحرف الاستهلالية، ر. ف. ك. جذبت روث الباب بين القمرتين، وجلست، وجلست كاثرين بجوارها.

"إننى فى مشكلة، ولا أدرى للخروج منها سبيلاً. ثمة رجل أغرمت به – أغرمت به فعلاً. كان كل منا مهتماً بالآخر أيام شبابنا الأولى، ثم تم التفريق بيننا بقسوة وظلم، والآن عدنا للارتباط ثانية".

"نعم؟".

"أنا – أنا ذاهبة للقائه الآن. أوه! لا شك أنك ستنكرين علىَّ الأمر برمته، لكنك لا تعلمين ظروفى. إنَّ زوجى تستحيل عشرته؛ فهو يعاملنى بشكل مهين".

فقالت كاثرين ثانية: "نعم".

"ما يشعرنى بالسوء تجاه ما أفعل أننى خدعت والدى. إنه ذلك الذى كان يودِّعنى فى المحطة اليوم. إنه يرغب فى أن أحصل على الطلاق من زوجى، ولا يدرى بالطبع أننى آتية للقاء آخر. كان ليعتبر ذلك حماقة مفرطة".

"حسنًا، ألا ترينها كذلك؟".

"بلى- بلى أحسبها كذلك".

نزلت روث كيترينج بنظرها نحو يديها، كانتا ترتجفان فى عنف.

"لكننى لا أستطيع التراجع الآن".

"ولم لا؟".

"أنا – لقد رتَّبنا كل شىء للقائنا، وتراجعى سيفطر قلبه".

فقالت كاثرين فى قوة: "لا تصدِّقى ذلك؛ فالقلوب أقوى من ذلك".

"سيظن أننى لا أملك الشجاعة، أو التصميم على الهدف".

فقالت كاثرين: "ظنِّى أنك مقدمة على حماقة كبرى، وأظن أنك تدركين ذلك..".

دسَّت روث وجهها فى يديها: "لست أدرى – لست أدرى. منذ أن غادرت محطة القطار وأنا أشعر بشىء – شىء رهيب يوشك أن يحل بى – ولا مهرب لى منه".

تشبَّثت بيدى كاثرين على نحو هيستيرى: "لابد أنك ترينني مجنونة لكونى أحدثك فى شى ء كهذا. لكنى أعلم أنَّ شيئاً رهيباً سيحل بى".

فقالت كاثرين: "لا تفكِّرى هكذا، حاولى استجماع شتاتك. يمكنك أن تبرقى لوالدك من باريس - إن أردت - وسيوافيك على الفور".

فأشرق وجه الأخرى.

"نعم، يمكننى فعل ذلك. يالأبى العزيز! إنه لأمر غريب – لكننى لم أدر قط قدر حبى له مثل الآن". اعتدلت وجفَّفت عينيها بمنديلها: "لقد كنت فى غاية الحمق. لكنى أشكرك؛ لأنك سمحت لى بالحديث إليك. لست أدرى ما الذى دفعنى لهذه الحالة الهيستيرية".

ثم نهضت قائلة: "أنا على ما يرام الآن. أظننى كنت فى حاجة للحديث مع شخص ما لا أكثر. والآن لست أدرى كيف سفَّهت نفسى على هذا النحو الكبير".

وقالت محاولة جعل صوتها عادياً قدر الإمكان وهى تنهض: "أنا سعيدة أنك بحال أفضل الآن". كانت قد أدركت تماماً أن آثار نوبة فقدان الثقة هى الشعور بالخجل، ثم قالت بشكل مرتَّب:

"علىَّ أن أعود إلى مقصورتى".

خرجت إلى الممر فى ذات الوقت الذى خرجت فيه الخادمة من الباب التالى. استدارت الخادمة ونظرت نحو كاثرين، وعلى وجهها نظرة دهشة شديدة. استدارت كاثرين هى الأخرى، لكن فى ذات اللحظة التى تلاشى ما كان قد أثار انتباه الخادمة، والذى كان فى العربة التالية، وحين مرَّت كاثرين بجانب آخر مقصورات العربة، أطلَّت امرأة بوجهها لحظات ثم جذبت الباب بعنف. لم يكن وجهاً عادياً يسهل نسيانه، ولابد أن تتذكره كاثرين حين تراه ثانية. إنه وجه جميل، وجه بيضاوى أسمر، أثقلت صاحبته من زينته على نحو عشوائى. كان لدى كاثرين شعور بأنها رأت صاحبة هذا الوجه قبل الآن.

عادت إلى مقصورتها دون مغامرات أخرى هذه المرَّة وجعلت تفكِّر لبعض الوقت فى الموقف الحرج الذى كانت فيه منذ قليل. وتساءلت فى سذاجة عن هوية تلك المرأة صاحبة معطف فراء المنك، وعلى أى نحو ستنتهى قصتها.

حدَّثت نفسها قائلة: "لو أننى أوقفت أى شخص عن تسفيه نفسه أمامى، لكان ذلك خيراً عظيماً. لكن من يدرى؟ لعله كان خيراً لتلك المرأة المتصلِّبة الحرون طوال عمرها أن تنحى منحى معاكسًا لذلك من باب التغيير. أوه، حسناً – أظننى لن أراها ثانية. بالتأكيد هى لن ترغب فى رؤيتى ثانية. وهذا هو الجانب الأسوأ فى ترك الناس يقصُّون عليك أسرارهم؛ فهم لا يرغبون فى رؤيتك ثانية أبداً".

أمَّلت ألا تأخذ ذات المقعد وقت العشاء، وحدَّثت نفسها - بجد - إنَّ ذلك قد يكون مربكاً لكليهما. مالت برأسها على وسادة وقد شعرت بتعب وكآبة غامضة. وصل القطار باريس، وكانت الرحلة البطيئة حول السينتير، وتوقفاته وانتظاراته اللامتناهية أمراً مملاً للغاية. حتى إذا ما وصلوا جارى دى ليون سعدت كاثرين بالهبوط من القطار والسير على الرصيف. كان الهواء منعشاً بخلاف جو القطار البخارى الساخن. راقبت بابتسامة محاولات صديقتها ذات الفراء أن تتجاوز إحراج المقابلة على العشاء على طريقتها؛ فقد أعدت سلَّة عشائها وسلمتها للخادمة.

حين عاد القطار للمسير مرة أخرى، وأعلن عن موعد العشاء بدق الأجراس بعنف، اتجهت نحوه كاثرين بذهن مستريح. فالجالس أمامها على طاولة عشاء الليلة هو شخصية من نوع مختلف تماماً؛ فهى أمام رجل ضئيل - يبدو أنه أجنبى على نحو جلى - ذى شارب رفيع، ورأس بيضاوى الشكل ويميل به بعض الشىء. كانت كاثرين قد أخذت معها إلى العشاء كتاباً، فوجدت الرجل يمعن النظر بالكتاب فى انبساط واضح.

"ألاحظ يا سيدتى أنك تحملين رواية بوليسية، هل أنت مغرمة بهذه الأشياء؟".

فقالت كاثرين مقرة: "إنها تسلينى".

أومأ الرجل الضئيل فى تفهم واضح.

"أخبرونى أنَّ هذه الروايات تلقى رواجاً واسعاً؛ فما السر فى ذلك سيدتى؟ إننى أسألك رغبة فى فهم الطبيعة البشرية – ما الذى يجعل هذه القصص رائجة بين الناس؟".

شعرت كاثرين بمزيد من التسلية.

وقالت: "لعلها تمنح المرء وهم كون الحياة مثيرة".

فأومأ فى جمود.

"نعم، إنَّ بها شيئاً كهذا فعلاً".

فقالت كاثرين متابعة فكرتها: "بالطبع يعلم المرء أن أشياء كهذه لا تحدث واقعياً"، لكنه قاطعها فى حدة.

"أحياناً، آنستى! أحياناً! فأنا أؤكد لك أنها تحدث معى".

فرمقته بنظرة سريعة يملؤها الاهتمام.

فتابع قوله: "ربما يحدث يوماً ما، أن تكونى فى قلب إحدى تلك القصص. الأمر كله رهن المصادفة".

فقالت كاثرين: "لا أظن ذلك قريب الاحتمال؛ فلا شىء كهذا حدث لى من قبل".

فمال للأمام.

"هل تودين أن تعيشى شيئاً كهذا؟".

هزَّها السؤال، وشهقت بحدة.

فقال الرجل الضئيل وهو يمسح إحدى الشوكات فى خفة: "لعله مجرد تصوُّر لدى، لكننى أعتقد أنَّ لديك توقاً لمعايشة أحداث مثيرة. إننى خلال حياتى الطويلة أدركت شيئاً واحداً، وهو أن كل ما يتمنَّاه المرء يدركه!" من يدرى؟". تعقَّد وجهه على نحو مضحك، ثم تابع: "لعلك تلقين أكثر مما طمحت به".

فقالت كاثرين باسمة وهى تنهض عن مقعدها: "أتلك نبوءة؟".

فهز الرجل رأسه نفياً.

ثم قال بغرور: "أنا لا أنجِّم أبداً. إننى معتاد أن أكون على صواب، لكننى لا أتباهى بذلك. ليلة سعيدة آنستى، ونوماً هنيئاً".

عادت كاثرين أدراجها وهى سعيدة مبتهجة بجارها الضئيل. مرَّت بالباب المفتوح لغرفة صديقتها ورأت سريرها وهو يرتب، ورأت السيدة ذات الفراء تقف فى النافذة. نظرت كاثرين إلى المقصورة الثانية من خلال الباب الواصل، فكانت خالية من صاحبتها، وممتلئة بالأغطية والحقائب. لم تكن الخادمة هناك.

وجدت كاثرين أنَّ فراشها قد رُتِّب، ولمَّا كانت تشعر بالتعب؛ فقد استسلمت للنوم وأطفأت نور غرفتها فى التاسعة والنصف.

استيقظت على نحو مفاجئ، لم تدر كم ساعة ظلت فى نومها، نظرت إلى ساعتها، فوجدتها قد توقَّفت. فاعتراها شعور بالقلق وأخذ يزداد لحظة بعد لحظة. وأخيراً نهضت، ووضعت إزار نومها على كتفيها، وخرجت إلى الممر. بدا أنَّ كل مَنْ بالقطار نيام. فتحت نافذة مقصورتها وجلست بجوارها قليلاً تتنشق هواء الليل البارد، وتحاول دون جدوى التخفيف من حدة قلقها. وبشكل لحظى قررت أن تسير حتى نهاية الممر وتسأل الموظف عن الساعة حتى تتمكن من ضبط ساعتها. إلا أنها وجدت كرسيه شاغراً. فترددت قليلاً، ثم تابعت سيرها نحو العربة التالية. نظرت خلال الممر المستقيم المعتم، ففوجئت برجل يقف ويده على باب مقصورة السيدة ذات الفراء. أو ما ظنت هى أنها مقصورتها؛ فربما كانت على خطأ. ظل الرجل فى موضعه هذا للحظات وظهره لها، وقد بدا متردداً فى تصرُّفه، ثم استدار الرجل ببطء، ويالعجائب الأقدار؛ فهو ذات الرجل الذى صادفته كاثرين قبل ذلك مرتين – مرة فى ممر فندق السافوى ومرة فى مكتب كوك، ثم فتح الرجل الباب ودخل وأغلق الباب وراءه.

لمعت فكرة فى ذهن كاثرين. هل يكون هذا هو الرجل الذى كانت تتحدث عنه تلك المرأة – الرجل الذى ارتحلت من أجل لقائه؟

أقنعت كاثرين نفسها بأنها تبالغ؛ فالغالب أنها أخطأت تقدير المقصورة.

عادت لعربتها. وبعد خمس دقائق بدأت سرعة القطار فى الهبوط، ثم سرى صوت هسهسته الكئيب لفرامل القطار، بعدها بدقائق توقَّف القطار تماماً فى محطة ليون.

الفصل الحادى عشر

جريمة قتل

استيقظت كاثرين فى الصباح التالى على ضوء الشمس الساطع، وتوجهت للإفطار مبكراً، لكنها لم تلق أحداً من معارف أمس. وحين عادت لحجرتها وجدت أنها قد رُتِّبت للتو من قِبَل الموظف، وكان رجلاً أسود ذا شارب متدل ووجه كئيب.

قال لها: "حظك عظيم سيدتى، إنه صباح مشمس. دائماً ما يكون إحباط المسافرين عظيماً حين يصلون فى صباح غائم".

فقالت كاثرين: "كنت لأفعل بالطبع".

استعد الرجل للمغادرة.

ثم قال: "نحن متأخرون قليلاً سيدتى، سوف أعلمك قبل وصولنا إلى نيس مباشرة".

فأومأت كاثرين. جلست بجوار النافذة، وشردت مع المنظر المشمس من أمامها؛ فأشجار النخيل، والبحر القاتم الزرقة، وأشجار السنط الصفراء البرَّاقة، صنعت كلها منظراً ساحراً تماماً لامرأة لم تعرف على مدار أربع عشرة سنة سوى شتاءات لندن الكئيبة.

حين وصل القطار مدينة كان، أخذت كاثرين تذرع الممشى جيئة وذهاباً. كانت منشغلة بأمر المرأة ذات الفراء، ونظرت فى غرفتها من خلال النوافذ. كانت الستائر لا تزال منسدلة – كانت هى الستائر المنسدلة الوحيدة فى القطار كله. تجوَّلت كاثرين قليلاً، وحين عادت إلى القطار مرت فى الممر وكانت هاتان الحجرتان ما زالتا مغلقتين. يبدو جلياً أنَّ تلك السيدة ليست ممن يستيقظن مبكراً.

حينها أتى الموظف وأخبرها أنَّ القطار سيصل إلى نيس بعد دقائق معدودة. أعطته كاثرين بقشيشاً؛ فشكرها الرجل، لكنه ظل يتلكأ، كان ثمة شىء غريب بشأنه، كاثرين التى ظنَّت للوهلة الأولى أنَّ بقشيشها لم يكن كافياً، أدركت فى النهاية أنَّ ثمة شيئاً أشد من هذا وطأة. كان وجه الرجل ممتقعاً، وكان جسده يرتجف بكامله، وبدا فى غاية الارتياع. كان الرجل يرمقها بنظرة غريبة، ثم قال على نحو مفاجئ: "معذرة يا سيدتى، هل تنتظر السيدة أصدقاء سيقابلنها فى نيس؟".

فقالت كاثرين: "هذا صحيح فى الغالب، لماذا؟".

لكن الرجل هز رأسه هزة خفيفة جداً وغمغم بشيء لم تستطع أن تفهم منه شيئاً، ثم تحرَّك بعيداً، ولم يظهر ثانية حتى وصل القطار إلى محطته، وبدأ يُنزِل حقائبها من نافذة الغرفة.

توقَّفت كاثرين لحظات فى حيرة، لكن شاباً وسيماً بوجه برىءتقدَّم نحوها وقال فى تردد:

"أنت الآنسة جراى، أليس كذلك؟".

فردت كاثرين بالإيجاب، فمال الرجل نحوها فى براءة تامة وقال مغمغمًا: "أنا تشابى – زوج السيدة تامبلين. توقَّعت أنها ذكرتنى لديك، لكن يبدو أنها نسيت. هل معك إيصال الحقائب؟ لقد فقدته هنا فى العام الماضى، ولن تتصورى حجم الضجة التى فعلوها بشأنها، إن الفرنسيين بيروقراطيون جداً!".

أبرزت كاثرين إيصالها، وكانت على وشك السير بجواره، حينما سمعت صوتاً لطيفاً جذاباً يهمس فى أذنيها:

"لحظة واحدة يا سيدتى، إذا ما سمحت".

استدارت كاثرين لتواجه شخصاً ذا مظهر وضيع يرتدى وشاحاً ذهبياً ضخماً وملابس رسمية. قال الرجل: "ثمة بعض الإجراءات الواجب اتباعها يا آنستى؛ فهلا تلطفت بمصاحبتى قليلاً. إنَّ تحكُّمات الشرطة ..."، ثم أشاح بيديه وتابع "تحكُّمات سخيفة، لكنها حتمية".

كان السيد تشابى يستمع دون فهم على الإطلاق، فيبدو أنَّ لغته الفرنسية لم تسعفه.

كان السيد إيفانز بريطانياً أصيلاً، وكان – وهو مَنْ جعل بلداً أجنبياً جزءاً من موطنه – يسخط بشدة على ساكنيه الأصليين. فقال مغمغماً: "هكذا هم الفرنسيون، دائمًا ما يأتون بجديد السخافات. لكنهم مع ذلك لم يعيقوا أحداً قبل الآن عند المحطة؛ فهذا شيء جديد إذن. أظن أنَّ عليك الذهاب معه".

غادرت كاثرين مع مرشدها. أدهشها قليلاً أن قادها لسكة جانبية جرَّت إليها أحد عربات القطار الراحل. دعاها للصعود، وتبعها داخل الممر، وأزاح لها باب إحدى غرف العربة. كان بها شخص ذو هيئة رسمية يبدو معجباً بها، ومعه كائن يصعب وصفه، يبدو أنه أحد الموظفين. قام الرجل المزهو فى أدب، وانحنى لكاثرين وقال:

"أرجو المعذرة سيدتى، لكنَّ ثمة رسميات يجب الانتهاء منها. هل تتحدثين الفرنسية؟".

فقالت كاثرين بالفرنسية: "لدىَّ منها ما يكفينى يا سيدى".

أشار إلى صدره باهتمام قائلاً: "أنا السيد كوكس، مندوب الشرطة"؛ فحاولت كاثرين أن تبدو مهتمَّة بما فيه الكفاية.

قالت: "لعلك تود رؤية جواز سفرى، ها هو ذا".

نظر إليها الشرطى متفرِّسًا وابتسم.

قال وهو يأخذ منها جواز السفر: "شكراً يا سيدتى"، ثم تنحنح وقال: "لكن ما أريده هو بعض المعلومات".

"معلومات!!".

فأومأ الشرطى برأسه فى بطء.

"معلومات عن سيدة كانت رفيقة رحلتك، وتناولتما الغداء معاً بالأمس".

"أنا آسفة، لكنى لا أعرف أى شىء عنها، لقد تبادلنا الحديث فى أثناء الغداء، لكن لا علاقة لى بها مطلقاً، أنا لم أرها من قبل".

فقال الشرطى بحدة: "لكنك عدت لحجرتها بعد الغداء وتبادلتما الحديث لبعض الوقت، أليس كذلك؟".

فقالت كاثرين: "نعم، هذا صحيح".

بدا أنَّ الشرطى توقَّع منها أكثر من هذا الإقرار، فنظر إليها مشجعاً.

قال لها: "ثم يا سيدتى؟!".

فقالت كاثرين: "ثم ماذا سيدى؟!".

"لو أمكنك أن تعطينى فكرة عن تلك المحادثة التى دارت بينكما".

فقالت: "يمكننى ذلك، لكننى فى الوقت الحالى، لا أرى سبباً لذلك".

على نحو ما شعرت بغضب إنجليزى؛ فقد بدا لها ذلك الرجل وقحاً.

فصاح الرجل قائلاً: "ما من سبب؟ دعينى أؤكد لك سيدتى أنَّ ثمة سببًا".

"فهلا ذكرته لى إذن".

فحك الشرطى ذقنه مفكراً لدقيقة أو اثنتين بدون كلام.

ثم قال أخيراَ: "سيدتى، السبب بسيط للغاية. السيدة موضع السؤال وُجِدت ميتة فى حجرتها هذا الصباح".

شهقت كاثرين، قائلة: "ميتة! لِمَ – هل كانت سكتة قلبية؟".

فقال الشرطى بصوت متأمل حالم: "لا؛ بل قتلت".

فصاحت كاثرين: "قتلت!".

"أرأيت يا سيدتى، لِمَ كنَّا مهتمين بمعرفة أية معلومات ممكنة".

"لكن خادمتها بالتأكيد ـــــــ".

"لقد اختفت الخادمة".

"أوه!" توقفت كاثرين محاولة استجماع أفكارها.

"لقد أفاد موظف القطار بأنه رآكما تتحدَّثان فى غرفتها؛ ولذا استدعيناك لمعرفة أية معلومات".

فقالت كاثرين: "أنا فى غاية الأسف. إننى حتى لا أعرف اسمها".

"اسمها كيترينج. هذا ما عرفناه من جواز سفرها وعلى بطاقات حقائبها. لو أننا – ". دق باب الغرفة؛ فتجهَّم السيد كوكس، وفتح الباب قليلاً.

قال بشكل قاطع: "ما الأمر؟ لا ينبغى مقاطعتى الآن".

ظهر الوجه البيضاوى للرجل الذى صادفته كاثرين على العشاء من فرجة الباب. وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة برَّاقة.

قال الرجل: "اسمى هيركيول بوارو".

قال الشرطى متلعثماً: "حقاً، حقاً هيركيول بوارو".

فقال السيد بوارو: "هو ذاته، أذكر أننى قابلتك مرة قبل الآن يا سيد كوكس فى فندق سوريت بباريس، لكن يبدو أنك نسيتنى".

فقال الشرطى بمودة: "لا، لا على الإطلاق يا سيدى، تفضَّل أرجوك، هل علمت بالأمر؟".

فقال بوارو: "نعم، أعرف. لقد أتيت لأرى إن كان هناك من مساعدة يمكننى تقديمها".

فأجاب الشرطى بشكل فورى: "نحن ممتنّون لذلك جداً، دعنى أعرِّفك على – وجعل ينظر فى جواز السفر الذى لازال يحمله – على مدام – آه – الآنسة جراى".

غمغم بوارو قائلاً: "لكم هو غريب، أنَّ توقعاتى تتحقق سريعاً".

قال الشرطى: "الآنسة للأسف ليس لديها الكثير لتخبرنا به".

قالت كاثرين: "كنت أقول لتوى إنَّ تلك السيدة المسكينة مجهولة تماماً بالنسبة لى".

فأومأ بوارو إيجاباً.

ثم قال بلطف: "لكنها تحدَّثت إليك، أليس كذلك؟".

"لقد كوَّنت فكرة عن الأمر على ما يبدو".

"بلى يا آنستى". دفع الشرطى نفسه للأمام بعصبية. والآن نود معرفة فكرتك أنت عن الأمر".

استرجعت كاثرين كل ما جرى فى ذهنها. شعرت كأنها تخون ثقة من استأمنتها؛ لكن مع بشاعة الأمر الواقع، لم تجرؤ على كتمان شىء؛ فعلى كلامها تتوقف تطورات كثيرة؛ ولذا - وبقدر المستطاع -أعادت ذكر المحادثة التى دارت بينها وبين الفقيدة كلمة كلمة.

قال الشرطى وهو يرمق بوارو: "هذا مثير جداً، أليس كذلك يا سيد بوارو. لو أنَّ لذلك علاقة بالجريمة – ". ولم ينه جملته.

فقالت كاثرين مترددة: "لا أظنُّه انتحاراً".

فقال الشرطى: "لا، لا يمكن أن يكون انتحاراً. لقد كانت مخنوقة بحبل أسود مجتمع النهايات من الخلف".

قالت كاثرين مرتعدة: "يا إلهى!"، فأشار كوكس بيده معتذراً: "ليس لطيفا، أعلم ذلك. أظن أنَّ لصوص القطارات لدينا أشد وحشية مما لديكم".

"هذا فظيع".

فتابع فى لهجة ملطِّفة معتذرة: "نعم، نعم، لكنك تتمتَّعين بشجاعة عظيمة، يا آنسة؛ فبمجرد أن رأيتك، قلت لنفسى إنَّ هذه الآنسة تتمتَّع بشجاعة كبيرة. وهذا ما سيجعلنى أطلب منك طلباً آخر، هو مزعج بعض الشىء، لكنه ضرورى للغاية".

فنظرت إليه كاثرين فى ترقب.

فأشاح بيديه معتذراً.

"سأطلب منك يا آنستى، أن تصاحبينى للحجرة المجاورة".

فقالت كاثرين بصوت ضعيف: "وهل يتوجَّب علىَّ ذلك".

فقال الشرطى: "ينبغى على أحد أن يقوم بتأكيد هويتها، وحيث إنَّ خادمتها قد اختفت تكونين أنت أكثر من رآها منذ أن التحقت بالقطار".

فقالت كاثرين بهدوء: "حسناً، طالما كان الأمر ضرورياً".

نهضت من مجلسها؛ فأومأ لها بوارو إيماءة تأكيد خفيفة.

ثم قال: "إنَّ الآنسة متأثرة بعض الشىء، هل لى أن أرافقها يا سيد كوكس؟".

"بالطبع يا عزيزى السيد بوارو".

خرجوا إلى الممر، وفتح السيد كوكس حجرة القتيلة. كانت الستائر على الجانب الآخر، نصف مفتوحة؛ لتسمح بدخول الضوء. كانت القتيلة موضوعة على جانبها الأيسر على مضجع بيسار الداخلين، وكانت بملامح طبيعية جداً؛ حتى يظن الرائى أنها نائمة. ملابس النوم كانت مطروحة عليها، ووجهها ناحية الجدار؛ ولذا لم يبد منها سوى خصل من شعرها الكستنائى. وبلطف شديد، وضع السيد كوكس يده على كتفها فأدارها بحيث يبدو وجهها. جفلت كاثرين قليلاً ووضعت أظافرها فى راحة يدها. إنَّ ضربة قوية شوهت ملامح وجهها لحد يفوق الوصف. صاح بوارو صيحة عجب وسأل:

"متى يا ترى حدث ذلك؟ أقبل الوفاة أم بعدها؟".

فقال السيد كوكس: "قال الطبيب إنَّ هذا كان بعد الوفاة".

فقال بوارو، عاقداً حاجبيه: "أمر عجيب"، ثم استدار إلى كاثرين وقال "تشجَّعى يا آنسة، وانظرى إليها جيداً. هل أنت متأكدة من أنَّ هذه هى المرأة التى تحدَّثت إليها فى القطار بالأمس؟".

إن كاثرين قوية الأعصاب؛ ولذا فقد استجمعت قواها حتى تنظر إليها طويلاً وبتدقيق فى وجه المرأة المشوه، ثم مالت للأمام وتناولت يد الفقيدة.

ثم أجابت: "أنا لست على يقين من أنها هى، الوجه مشوه للغاية بحيث يستحيل تمييزه، لكن هذه بنيتها، وتلك عربتها، وذاك شعرها، بالإضافة إلى أننى لاحظت هذه – وأشارت إلى شامة صغيرة فى رسغ يدها – وأنا أتحدث إليها".

فقال بوارو مستحسناَ: "حسنًا، أنت شاهدة ممتازة، يا آنسة. لا شك إذن فى هوية القتيلة، لكن الأمر الغريب مع ذلك ...". وتجهَّم وجهه وهو ينظر إلى القتيلة فى حيرة.

فهز السيد كوكس كتفيه.

وقال: "لابد أنَّ القاتل كان مدفوعاً بالغضب الشديد".

فقال بوارو متأملاً : "لو أنها هوجمت، لكان هذا الضرب أمراً مفهوماً، لكنَّ الرجل الذى قتلها، خنقها من الخلف ودون وعى منها. فلا يتجاوز الأمر سوى خنقها، وبعض القرقرة منها. وبعد ذلك، يكون هذا التهشيم لوجهها، فلماذا؟ هل كان يأمل أنه لو شوه وجهها ما تمكَّن أحد من تمييزها؟ أم كان يكرهها بشدة لدرجة أنه لم يقاوم رغبته فى ضربها حتى بعد أن ماتت؟".

ارتعدت كاثرين، فاستدار نحوها على الفور فى لطف.

قال لها: "لابد أنَّ كلامى أوجعك آنستى؛ فهذا ولا شك أمر جديد ورهيب بالنسبة إليك. أما بالنسبة لى، فهى قصة قديمة، لو سمحتما لى لحظات".

وقفا بجوار الباب وهو يلف الحجرة فى سرعة. لاحظ أنَّ ملابس الفقيدة مطوية بعناية فى مضجعها، ومعطف الفرو الكبير معلَّق، وقبَّعتها الحمراء ملقاة على الرف، ثم دلف إلى الحجرة الملحقة، تلك التى رأت كاثرين الخادمة تجلس فيها. فى تلك الحجرة لم يكن المضجع مرتَّباً. وبها ثلاثة أو أربعة أغطية كومت بإهمال على المقعد، وكان بها خزانة قبعات وحقيبتان. استدار نحو كاثرين فجأة.

قال: "لقد كنت هنا بالأمس، فهل ترين أى شى تغيَّر، أو فُقِد؟".

نظرت كاثرين بعناية فى كلتا القمرتين.

ثم قالت: "نعم، هناك شىء مفقود، علبة قطيفة قرمزية. كتبت عليها حروف آر فى كى. وإما أن تكون علبة أدوات زينة صغيرة، أو أنها علبة مجوهرات كبيرة. حين رأيتها كانت الخادمة حاملة إياها".

فقال بوارو: "آه!".

قالت كاثرين: "بالطبع أنا لا أفهم أشياء كهذه، لكن إن كانت الخادمة والعلبة مفقودتين، يكون الأمر واضحاً".

"هل تقصدين أنَّ الخادمة هى السارقة؟ لا يا آنسة، هناك سبب واضح يقضى بخلاف ذلك".

"وما هو؟".

"لقد تخلفت الخادمة فى باريس".

استدار الشرطى نحو بوارو، وقال: "أود منك أن تستمع إلى رواية موظف القطار"، ثم همس له فى سرية: "إنَّ بها الكثير".

فقال بوارو: "لاشك أنَّ الآنسة تودُّ سماعها هى أيضاً، ألديك مانع يا سيدى الضابط؟".

فقال الضابط، وقد بدا ممانعاً جداً: "لا، بالطبع لا سيد بوارو، إن كنت ترى ذلك. لقد انتهينا من هنا، أليس كذلك؟".

"أظن ذلك. اسمح لى بدقيقة أخرى".

عاد إلى الأغطية، ثم أخذ أحدها إلى النافذة، ونظر فيها، ثم التقط منها شيئاً بأظافره.

فسأل كوكس فى حدَّة: "ما هذا؟".

"أربع شعرات كستنائية". ومال على رأس القتيلة، وتابع: "نعم إنها من رأس السيدة".

"وماذا فى هذا؟ هل ترى لذلك أهمية؟".

ترك بوارو الغطاء على المقعد ثانية.

"ما المهم، وما هو غير ذلك؟ لا يمكننا تحديد ذلك الآن. لكن يتوجَّب علينا أخذ كل الحقائق بالاعتبار".

عادوا ثانية إلى الغرفة الأولى، وخلال ثوان وصل موظف القطار ليتم استجوابه.

قال الشرطى: "اسمك بيير ميتشل؟".

"نعم سيدى".

فقال مشيراً إلى بوارو: "أريدك أن تعيد على مسامعى رواية ماحدث فى باريس".

"حسنًا يا سيدى. بعد أن غادرنا جارى دى ليون، أتيت لترتيب الأسرَّة، ظاناً أنَّ السيدة ستكون فى العشاء، لكن سلة عشائها حُمِلَت إليها فى غرفتها. قالت لى إنَّها اضطرت لترك خادمتها فى باريس؛ ولذا فليس علىَّ سوى ترتيب سرير واحد. وأخذت عشاءها إلى الحجرة المشتركة، وظلت هناك إلى أن رتَّبت سريرها؛ ثم أخبرتنى أنها لا تريد إيقاظها مبكراً فى الصباح التالى، وأنها تفضِّل متابعة النوم. فأخبرتها أنِّى أتفهَّم ذلك تماماً، ثم تبادلنا التحية".

"ألم تدخل بنفسك إلى الغرفة الملحقة؟".

"لا يا سيدى".

"ألم تلحظ وجود علبة قرمزية هنا بين الحقائب؟".

"لا يا سيدى، لم ألحظ".

"ألا ترى أنه من الممكن أنَّ أحد الرجال ربما كان مختبئاً فى الغرفة الملحقة؟".

فكَّر الرجل قليلاً ثم قال:

"كان الباب نصف مفتوح، ولو أنَّ رجلاً كان خلف الباب، ما أمكننى رؤيته، لكن السيدة كانت لتراه بالطبع حين دخلت إلى الغرفة".

فقال بوارو: "هذا صحيح تماماً. هل هناك من شىء آخر لتخبرنا به؟".

"أظن أنَّ هذا هو كل ما لدىَّ يا سيدى".

فقال بوارو: "ماذا عن هذا الصباح؟".

"كما أمرت السيدة، لم أقم بإيقاظها؛ فلم أجرؤ على طرق بابها إلى أن وصلنا إلى كان. لم أتلق منها رداً؛ ففتحت الباب. بدا أنَّ السيدة فى سريرها نائمة. لمستها من كتفها لأوقظها؛ فكان أن ـــــ".

أكمل بوارو جملته: "فكان أن وجدتها مقتولة، حسن جداً، أظننى عرفت كل ما أود معرفته".

قال الرجل متوسلاً: "أرجو يا سيدى، ألا أُتَّهم بالتقصير على أى نحو. إنَّ وقوع شىء كهذا على متن القطار الأزرق لهو أمر بشع".

قال الضابط : "لا تبتئس، سنتعامل مع الأمر بهدوء قدر الإمكان، إلا بالطبع فيما توجبه العدالة. ولا يمكننى اتهامك بأى تقصير".

"وستكتب ذلك فى تقريرك للشركة، أليس كذلك؟".

فقال الضابط بنفاد صبر: "بالطبع بالطبع، سأفعل فوراً".

ثم انصرف الموظف.

قال الضابط: "حسب تقدير الطب الشرعى، كانت السيدة قد ماتت قبل وصول القطار إلى ليون. فمَن القاتل إذن، وفق رواية الآنسة، كانت القتيلة ستقابل رجلاً يوافيها فى مرحلة ما من رحلتها. وقيامها بالتخلص من الخادمة له ما يعنيه. فهل التحق الرجل بالقطار فى باريس، وأخفته هى فى حجرتها؟ وإن كان ذلك كذلك، فلعلهما تشجارا؛ فقتلها فى فورة غضبه. هذا احتمال. والاحتمال الآخر - والأقرب إلى عقلى - أنَّ قاتلها هو أحد لصوص القطارات وكان مسافراً على متن القطار؛ حيث تسلل دون أن يراه قاطع التذاكر، فقتلها، وفرَّ بالعلبة القرمزية، والتى تحتوى بالطبع على مجوهرات ذات قيمة. والغالب أنَّه غادر القطار فى ليون، ولقد أبرقنا بالفعل لمحطة ليون؛ ليوافونا بأية تفاصيل عن أى أشخاص شوهدوا وهم يغادرون القطار هناك".

فقال بوارو: "أو لعله ظل حتى وصل القطار إلى نيس".

فقال الشرطى: "ربما، لكن هذه ستكون جرأة شديدة منه".

انتظر بوارو لحظات ثم قال: "فى الاحتمال الثانى افترضت أنه قد يكون مجرماً عادياً؟".

فهز الضابط كتفيه.

"هذا احتمال معلَّق؛ فعلينا أن نصل للخادمة، فمن المحتمل أنها أخذت العلبة معها، وإن كان ذلك ما حدث، فلعل الرجل الذى حدَّثت عنه الآنسة كان على علاقة بالعلبة، وتكون الجريمة مرتبطة بعلاقة حب. وفى ظنى أنا، احتمال لص القطارات، أكثر قبولاً؛ فهؤلاء اللصوص تجاسروا كثيراً هذه الأيام".

نظر بوارو فجأة نحو كاثرين.

"وماذا عنك، آنسة؟ ألم تسمعى شيئاً خلال الليل؟".

فقالت كاثرين: "لا، لم أسمع شيئاً".

فعاد بوارو للضابط.

"لا أظن أنَّ هناك حاجة لإبقاء الآنسة أكثر من ذلك".

فأومأ الأخير.

قال: "لعلها تترك لنا هاتفها؟".

أعطته كاثرين اسم فيلا السيدة تامبلين. وحيَّاها بوارو بانحناءة خفيفة ثم قال: "هلا سمحت لى بلقاء آخر، يا آنسة؟ أم أنَّ لديك من الأصدقاء ما يملأ وقتك؟".

فقالت كاثرين: "على العكس، سيكون لدىَّ الكثير من وقت الفراغ، وسأكون سعيدة بلقائك ثانية".

فقال بوارو، وهو يومئ لها فى ود: "ممتاز، سنحقق إذن فى هذه القضية معاً".

الفصل الثانى عشر

فى فيلا مارجريت

قالت السيدة تامبلين وكأنها تغبطها على ما رأته: "لقد كنت فى قلب الحدث إذن يا عزيزتى، لكم هو شىء مثير حقاً!"، ثم فتحت عينيها الزرقاوين على اتِّساعهما وتنهَّدت.

قال السيد إيفانز منبهراً: "جريمة قتل حقيقية!".

فتابعت السيدة تامبلين: "بالطبع تشابى لم تكن لديه أية فكرة عن الأمر، حتى إنه لم يتخيَّل ما الذى قد تطلبك الشرطة من أجله. يالها من فرصة، يا عزيزتى! أظنك تدركين ذلك – نعم، أعتقد أن بإمكاننا الإفادة من شىء كهذا".

شابت براءة عينيها الزرقاوين نظرة مكر.

شعرت كاثرين بعدم الارتياح قليلاً. كانوا قد أتموا غداءهم للتو، وتأمَّلت بدورها الثلاثة الذين يجلسون معها حول الطاولة. فالسيدة تامبلين لا تفكِّر إلا فى ترتيبات نفعية، والسيد إيفانز يتطلَّع بنظرة ساذجة للأمور، ولينوكس تحمل على وجهها ابتسامة غريبة ماكرة.

غمغم تشابى بالقول: "حظ عجيب، وددت لو أننى ذهبت معك – ورأيت – رأيت كل شىء". كانت رنَّة صوته تمتلئ شوقاً وطفولية.

لم تقل كاثرين شيئاً عمَّا رأت، ولم تضع الشرطة قيوداً على حديثها فى الأمر، وكان واضحاً أنَّ من المحال أن تخفى الحقائق الأساسية عن مضيفتها، لكنها ودَّت أنها لو فعلت ذلك.

قالت تامبلين وقد خرجت فجأة من تأمُّلاتها: "نعم، أظنُّ أن بإمكاننا الإفادة من هذا الحدث. كوصف لما جرى يكتب فى الصحافة بمهارة؛ حيث شهادة العيان الوحيدة تتحدَّث: كيف كان حوارى مع القتيلة – أو شيئاً كهذا".

فقالت لينوكس: "هراء!".

فقالت تامبلين فى صوت ناعم متلهِّف: "أنت لا تدرين كم تدفع الصحف مقابل أنباء كهذه! بعد أن تُصَاغ بمهارة طبعاً من قِبَل شخصية اجتماعية لا يرقى لها الشك. لا أظنُّك تحبين القيام بهذا بنفسك يا عزيزتى كاثرين، كل ما عليك أن تعطينى التفاصيل الأولية للموضوع، وأنا سأرتِّب للأمر كله. إنَّ السيد دى هافيلاند هو أحد أصدقائى المقربين، وبيننا تفاهم كبير. إنه رجل لطيف للغاية – وليس مجرد محرر صحفى. فكيف ترين الفكرة يا كاثرين؟".

فقالت كاثرين بخشونة: "أفضِّل ألا أفعل شيئًا من هذا القبيل".

ارتبكت تامبلين قليلاً من هذا الرفض القاطع؛ فتنهَّدت وعادت للسؤال عن التفاصيل الدقيقة للأمر.

"قلت إنَّها امرأة لافتة للغاية، فيا ترى من تكون؟ ألم تسمعى اسمها؟".

فقالت كاثرين: "لقد ذكر اسمها فعلاً، لكننى لا أتذكَّره. لقد كنت متوتِّرة للغاية كما تعلمين".

لم تكن كاثرين لتذكر الاسم، حتى لو تذكرته؛ فاستجواب تامبلين القاسى لها جعلها تحجم عن الكلام. لينوكس - وهى المراقبة بطبيعتها - لاحظت ذلك، وعرضت اصطحاب كاثرين للأعلى؛ لتريها غرفتها، ثم تركتها هناك، وقبل أن تغادرها قالت لها: "لا تبالى بحديث أمى؛ فهى إن استطاعت ربح بعض القروش من حادث وفاة جدَّتها لما تأخرت".

عادت لينوكس ثانية، لتجد أمها وزوج أمها ما زالا يتناقشان فى شأن ضيفتهما.

قالت تامبلين: "إنها أنيقة، أنيقة بحق؛ فملابسها متناسقة تماماً. فذاك الزى الرمادى هو نفسه الذى ارتدته جلاديس كوبر فى فيلم أشجار النخيل بمصر".

فسأل إيفانز: "هل لاحظت لون عينيها – ماذا كانت؟".

فقالت تامبلين بحدة: "لا تبالِ بعينيها يا تشابى، نحن نتحدَّث فيما هو مهم الآن".

فقال إيفانز: "أوه، بالضبط". وعاد لقوقعته ثانية.

قالت تامبلين: "لا تبدو، لا تبدو – طبيعية تماماً". بدت كأنها مترددة فى اختيار الكلمة المناسبة.

فقالت لينوكس مبتسمة: "إنَّها تحمل كل صفات السيدة الراقية، كما تقول الكتب تماماً".

فقالت تامبلين: "إنَّها ضيقة الأفق، وأرى ذلك حتمياً وفق ما كان من ظروف".

فقالت لينوكس، بابتسامة: "أظن أنك ستبذلين أقصى جهودك لتطويعها، لكنك لن تنجحى فىذلك؛ فقد رأيت الآن أنها سكتت وصمَّت أذنيها ورفضت أن تتزحزح".

فقالت تامبلين بأمل: "على أية حال، هى لم ترنى وضيعة بأية حال؛ فبعض الناس حين يتعلق الأمر بالمال يبدون اهتماماً مفرطاً".

فقالت لينوكس: "وبالطبع ستنالينه من حيث أردت، وفى النهاية هذا ما يهمك، وهذا هو سبب وجودها الحقيقى".

فقالت تامبلين بفخر: "إنها ابنة عمى".

فاستيقظ إيفانز ثانية وقال: "ابنة عمك؟ أيفترض بى أن أناديها كاثرين؟".

فقالت تامبلين: "ليس مهماً كيف ستناديها، يا تشابى".

فقال إيفانز: "حسناً، سأناديها كاثرين. هل تظنين أنها تلعب التنس؟".

فقالت تامبلين: "بالطبع لا؛ لقد كانت تعمل مرافقة كما أخبرتك. المرافقات لا يلعبن التنس – ولا الجولف. ربما يلعبن الكروكيه، لكنهن دائماً يغزلن الصوف، ويغسلن الكلاب فى معظم النهار".

فقال إيفانز: "يا إلهى، أحقًّا هذا ما يفعلن؟".

انسحبت لينوكس لأعلى ثانية نحو غرفة كاثرين.

قالت فى لامبالاة: "هل من خدمة أقدِّمها لك؟".

ومع رد كاثرين بأنها لا تحتاج إلى شىء، جلست لينوكس على طرف سرير كاثرين، وتأمَّلت ضيفتها.

ثم قالت أخيراً: "ما الذى جاء بك إلى هنا؟ أعنى أننا لسنا من طرازك".

"أنا مشتاقة للانخراط فى المجتمع من حولى".

فقالت لينوكس سريعاً، مع ابتسامة خاطفة: "لا تتصنعى الحماقة، أنت تعلمين ما أقصد بالضبط؛ فلست كما كنت أتصورك عليه. أرى أن لديك بعض الملابس الجميلة". تنهدت، ثم تابعت: "الملابس غير ذات جدوى بالنسبة لى؛ فأنا لا أبدو مناسبة بأية ملابس. وهذا أمر مؤسف؛ لأننى أحب الملابس".

فقالت كاثرين: "لكنى لم أستفد من حبى لها كثيراً حتى الآن. هل ترين ملابسى هذه جميلة حقاً؟".

وناقشت هى ولينوكس بعض الموديلات بروح فنِّية متَّقدة.

ثم قالت لينوكس فجأة: "لقد أحببتك، وقد أتيت لأحذرك من أن تنساقى خلف أمى؛ لكنى أرى الآن أنه لا حاجة للتحذير الآن. فرغم صدقك واستقامتك الشديدين، إلا أنَّك لست بحمقاء. اللعنة، ماذا يا ترى؟".

كان ذلك صوت تامبلين تنادى من الصالة فى نبرة حزن:

"لينوكس، لقد اتصل كيترينج لتوِّه. يود أن يأتينا على العشاء الليلة؛ فهل سيكون ذلك ملائماً؟ أعنى، هل توجد أى منغِّصات؟".

طمأنت لينوكس أمَّها ثم عادت لغرفة كاثرين. كان وجهها أكثر إشراقاً وأقل تجهماً.

"أنا سعيدة بقدوم صديقنا القديم ديريك، ستحبينه".

"من هو ديريك؟".

"هو ابن لورد لوكنبرى، وزوج ثرية أمريكية. كل النساء ينجذبن لديريك".

"ولماذا؟".

"للأسباب التقليدية؛ فهو وسيم، وبارع لا يجارى. إنه يدير رءوس الجميع".

"وهل أنت من بين هؤلاء؟".

فقالت لينوكس: "أحياناً، وأحياناً أخرى أفكر بأننى أحب الزواج من رجل دين، وأعيش فى الريف أربى الطيور فى الحظائر". توقَّفت قليلاً، ثم أضافت: "ولو كان رجل الدين هذا إيرلندياً لكان أفضل، وعلىَّ إذن أن أبحث".

بعد لحظات عادت لموضوعها الأول: "ثمة شىء عجيب فى ديريك؛ فكل رجال عائلته مهووسون بالمقامرة المقيتة. قديماً اعتادوا المقامرة على زوجاتهم وممتلكاتهم، وفعل كل ما هو أحمق؛ لمجرد حبهم للمقامرة. ديريك كان ليصبح قاطع طريق مثالياً؛ فهو غير مبال، ومرح، تماماً كما يجب أن يكون قاطع الطريق". تحرَّكت نحو الباب وقالت: "حسناً، انزلى لأسفل متى شئت".

وجدت كاثرين نفسها وحيدة، فاستسلمت لأفكارها؛ ففى هذه الأثناء بدأت تشعر بالاستياء لما يحيطها من مطمئنات ومزعجات؛ فصدمة حادثة القطار وأصدقاؤها الجدد زادوا من عدم ارتياحها. فكَّرت كثيراً ومليا فى المرأة التى قتلت؛ فقد أسفت من أجل روث، لكنها لا تستطيع أن تقول صادقة بأنها أحبتها. فقد قرأت ببراعة ذلك العجب الشديد بنفسها، والذى كان مفتاح شخصيتها، وقد نفَّرها ذلك.

سخرت ولم تتأذ كثيراً بصرف الأخيرة لها حين أتمَّت خدمة الإنصات لمشكلتها. كانت روث قد توصلت لقرار حينها، كانت كاثرين على يقين من ذلك، لكن السؤال هو عن ماهية ذلك القرار. وأيًّا كان ذلك القرار؛ فقد أتاها الموت ليجعل من كل القرارات عدماً. غريبٌ أن يكون ما كان، وغريب أن يكون ذلك القتل الوحشى نهاية لتلك الرحلة القدرية. لكن كاثرين تذكَّرت فجأة، معلومة صغيرة، ربما كان يجدر بها أن تذكرها للشرطة – معلومة تسلَّلت من ذاكرتها للحظات. هل هى ذات جدوى حقيقية؟ إنها تذكر بما لا شك فيه أنها رأت رجلاً يدخل تلك الغرفة بعينيها، لكنها أدركت سريعاً أنها لربما أخطأت، فلعلَّها الحجرة التالية، ويكون الرجل محل البحث لص قطارات ليس إلا. لقد

تذكَرت على نحو جلى أنه ذاك الذى رأته فى مناسبتين سابقتين – مرة فى فندق السافوى ومرة أخرى فى مكتب حجز الرحلات. لا، لابد أنها أخطأت، وأنَّ الرجل لم يدخل حجرة القتيلة، وقد أحسنت فعلاً بعدم إخبارها الشرطة بالأمر، فلعلَّها آذته بفعلها ذلك.

نزلت لتلتحق بالآخرين فى شرفة المنزل. ومن بين أغصان الميموزا الذهبية، أخذت تتطلع إلى مياه المتوسط الزرقاء، وفى ذات الوقت كانت تسمع - كعادتها فى ساينت مارى ميد - بنصف انتباه حديث تامبلين عن سعادتها بقدومها. لكن ذلك ألطف بكثير مما فى ساينت مارى ميد.

فى ذلك المساء ارتدت ثوباً بنفسجياً يدعى حساء الخريف، وبعد أن ابتسمت لصورتها فى المرآة، نزلت، ولأول مرة فى حياتها تشعر بقليل من الخجل.

كان معظم ضيوف تامبلين قد وصلوا، ولمَّا كانت الضوضاء هى الأساس فى حفلات تامبلين، كانت الضجة رهيبة بالفعل. اندفع نحوها تشابى سريعاً، وأعطاها عصيرًا.

صاحت تامبلين، والباب يفتح معلناً عن القادم: "أخيراً أتيت يا ديريك، هيا بنا إلى الطعام الآن؛ فأنا أتضوَّر جوعاً".

نظرت كاثرين عبر القاعة. لقد أذهلها من رأته؛ فهذا هو ديريك إذن، ثم أدركت أنها لم تندهش لرؤيته؛ فلقد أدركت أنَّ الرجل الذى لاقته ثلاث مرات فى سلسلة من الصدف العجيبة، لابد أنها ستقابله يوماً ما. ظنَّت أيضًا أنه عرفها؛ فقد توقف فجأة عمَّا كان يقوله لـ "تامبلين"، ثم تابع ثانية فى عناء حديثه معها. ذهبوا جميعاً إلى العشاء؛ فوجدت كاثرين نفسها وقد أجْلست بجواره، فاستدار نحوها فى الحال بابتسامة مشرقة.

قال: "علمت أننا سنلتقى سريعاً، لكنى لم أتوقَّع قط أن يكون هذا هو موضع لقائنا. لابد من الثالثة المتمِّمة كما تعلمين. مرة فى السافوى، والثانية فى مكتب الحجز؛ فلابد إذن من الثالثة. لا تقولى إنك لم تتذكرينى أو أنك لم تلاحظينى أصلاً".

فقالت كاثرين: "بلى، أذكرك. لكن هذه ليست المرة الثالثة. إنها الرابعة. لقد رأيتك على متن القطار الأزرق".

"على القطار الأزرق!". اعترى أسلوب حديثه شىء لا يمكن تحديده، شىء لا يمكنها تأكيده، لكنه كان كما لو أنه تلقَّى تهديداً، أو عائقاً، ثم قال بلا مبالاة:

"علام الضجَّة التى سرت هناك هذا الصباح؟ لقد مات أحدهم، أليس كذلك؟".

فقالت كاثرين ببطء: "نعم، لقد مات أحدهم".

فقال ديريك فى تهكُّم: "لا يجدر بالمرء أن يموت على متن قطار؛ فهذا يجلب كل ألوان التعقيدات القانونية والدولية، ويعطى للقطار عذراً فى ألا يعود لعادته أبداً".

مالت نحوه امرأة أمريكية بدينة تجلس أمامه، وقالت مظهرة لكنة قومها: "سيد كيترينج، سيد كيترينج، أعتقد جدياً أنك قد نسيتنى، وأنا من ظننتك رجلاً مجاملاً".

مال نحوها كيترينج - مجيباً إيَّاها - وكاثرين أقرب إلى حالة من الدوار.

كيترينج! ذاك هو الاسم! لقد تذكَّرته الآن – يالغرابة وسخرية هذا الموقف! فها هو الرجل الذى كانت قد رأته يدخل غرفة زوجته بالأمس، وقد تركها حيَّة ومتعافية، وهو الآن يجلس على عشائه، غير واع بالقدر الذى حل بها. لا شك أنه لا يدرى بالأمر.

مال أحد الخدم على ديريك، مسلماً إياه ورقة، وهامساً بأذنه. وبعبارة اعتذار لـ "تامبلين" فتح الورقة، فارتسم على وجهه وهو يقرؤها تعبير من الدهشة الكاملة؛ ثم التفت لمضيفته.

"أمر غريب بالفعل. روزالى، أنا مضطر لمغادرتك الآن؛ فالشرطة تريد أن ترانى للتو، ولا أدرى لأى سبب".

فقالت لينوكس: "خطاياك تلاحقك بالتأكيد!".

فقال ديريك: "لابد أنه كذلك، الأمر فى الغالب سخيف، لكن علىَّ أن أسرع فى التوجه لمقر المحافظة. كيف يجرؤون على انتزاعى هكذا من عشائى، لابد أن يكون أمراً جد خطير يبرر ذلك"، ثم ابتسم وهو يدفع كرسيه للخلف ويغادر الغرفة.

الفصل الثالث عشر

فان ألدن يتلقى برقية

فى ظهيرة يوم الخامس عشر من فبراير كان الضباب الأصفر الكثيف يلف لندن. وكان فان ألدن فى جناحه بفندق سافوى مستغلاً هذه الظروف الجوية الصعبة فى مضاعفة ساعات عمله. وكان نايتون مبتهجاً بذلك أيَّما ابتهاج؛ فقد كان يجد صعوبة فى الآونة الأخيرة فى دفعه للتركيز على أمور العمل. وكان حين يجرؤ على فتح أحد موضوعات العمل، كان فان ألدن يصدُّه بكلمة فظة. لكن يبدو الآن أنَّ فان ألدن قد استسلم للعمل بطاقة مضاعفة، ووجد مساعده فرصته التى لا تُعوَّض. وبلباقة شديدة ودون لفت للنظر أطلق قنبلته الكبرى التى لم يتوقَّعها فان ألدن قط. كانت ملاحظة عابرة نطق بها مساعده دون وعى لها مطلقاً. وجعلت تتضخَّم خفية، وتتقدَّم تدريجياً إلى عقل فان ألدن الواعى؛ حتى جعلته فى النهاية يستسلم لإلحاحها عليه.

لقد استمع إلى ما قاله نايتون باهتمامه الحاد المعتاد، لكن أياً من كلمات مساعده لم تجذب انتباهه. فأومأ على نحو آلى، وعاد مساعده إلى أوراق عمل أخرى بيديه. وبينما هو يصنِّف الأوراق إذا بصاحب عمله يتحدَّث:

"هلا أعدت علىَّ ما أخبرتنى به ثانية يا نايتون؟".

للحظات كان نايتون فى حيرة.

فقال وهو يحمل تقريراً لشركة ذات صلة بالحديث: "هل تعنى هذا سيدى؟".

فقال فان ألدن: "لا، لا، بل أعد ما ذكرته عن أنك رأيت خادمة روث فى باريس ليلة أمس، لا أظننى فهمت أمراً كهذا. لابد أنك خلطت بينها وبين امرأة أخرى".

"لا يمكن أن أكون على خطأ يا سيدى؛ فقد تحدَّثت إليها".

"حسنًا، إذن. أخبرنى بالأمر كله".

فبدأ نايتون حكايته.

"لقد أتممت أمر الصفقة مع بارثيميرس، ثم عدت إلى فندق ريتز لآخذ حقائبى استعداداً للعشاء واللحاق بقطار التاسعة من جارى دو نورد. وفى مكتب الاستقبال، رأيت المرأة التى أعرف يقيناً أنها خادمة السيدة كيترينج؛ فذهبت إليها وسألتها إن كانت السيدة كيترينج قد نزلت هناك".

فقال فان ألدن: "نعم، نعم، بالطبع. هذا طبيعى. وقد أخبَرَتْك بأن السيدة روث قد واصلت سفرها للريفييرا وأرسلتها إلى الريتز حتى إشعار آخر؟".

"هذا ما حدث بالضبط يا سيدى".

قال فان ألدن: "أمر غريب جداً، إلا إذا كانت تلك المرأة قد أساءت إليها، أو أى شىء من هذا القبيل".

"لو كان ذلك كذلك؛ لأعطتها مالاً، وأخبرتها بأن تعود إلى إنجلترا، لكنها فقط تركتها فى الريتز".

فقال المليونير: "هذا صحيح".

كان يود قول شىء آخر، لكنه منع نفسه. إنه يحب نايتون ويثق به، لكنه لن يناقش أمور ابنته الخاصة مع مساعده. إنه مستاء بالفعل لعدم صراحة روث معه، وهذه المعلومة القدرية التى واتته - جعلته غير قادر على تهدئة هواجسه.

لماذا تخلَّصت روث من خادمتها فى باريس؟ ما الهدف أو الدافع المحتمل الذى يجعلها تقدم على ذلك؟

جعل يفكر لحظات فى توافق الصدف الغريب هذا. كيف ترى روث أن أول من تقابله خادمتها فى باريس هو مساعد أبيها، إلا أن يكون ذلك من أتعس الصدف؟ لكن هكذا تجرى الأمور، وهكذا تُكتَشف الحقائق.

توقَّف عند الجملة الأخيرة التى قفزت لذهنه بتلقائية شديدة. هل هناك إذن من حقائق يرجى كشفها؟ كره طرح هذا السؤال على نفسه؛ فهو على يقين من الإجابة. الإجابة هى أرماند دو لا روش، وهو على يقين من ذلك.

من الصعب عليه أن يرى ابنته منخدعة برجل كهذا، لكنه مع ذلك يقر أنها ليست وحدها فى ذلك؛ فغيرها من النساء الذكيات، سرعان ما يستسلمن لسحر الأمير؛ فالرجال يدركون حقيقته، أمَّا النساء فلا.

سعى لدحض أى شك يمكن أن تتركه رواية مساعده.

فقال: "إنَّ روث عادة ما تغيِّر رأيها بالأمور بين لحظة وأخرى"، ثم سأل بطريقة أرادها لا مبالية: "هل تحدَّثت الخادمة عن أى سبب جعلها تغيِّر خطَّتها؟".

فقال نايتون بصوت حاول أن يكون طبيعياً قدر الإمكان: "لقد قالت سيدى، إنَّ السيدة كيترينج قابلت صديقاً لها على نحو غير متوقع".

"هكذا إذن؟".

التقطت أذن المساعد الخبيرة رنة التوتُّر فى نبرة حديثه التى أرادها طبيعية.

"حسنًا، فهل كان رجلاً أم امرأة؟".

"أظنُّها قالت رجلاً، سيدى".

أومأ فان ألدن. لقد تحقَّق أسوأ مخاوفه. نهض من كرسيه وبدأ يقطع الغرفة جيئة وذهاباً، وهى عادته حين يكون عصبياً؛ فقد كان غير قادر على كتمان مشاعره أكثر من ذلك، فانفجر:

"شىء واحد لا يستطيع الرجل تحقيقه، وهو أن يدفع امرأة لأن تصغى للعقل؛ فلسبب أو لآخر لا يكون لديهن أى منطق فى أفعالهن. يتحدثن عن حدس المرأة – عجباً، فالمعروف للدنيا كلها أنَّ المرأة هى العلامة التى لاريب فيها لأى دجَّال نذل. فليس هناك امرأة فى كل عشر نساء من تفطن للرجل النذل حين تلاقيه؛ فيسقطن بسهولة أسرى وسامة أى رجل يلقى إليهنَّ بحلو الكلام. لو أننى أجد أى سبيل ـــــــ".

قوطع حديثه؛ فقد دخل عليه ناقل الرسائل ببرقية أتته. فتح فان ألدن البرقية، فامتقع وجهه على الفور. وأمسك بظهر المقعد ليضبط اتِّزانه، وأشاح للساعى بالانصراف.

"ما الأمر سيدى؟".

نهض نايتون فى اهتمام.

فقال فان ألدن بصوت مبحوح: "روث!".

"السيدة كيترينج؟".

"قُتِلَتْ!".

"حادثة قطار؟".

فهز فان ألدن رأسه.

"لا. ويبدو أنها سُرِقَت أيضاً. لم يذكروا الكلمة صراحة يا نايتون، لكن المسكينة قُتِلَت".

"أوه يا إلهى!".

ربت فان ألدن بسبَّابته على البرقية، وقال: "هذه البرقية من شرطة نيس، علىَّ أن أذهب فى أول قطار".

وكان نايتون كفئًا كعادته. اختلس نظرة للساعة.

ثم قال: "قطار الخامسة من محطة فيكتوريا سيدى".

"حسنًا. ستأتى معى يا نايتون. أخبر خادمى أرتشر، وقم بحزم أمتعتك. ورتِّب كل الأمور هنا. أريد الذهاب فى جولة بشارع كارزون".

دق جرس الهاتف بحدة؛ فرفع المساعد سمَّاعته.

"نعم؛ مَنْ؟".

ثم استدار لـ "فان ألدن":

"إنه السيد جوبى، سيدى".

"جوبى؟ لا أستطيع مقابلته الآن. كلا – تمهَّل، لدينا متَّسع من الوقت. قل لهم أن يسمحوا له بالقدوم".

كان فان ألدن رجلاً قوياً. كان قد استعاد بالفعل وجهه الحديدى الهادئ. قليلون هم مَنْ يمكنهم تمييز شىء غير عادى فى تحيَّته لجوبى.

"وقتى محدود يا جوبى، هل من شىء مهم لديك؟".

فسعل جوبى.

"إنَّها تحرُّكات السيد كيترينج، سيدى. أظنُّك تود معرفتها".

"نعم، هاتها".

"لقد غادر السيد كيترينج لندن إلى الريفييرا صباح أمس سيدى".

"ماذا؟".

شىء ما فى صوته أدهش جوبى؛ فتخلَّى الرجل عن عادته بعدم النظر فى وجه محدِّثه، واسترق نظرة سريعة للمليونير.

سأله فان ألدن: "على أى قطار غادر؟".

"على القطار الأزرق سيدى".

سعل جوبى ثانية وتحدَّث ناظراً إلى الساعة التى تعلو المدفأة.

"والآنسة ميريلى راقصة البارثينون، غادرت على ذات القطار!".

الفصل الرابع عشر

رواية أدا ماسون

"سيدى، لا يسعنا التعبير عن مدى صدمتنا مما جرى وعميق تعاطفنا معكم".

كانت تلك كلمات "السيد كاريج" قاضى التحقيقات، للسيد فان ألدن. وتمتم السيد كوكس بدوره بكلمات مواساة. وتلقَّى السيد فان ألدن مواساتهما بإيماءة سريعة. كان اللقاء بغرفة قاضى التحقيقات بنيس. وبخلاف فان ألدن، وكاريج، والسيد كوكس، كان ثمة شخص آخر معهم بالغرفة، كان هو من بدأ الحديث.

قال: "السيد فان ألدن يبغى عملاً، وعملاً سريعاً لكشف الأمر".

فصاح السيد كوكس: "آه، نسيت أن أعرِّفك يا سيد فان ألدن، هذا هو السيد بوارو، لابد أنك سمعت به. هذا على الرغم من أنه تقاعد منذ سنوات، إلا أن اسمه لا يزال الأعظم بين المحققين".

فقال فان ألدن وقد اعتمد طريقة حديث كان قد نبذها منذ سنوات: "سررت بلقائك يا سيد بوارو. هل تركت عملك؟".

"هذا صحيح سيدى، أنا الآن أستمتع بالعالم".

قال السيد كوكس موضحاً: "لقد صادف أن كان السيد بوارو مسافراً على متن القطار، وكان من لطفه أن عرض علينا المساعدة بما لديه من خبرة واسعة".

نظر المليونير ملياً نحو بوارو، ثم قال على نحو غير متوقع: "أنا رجل فى غاية الثراء يا سيد بوارو، ويقولون فى العادة إنَّ الأثرياء يوظفون الناس للعمل معتقدين أنَّ بإمكانهم شراء كل شىء وأى شخص. وهذا ليس صحيحاً، أنا رجل ذو شأن فى مجالى، ويمكن لذى الشأن أن يطلب معروفاً من ذوى الشأن فى مجالهم".

فأومأ بوارو بإيماءة تقدير سريعة.

"حسنًا يا سيد فان ألدن. وأنا أضع نفسى بالكامل فى خدمتك".

فقال فان ألدن: "شكراً. لا يسعنى سوى القول بأنك تستطيع الاتصال بى فى أى وقت، ولن أخيِّب أملك قط. والآن إلى العمل أيها السادة".

فقال السيد كاريج: "أرى أن أبدأ باستجواب الخادمة أدا ماسون. أظنّها لديك هنا؟".

فقال فان ألدن: "نعم، فقد أخذناها معنا من باريس فى طريق عودتنا. وقد كانت فى غاية الانزعاج لسماعها خبر وفاة سيدتها، لكنها أدلت بروايتها لما حدث باتساق معقول".

فقال السيد كاريج: "فهى الآن هنا إذن".

دقَّ جرس مكتبه، وبعد ثوان دخلت أدا ماسون إلى الغرفة.

كانت ترتدى ثياباً سوداء أنيقة، وكان طرف أنفها محمراً. وقد استبدلت بقفازيها الرماديين آخرين سوداوين. ألقت نظرة على القاعة بشىء من الذعر، وبدا أنها شعرت ببعض الارتياح حين وجدت والد سيدتها؛ عاملها قاضى التحقيقات بلطف، وحاول جاهداً أن يهدئ من روعها. ساعده فى ذلك بوارو، الذى عمل كمترجم، والذى كانت طريقته الملاطفة خير تطمين للمرأة.

"اسمك أدا ماسون، أليس كذلك؟".

فقالت ماسون بحسم: "أدا بياترس هو اسمى الحقيقى يا سيدى".

"حسنًا، ونحن نتفهَّم تماماً مدى المأساة".

"إنها كذلك فعلاً سيدى؛ فلقد عملت مع كثير من السيدات، وكنت دائماً محل الرضا، لكنى لم أتصوَّر حدوث شىء كهذا بوجودى أبداً".

فقال السيد كاريج: "صحيح".

"لقد قرأت بطبيعة الحال عن أشياء كهذه فى الصحف. ولطالما أدركت أن تلك القطارات الأجنبية – ". ثم كبحت حديثها بعد أن تذكَّرت أنَّ الرجل الذى يتحدث إليها من نفس البلد الذى ينتمى لها هذه القطارات.

فقال السيد كاريج: "دعينا الآن نتحدَّث فى قضيتنا، هل كان هناك حديث عن بقائك فى باريس حين بدأتما الرحلة من لندن؟".

"لا يا سيدى؛ كان الترتيب الأساسى أن نذهب مباشرة إلى نيس".

"هل سافرت من قبل مع سيدتك للخارج؟".

"لا يا سيدى؛ فلم أمض فى خدمتها سوى شهرين".

"هل بدت كعادتها حين بدأتما الرحلة؟".

"لقد بدت قلقة ومنزعجة بعض الشىء، كانت سريعة الغضب ويصعب إرضاؤها".

فأومأ السيد كاريج.

"فمتى إذن كان أول ما سمعت باستبقائك فى باريس؟".

"كان ذلك فى المكان الذى يدعونه جارى دو ليون يا سيدى. كانت سيدتى تفكِّر وتطوى رصيف المحطة جيئة وذهاباً وتخرج من القطار وتصعد إليه، حتى هتفت فجأة وهى خارجة من الممر، ثم عادت إلى حجرتها ومعها رجل. أغلقت الباب بيننا فلم أسمع أو أر شيئاً مما يدور، حتى فتحت الباب فجأة وأخبرتنى بأنها عدَّلت خططها. أعطتنى بعض المال، وطلبت منى مغادرة القطار والبقاء فى ريتز. قالت إنَّهم يعرفونها هناك بشكل جيد، وسيعطوننى غرفة. وأن علىَّ الانتظار هناك حتى يصلنى منها توجيه آخر؛ فستتصل بى لإخبارى بما تريد منى فعله. لم يكن أمامى الكثير من الوقت فرتَّبت أغراضى، ونزلت سريعاً من القطار قبل أن يتابع رحلته".

"وفى أثناء ذلك كان الرجل موجوداً؟".

"كان يقف فى الغرفة الأخرى، ينظر من النافذة".

"هلا وصفته لنا؟".

"كما ترى يا سيدى؛ فأنا لم أره تقريباً. لقد كان ظهره لى معظم الوقت. كان طويلاً، ويرتدى ملابس داكنة، هذا كل ما يمكننى قوله. كان يشبه فى لباسه رجلاً آخر إلى حد كبير؛ فكان يرتدى معطفاً أزرق قاتمًا، وقبعة رمادية".

"هل كان من ركَّاب القطار؟".

"لا أظن ذلك يا سيدى، ما خطر ببالى أنه أتى إلىِ المحطة لملاقاة السيدة كيترينج وهى فى طريقها. ولعله بالطبع كان من بين الركَّاب، لكننى لم أفكِّر فى ذلك".

بدا أن ماسون قد اضطربت من افتراضها الأخير.

فقال السيد كاريج متَّجهاً بالحديث وجهة أخرى: "آه! إنَّ سيدتك طلبت فيما بعد ألا يوقظها مسئول القطار مبكراً فى الصباح. فهل كان ذلك من عادتها؟".

"نعم يا سيدى؛ فالسيدة لا تتناول الإفطار أبداً، ولا تنام جيداً فى أثناء الليل؛ ولذا فهى تحب مواصلة النوم فى الصباح".

ومرة أخرى انتقل السيد كاريج لموضوع آخر.

"كان من بين الأمتعة علبة قرمزية، أليس كذلك؟ إنها علبة مجوهرات سيدتك؟".

"نعم يا سيدى".

"هل أخذت تلك العلبة معك إلى ريتز؟".

فردَّت مرتاعة: "أنا! آخذ علبة مجوهرات سيدتى إلى ريتز! بالطبع لا يا سيدى".

"فهل خلفتها وراءك فى العربة؟".

"نعم يا سيدى".

"هل كان مع سيدتك مجوهرات كثيرة فى تلك الرحلة؟".

"قدر لا بأس به يا سيدى؛ مما جعلنى غير مستريحة إلى حد ما، هذا بعدما نسمعه من حكايات سيئة عن السرقات فى البلاد الأخرى. صحيح أنها كانت مؤمنة بشكل جيد، لكنها بكل الأحوال مخاطرة كبيرة؛ هذا لأن الماسات وحدها - وكما أخبرتنى السيدة - تساوى مئات الآلاف من الجنيهات".

فصاح فان ألدن: "ماسات، أى ماسات؟".

فاستدارت نحوه ماسون وقالت: "أظنُّك أنت من منحها إياها منذ فترة يسيرة يا سيدى".

فصاح فان ألدن: "يا إلهى! لا تقولى إنَّها أخذت تلك الماسات معها؟ لقد طلبت منها أن تدعها فى المصرف".

مرة ثانية سعلت ماسون باحتشام وكأن هذا جزء من صفتها كخادمة سيدة شريفة. لكنَّ سعلتها هذه المرة تعبِّر عن الكثير. عبَّرت أبعد مما تعبر عنه الكلمات، تعبِّر عن أنها كانت فى خدمة سيدة تختار سبيلها الخاص.

تمتم فان ألدن: "لقد جنَّت روث بحق، لم يكن أى شخص على وجه الأرض يستطيع السيطرة عليها؟".

قال السيد كاريج، موجهاً حديثه لمايسون: "حتى هذه اللحظة، أظن أنَّ هذا كل شىء، فإذا ذهبت للغرفة المجاورة أسمعوك الأسئلة والإجابات، ووقعت عليها".

انصرفت ماسون بصحبة الموظف؛ فقال فان ألدن فى التو:

"حسناً؟".

فتح السيد كاريج درجاً بمكتبه، وأخرج منه خطاباً، وناوله لفان ألدن.

"كان هذا فى حقيبة السيدة".

قرأ فان ألدن الخطاب الذى جاء فيه:

حبيبتى، سوف أطيعك، سأكون حكيماً، كتوماً، متحفظاً، سأفعل كل ما يكرهه الأحبة. لن تكون باريس اختياراً حكيماً للقاء، لكن أيلز دى أوور ستكون أقصى مكان ممكن، وكونى على يقين من أن خبرنا لن يتسرَّب لأحد. وبذات الشغف والاهتمام الذى لديك للمجوهرات الشهيرة أكتب إليك. سيكون بالطبع مصدر فخر هائل لى أن أرى وأحمل هذه الماسات التاريخية. لقد خصصت لجوهرة قلب النيران مقراً خاصاً. وسوف أعوِّضك سريعاً عن كل سنوات الفراق والبين.

المحب للأبد،

أرماند.

الفصل الخامس عشر

دوق لا روش

قرأ فان ألدن الخطاب فى صمت؛ فاحمرَّ وجهه غضباً، وشاهد الجميع أوردته تنتفض فى جبهته، ويداه تنقبضان بشدة على نحو غير واع. أعاد الخطاب دون كلمة واحدة. كان السيد كاريج ينظر ممعناً فى اتجاه مكتبه، ونظرُ السيد كوكس كان مثبتاً باتجاه السقف، أمَّا السيد بوارو فكان يمسح برفق بقعة غبار على كمِّ معطفه. لم يقدم أى منهم على النظر فى وجه فان ألدن.

كان السيد كاريج - بحكم وضعه وواجبه - هو من بدأ طرق الحديث فى هذا الموضوع المشين.

غمغم قائلاً: "لعلَّك يا سيدى تعلم من كتب هذا الخطاب؟".

فقال فان ألدن متثاقلاً: "نعم، أعلم".

فسأل القاضى: "فمن هو؟".

"وغد يدعو نفسه دوق لاروش".

ساد الصمت لحظات، ثم مال بوارو نحو مكتب القاضى، وأخذ يعدِّل وضع مسطرة على مكتبه، متوجهاً بالحديث مباشرة إلى المليونير.

"سيد فان ألدن، نحن جميعاً نقدِّر مدى الألم الذى تعانيه بحديثك فى أمور كهذه، لكن صدقنى سيدى، هذا ليس وقت مداراة. فإن أردت للعدالة أن تتحقق؛ فلابد من أن نعلم كل شىء. ولو فكرت قليلاً؛ لأدركت بنفسك هذه الحقيقة".

صمت فان ألدن لثوان، ثم أومأ كارهاً بالإيجاب.

ثم قال: "أنت محق تماماً سيد بوارو، وبقدر ألم هذا الحديث، فليس لى أن أكتم شيئاً".

تنهَّد الضابط فى ارتياح، وارتدَّ القاضى إلى ظهر كرسيه وعدَّل النظَّارة على أنفه الطويل الدقيق.

ثم قال: "أرى أن تحكى لنا القصة على طريقتك، سيد فان ألدن".

"لقد بدأت هذه القصة منذ إحدى عشرة أو اثنتى عشرة سنة – فى باريس. كانت ابنتى شابة صغيرة فى حينها، وكانت فى أوج حماقتها، وأفكارها الرومانسية، ككل بنات سنِّها، ودون أن أدرى تعرَّفت على ذلك المدعو دوق لا روش. ولعلكم سمعتم به؟".

فأومأ الضابط وبوارو بالموافقة.

تابع فان ألدن حديثه: "إنه يدعو نفسه دوق لا روش، لكنى أشك كل الشك إن كان له الحق فى هذا اللقب".

فوافقه الضابط بقوله: "لن تجد اسمه فى تصنيف جوثا".

قال فان ألدن: "هذا ما اكتشفته، إنَّ الرجل كان وغداً حسن الطلعة، حسن الإقناع، وذا تأثير عجيب على النساء. لقد افتتنت به روث، لكن سرعان ما وضعت أنا حداً لهذه العلاقة برمتها؛ فلم يكن الرجل أكثر من محتال".

قال الضابط: "أنت محق تماماً؛ فالرجل معروف لدينا. لو كان الأمر ممكناً لقبضنا عليه وأوثقنا قياده من زمن، لكن للأسف، هذا ليس سهلاً؛ فالرجل داهية، ودائماً ما يقيم علاقاته بنساء من الطبقة العليا ذات المكانة فى البلاد. فإن حصل منهن على المال تحت ادعاءات زائفة، أو بداعى الابتزاز؛ فإنهن لا يدَّعين عليه فى القضاء. فمن المحال لهن أن يظهرن أمام الناس فى موضع الحمقى، فى الوقت الذى يملك هو تأثيراً عجيباً عليهن".

قال المليونير متثاقلاً: "هذا صحيح. حسن، كما قلت لك، فقد قطعت هذه العلاقة على نحو حاد. أخبرت روث بحقيقته، ولم يكن أمامها سوى تصديقى. وحسب ما كنت أعلم، كانت تلك هى النهاية، لكننى قبل أسبوع واحد، فوجئت بأن ابنتى واصلت علاقتها بهذا الرجل. كانت تقابله باستمرار فى لندن وباريس، وقد اعترضت لديها على حماقتها هذه؛ لأنها - وتحت إلحاحى - كانت تتجهز لرفع دعوى طلاق ضد زوجها".

غمغم بوارو فى نعومة قائلاً، وعيناه فى اتجاه السقف: "هذا مثير".

فنظر إليه فان ألدن فى حدة، ثم تابع..

"أوضحت لها وجه الحمق فى متابعتها ملاقاة هذا الرجل فى هذه الظروف. وظننت أنها وافقتنى".

سعل القاضى فى لطف.

ثم قال: "لكن وفق هذا الخطاب – " ثم توقَّف.

تدلَّى فك فان ألدن على نحو ربع وجهه.

"أعلم هذا. ولا داعى لتلطيف الكلام؛ فرغم سوء ما جرى، فإن علينا مواجهة الحقائق. يبدو واضحاً أنَّ روث كانت ترتِّب للذهاب إلى باريس ولقاء دوق لا روش هناك، ولابد أنها كتبت له مقترحة تغيير مكان اللقاء".

فقال الضابط متدبِّراً: "فى جزر أوور، وهى قبالة هيريس تماماً، وهى بقعة نائية ومثالية".

فأومأ فان ألدن.

ثم تعجَّب فى مرارة قائلاً: "ياإلهى! كيف تكون روث بهذه الحماقة. كل هذا الحديث عن المجوهرات! لا ريب أنَّه كان يسعى خلف الماسات منذ البداية".

فقال بوارو: "هناك ماسات شهيرة، وهى فى الأساس جزء من التاج الملكى الروسى، وهى ماسات نادرة فى وجودها، وقيمتها مذهلة، ثم سرت شائعة بأنَّ تلك الماسات استقرَّت لدى أمريكى؛ فهل لنا أن نخلص إلى أنك سيدى من اشتريت هذه الماسات؟".

فقال فان ألدن: "نعم، لقد انتقلت ملكيتها إلىَّ منذ عشرة أيام".

"عفواً سيدى، هل فاوضت فى أمر شرائها بعض الوقت؟".

"ما يزيد قليلاً على شهرين. لماذا؟".

فقال بوارو: "هذه أمور يذيع انتشارها؛ فهناك الكثير ممن يقتفون آثار المجوهرات".

فسرى تشنُّج عصبى بوجه الآخر.

قال بانكسار: "أذكر أننى قلت لروث متفكِّهًا، أن تأخذنى معها إلى الريفييرا؛ فأنا لا أطيق فقدها وسرقة الماسات فى الوقت ذاته. يا إلهى! لكم يقول المرء أقوالاً لا يحلم أو يفكِّر قط بأنها ستصبح حقيقة".

سرى صمت متعاطف من الآخرين، قطعه بوارو وتحدَّث فى لهجة محايدة.

"دعنا نرتِّب ما لدينا من حقائق بنظام ودقة؛ فوفق نظرتنا الحالية، يعلم دوق لا روش بشرائك لهذه المجوهرات. وبخطة بسيطة، استطاع إقناع السيدة كيترينج بأن تحضر الماسات معها. وكان هو الرجل الذى رأته ماسون على متن القطار فى باريس".

فأومأ الثلاثة الآخرون فى إيجاب.

"لقد كانت السيدة مندهشة من لقائه، لكنه عالج الأمر على عجل. أُثنِيت مايسون من الطريق، وطُلِب العشاء فى الغرفة. وقد علمنا من موظف القطار أنه رتَّب سرير الحجرة الأولى، دون أن يدخل الثانية؛ حيث كان يختبئ ذلك الرجل. حتى ذلك الحين، كان اختباء الدوق أمراً مثيراً للعجب؛ فلم يكن يدرى بوجوده سوى السيدة، وقد تحاشى حذراً أن ترى الخادمة وجهه. فكل ما استطاعت ملاحظته، أنه كان طويلاً وأسمر. لقد كان غامضاً تماماً. لقد أصبحا وحدهما والقطار مندفع فى الليل. لم تسمع صرخة، أو عراكاً؛ لأن الرجل - كما كانت تظن السيدة - حبيبها".

استدار برفق نحو فان ألدن.

"لا شك يا سيدى أنَّ الموت كان لحظياً، سنتجاوز ذلك سريعاً. أخذ الدوق علبة المجوهرات التى كانت فى متناوله. وبعد قليل، توقَّف القطار حال وقوفه فى ليون".

أومأ السيد كاريج فى إيجاب.

"بالضبط. فبدون ظهور الموظف، يكون من السهل على الرجل مغادرة القطار دون أن يراه أحد، وسيكون من السهل عليه أن يأخذ القطار العائد إلى باريس أو لأى مكان يود. وهكذا تعتبر الجريمة كسرقة قطارات عادية. أما بالنسبة للخطاب الذى وُجد فى حقيبة السيدة، فما كان أن يتذكره الدوق".

فقال الضابط: "لقد فاته أن يفتِّش الحقيبة".

"لا شك أنه ظنَّ أنَّ السيدة قد أعدمته. اعذرنى يا سيدى؛ فهى حماقة شديدة منها أن تحتفظ به".

قال بوارو: "لكنها حماقة لم ينتبه إليها الدوق".

"هل تعنى؟".

"أعنى أننا جميعاً متفقون على شىء واحد، أنَّ دوق لا روش يهتم بشىء واحد فقط وهو: النساء. والطريقة التى يعرف بها نساءه تجعله لا يتوقع أن تحتفظ السيدة بخطابه هذا!".

فقال القاضى، متشككاً: "نعم – نعم، هناك حكمة فى كلامك. لكن فى ظروف كهذه، لا يكون الرجل - كما تعلم - مسيطراً تماماً على نفسه؛ فهو لا يفكِّر بهدوء. عزيزى، لو أنَّ المجرمين يفكرون بهذه الحكمة، ما استطعنا القبض عليهم".

فابتسم بوارو.

فقال الآخر: "تبدو لى القضية واضحة، لكنها صعبة الإثبات. فالدوق هدف مراوغ، وإذا لم تتعرف عليه الخادمة ـــــــ".

فقال بوارو: "وهذا غير محتمل فى الغالب".

قال قاضى التحقيقات وهو يحك ذقنه: "هذا صحيح، سيكون ذلك صعباً".

قال: "هذا لو كان قد اقترف الجريمة ـــــ". فقاطعه السيد كوكس.

"لو – تقول لو؟".

"نعم سيدى، أقول لو".

فنظر إليه الآخر بحدة وقال: "أنت محق. نحن نسرع فى تحليلنا كثيراً؛ فمن المحتمل أن يكون لدى الدوق حجة غياب. وحينها سنبدو كالحمقى".

فأجابه بوارو: "هذا على سبيل المثال، أمر لا قيمة له مطلقاً؛ فطبيعى أنه لو كان الفاعل؛ لتدبر أمر حجة الغياب. فرجل بخبرة الدوق لن يتجاهل الاحتياطات الواجبة، لكنى قلت لو، لسبب محدد".

هز بوارو سبابته وقال: "النفسية".

"ماذا؟".

"النفسية هى سر الجريمة. فلعل الدوق رجل نذل، ولعله محتال، ولعله رجل يبتزُّ النساء. ولعله دبَّر لسرقة مجوهرات السيدة. لكن هل هو من النوع الذى يقدم على القتل؟ أنا أقول لا؛ فالدوق هو نوع من الرجال يكون جباناً فى كثير من الأحيان، لا يخاطر، يلعب فى النطاق الآمن، الدنىء، أو ما يدعوه الإنجليز، اللعبة القذرة؛ أمَّا بالنسبة للقتل، فلا وألف لا!"، وجعل يهز رأسه فى غير رضا.

لكن القاضى لم يبد متفقاً معه.

فقال بتعقُّل: "يأتى دائماً اليوم الذى يفقد فيه هؤلاء عقولهم ويذهبون لما أبعد من ذلك. ولا شك أنَّ هذا ما حدث فى حالتنا هذه. ودون رغبة منِّى فى الاختلاف معك يا سيد بوارو ـــــــ".

فبادره بوارو موضحاً: "هذا مجرد رأى. القضية بالطبع بين يديك، ولك أن تفعل ما تراه مناسباً".

فقال السيد كاريج: "إننى قانع بأن دوق لا روش هو من يجب النيل منه، هل تتفق معى يا حضرة مندوب الشرطة؟".

"تماماً".

"وأنت يا سيد فان ألدن؟".

فقال المليونير: "نعم؛ فهذا الرجل شرير لأبعد حد، ولا شك فى ذلك".

قال القاضى: "سيكون من الصعب للأسف أن نحضره، لكننا سنبذل جهدنا، وسنبدأ بإرسال التعليمات على الفور".

فقال بوارو: "اسمح لى بالمساعدة، ولن تجد صعوبة فى لقائه".

حدَّق إليه الرجال الثلاثة، فابتسم الرجل الضئيل.

وقال شارحاً: "عملى هو معرفة الأشياء. إنَّ الدوق رجل ذكى، وهو الآن ينزل بفيلا قام باستئجارها، وهى فيلا مارينا فى أنتيبس".

الفصل السادس عشر

بوارو يحقِّق فى القضية

نظر الجميع باحترام إلى بوارو، لا شك أنَّ الرجل قد تفوَّق بشدة هذه المرة، ضحك الضابط وصاح قائلاً: "إننا نتعلم عملنا منك. السيد بوارو يعرف أكثر مما تعرف الشرطة".

نظر بوارو باتجاه السقف وبدا فى عينيه الرضا، برغم أنه يتصنع التواضع.

غمغم قائلاً: "ماذا أفعل، تلك هوايتى، أن أعلم خفايا الأمور. وطبيعى أنَّ لدىَّ من الوقت ما يكفى لمعرفة الخبايا، وإننى لا أتعب فى سبيل ذلك".

قال الضابط، هازاً رأسه: "أمَّا بالنسبة لى ـــــــ".

وقام بإشارة متكلَّفة ليبدى مدى كثرة الأعباء التى على كاهله.

استدار بوارو فجأة نحو فان ألدن.

"هل تتفق يا سيدى مع هذا الرأى؟ هل ترى أنَّ الدوق هو القاتل؟".

"بالطبع، يبدو الأمر كذلك – نعم أرى ذلك بالطبع".

بدا فى جوابه حذر أو تكتم من نوع ما؛ مما جعل القاضى ينظر نحو الأمريكى فى ارتياب. كان فان ألدن مقتنعاً بتصوره للجريمة لكنه بدا كمن يبذل جهداً لرفض كل انطباع مسبق.

فسأل: "ماذا عن زوج ابنتى؟ هل أعلمتموه بالأخبار؟ هو فى نيس حسب علمى".

تردَّد الضابط ثم قال بتحفظ شديد: "يبدو أنك لا تعلم أنَّ السيد كيترينج كان هو الآخر على متن القطار فى تلك الليلة؟".

فأومأ المليونير.

وأقرَّ فى إيجاز: "علمت قبل قدومى من لندن مباشرة".

فتابع الضابط: "لقد أخبرنا أنه لم تكن لديه فكرة بأن زوجته كانت على القطار".

فقال فان ألدن فى تجهُّم: "أنا واثق من ذلك، كان ليصدم بشدة لو أنه قابلها على متن القطار مصادفة".

فنظر الرجال الثلاثة نحوه فى تساؤل.

فقال فان ألدن بغضب: "أنا لن أجمِّل الحقائق، لا أحد يعلم ما كان على ابنتى المسكينة تحمُّله. فلم يكن ديريك كيترينج وحده. بل كان معه سيدة".

"حقاً؟".

"إنها ميريلى – الراقصة".

تبادل السيد كاريج والضابط النظرات كما لو كانا يؤكدان شيئاً تحدَّثا عنه من قبل. ثم مال السيد كاريج على ظهر كرسيه وعقد بين يديه، وركَّز بصره نحو السقف.

ثم غمغم ثانية: "حقاً! هناك شائعات تدور عن تلك السيدة".

فقال السيد كوكس: "إنَّ هذه السيدة ذات سمعة سيئة".

غمغم بوارو بصوت خافت: "وهى أيضاً رفيقة مكلِّفة جداً".

احمرَّ وجه فان ألدن بشدة؛ فمال للأمام وضرب الطاولة براحة يده.

صاح قائلاً: "اسمعوا جميعاً، إن زوج ابنتى مخادع لعين!".

جعل ينقل بصره بينهم، ثم تابع: "أوه، لا أدرى لعله وسيم، جذَّاب، سهل المعشر. لقد خدعنى بمظهره هذا ذات يوم. وأظن أنه ادَّعى انفطار قلبه حزناً حين أخبرتموه بما جرى – هذا إن لم يكن قد علم من قبل ذلك".

"أوه، لقد بدا الأمر مفاجأة بالنسبة له. لقد ارتبك تماماً".

"ياله من منافق لئيم! لقد ادَّعى الحزن الشديد، أليس كذلك؟".

فقال الضابط بحذر: " لا، لا يمكننى قول ذلك فى الحقيقة. أليس كذلك يا سيد كاريج؟".

جمع القاضى بين أطراف أصابعه معاً، وأبقى عينيه نصف مغلقة.

ثم قال: "الصدمة، الذهول، الفزع – هذا صحيح ربما. لكن الحزن الشديد – فلا، لا أظن ذلك".

عاد بوارو للحديث ثانية.

"اسمح لى بالسؤال يا سيد فان ألدن، هل يستفيد السيد كيترينج من وفاة زوجته؟".

فقال فان ألدن: "سيستفيد بما يقارب المليونين".

"مليونى دولار؟".

"بل مليونى جنيه إسترلينى؛ فقد اقتطعت هذا المبلغ لروث باسمها فى يوم زفافها. وهى لم تكتب وصية، ولم تخلف أطفالاً، وبهذا يئول المال لزوجها".

فتابع بوارو: "والذى كانت على وشك الطلاق منه، نعم – بالضبط".

استدار نحوه الضابط فى حدة.

وقال: "هل تعنى - ؟".

فقال بوارو مقاطعاً: "أنا لا أعنى شيئاً، أنا فقط أرتِّب ما لدينا من حقائق".

نظر نحوه فان ألدن وقد أيقظ كلامه أفكاراً فى ذهنه.

نهض الرجل واقفاً على قدميه.

ثم قال بأدب، وهو ينحنى للسيد كاريج: "لا أظن أنَّ لدى المزيد مما يمكننى المساعدة به يا سيدى القاضى، لكن أبقنى على اطلاع بمجرى الأحداث لو تفضَّلت".

"بالطبع – بالطبع".

نهض فان ألدن هو الآخر.

"ما عدتم بحاجة لى الآن، أليس كذلك؟".

"لا يا سيدى. لقد حصلنا على ما نحتاج إليه من معلومات حتى الساعة".

"إذن، فسوف أصطحب السيد بوارو فى السير قليلاً، إذا لم يكن لديه مانع؟".

فقال الرجل الضئيل منحنياً: "يشرِّفنى ذلك يا سيدى".

أشعل فان ألدن سيجاراً ضخماً، بعد أن عرض أولاً على بوارو، الذى رفض، وأشعل إحدى سيجاراته الصغيرة. قوة الشخصية المهولة التى تميِّز فان ألدن والتى يبدو عليها كل يوم - استقرت له ثانية. وبعد لحظات من الصمت فى البداية، بدأ المليونير الحديث:

"هل حقاً تركت وظيفتك يا سيد بوارو؟".

"نعم يا سيدى، أنا الآن أستمتع بحياتى".

"لكنك تساعد الشرطة فى هذه القضية؟".

"سيدى، لو أنَّ طبيبًا كان يسير بالشارع، ووقعت حادثة، فهل سيقول لقد اعتزلت عملى، وسأتابع سيرى، فى الوقت الذى ينزف أحدهم بالشارع حتى الموت عندِ قدميه؟ لو أننى كنت فى نيس، وأرسلت لى الشرطة تطلب مساعدتى، لرفضت. لكن هذه القضية أُلقيت فى طريقى".

فقال فان ألدن: "لقد كنت فى موقع الحدث. لقد فحصت الحجرة، أليس كذلك؟".

فأومأ بوارو بالإيجاب.

"ولا شك أنك وجدت فيها ما أوحى لك بأشياء معينة؟".

فقال بوارو: "ربما".

فقال فان ألدن: "لعلك خلصت لما أراه أنا؟ يبدو لى أنَّ الاتهام يسير بوضوح ناحية دوق لا روش، لكننى لست أحمق؛ فقد راقبتك طوال الساعة الماضية، وأدركت أنك لسبب ما لم تتفق مع هذه الرؤية؟".

فهز بوارو كتفيه.

"لعلى على خطأ".

"وهذا ما يجعلنى أطلب منك معروفاً. هل تقبل العمل فى هذه القضية لحسابى؟".

"لحسابك أنت، بشكل شخصى؟".

"هذا ما أعنى بالضبط".

صمت بوارو لحظات، ثم قال:

"هل تدرك معنى ما تطلبه منِّى؟".

فقال فان ألدن: "أظن ذلك".

فقال بوارو: "حسناً. أنا أقبل، لكن فى هذه الحالة، لابد أن تجيبنى بصراحة عن أسئلتى".

"بالطبع، هذا أمر بديهى".

تغيَّر أسلوب بوارو، وبدا خشناً وعملياً على نحو مفاجئ.

ثم قال: "بالنسبة لما يتعلَّق بأمر الطلاق، هل كانت هذه فكرتك؟".

"نعم".

"متى؟".

"منذ عشرة أيام؛ فقد تلقَّيت منها خطاباً تشكو فيه من سلوك زوجها؛ فبيَّنت لها أنَّ الطلاق هو الحل الوحيد".

"فى أى جانب من سلوك زوجها كانت تشكو؟".

"كان يُشاهَد برفقة امرأة سيئة السمعة – تلك التى دار عنها الحديث – ميريلى".

"تلك الراقصة، آه ها! وقد عارضت السيدة كيترينج ذلك، فهل كانت هى مخلصة له؟".

فقال فان ألدن متردداً: "لا يمكننى قول ذلك".

"أتريد القول إنها لم تعانِ لحبها له، بل عانت لكبريائها؟".

"نعم، ربما كان هذا توصيفاً صحيحاً".

"أظن أنَّ الزواج لم يكن سعيداً منذ البداية؟".

فقال فان ألدن: "ديريك كيترينج رجل فاسد بالكلية. إنه غير قادر على إسعاد أية امرأة".

"إنَّه، كما تقولون فى إنجلترا رجل ردىء، أليس كذلك؟".

فأومأ فان ألدن.

"حسنًا. أنت إذن نصحت السيدة بأن تسعى إلى الطلاق، ووافقت، واستشرت المحامين. فمتى علم السيد كيترينج بما تنتويه؟".

"أرسلت إليه بنفسى، وبيَّنت له ما أنا مقدم على فعله".

فقال بوارو بهدوء: "فماذا قال؟".

امتقع وجه فان ألدن لهذه الذكرى.

"لقد كان وقحاً بشكل لا يُتصور".

"اعذرنى فى السؤال سيدى، لكن هل أتى على ذكر دوق لا روش؟".

فقال الآخر بغير رضا: "لم يذكره بالاسم، لكنه ألمح لمعرفته بالأمر".

"وماذا كان موقف السيد كيترينج المالى فى ذلك الوقت؟".

فسأله فان ألدن بعد لحظات تردد: "ولماذا تفترض أننى على معرفة بموقفه المالى؟".

"بدا لى أنك ستفكِّر فى الاستعلام عن هذا الأمر".

"حسنًا – أنت محق تماماً، لقد فعلت. واكتشفت أن كيترينج كان مفلساً".

"والآن، ها هو يرث مليونى جنيه إسترلينى! حياة عجيبة، أليس كذلك؟".

فنظر إليه فان ألدن بحدَّة.

"ماذا تعنى؟".

فقال بوارو: "أنا أستخلص العبر. السيد كيترينج - بالتأكيد - لم يرض بإنهاء أمر الطلاق دون صراع، أليس كذلك؟".

لم يجب فان ألدن مباشرة، ثم قال:

"أنا لم أكن أعرف بالضبط طبيعة نواياه".

"فهل أجريت أية اتصالات أخرى معه؟".

مرة أخرى صمت فان ألدن لحظات، ثم قال:

"لا".

فتوقَّفِ بوارو فِجأة، وِخلع قبَّعته، ومد يده مصافحاً.

"أتمنّى لك يوماً طيباً سيدى، لا يمكننى أن أساعدك بشىء".

فقال فان ألدن بغضب: "ما الذى ترمى إليه؟".

"إن لم تنو إخبارى بالحقيقة؛ فلا يمكننى فعل شىء".

"لا أفهم ما تعنيه".

"بل أظنُّك تعرف ما أعنيه. أنت تعلم يقيناً سيد فان ألدن، أننى أعلم متى يكون المرء كتوماً".

فقال المليونير: "حسنًا، إذن. أعترف أننى لم أذكر الحقيقة فى جوابى عن سؤالك الأخير. لقد تواصلت مرة أخرى مع زوج ابنتى".

"حسنًا، وما كانت طبيعة هذا الاتصال؟".

"للدقة، لقد أرسلت مساعدى الماجور "نايتون"؛ ليقابله، وأمليته توجيهاتى بأن يعرض عليه مبلغاً قدره مائة ألف جنيه إسترلينى تدفع نقداً فور إتمام الطلاق دون نزاع قضائى".

فقال بوارو فى استحسان: "مبلغ ممتاز، وماذا كان جواب السيد كيترينج؟".

فرد المليونير باقتضاب: "أرسل لى فيما معناه أن أذهب للجحيم".

فقال بوارو: "حقاً!".

لم يظهر أى مشاعر من أى نوع، وفى الحال انخرط فى تقرير الحقائق بشكل منهجى.

"لقد أخبر السيد كيترينج الشرطة بأنه لم ير أو يحدِّث زوجته على القطار منذ أن خرج من إنجلترا. هل تميل لتصديق إفادته تلك، سيدى؟".

فقال فان ألدن: "نعم أصدِّق. ولعله اتخذ تدابير معينة لئلا يلاقيها".

"لماذا؟".

"بسبب مرافقة تلك السيدة له".

"تقصد ميريلى؟".

"نعم".

"وكيف علمت بوجودها معه؟".

"لقد كلَّفت رجلاً بمراقبته لمصلحتى، وقد أخبرنى بأنهما غادرا معاً على متن القطار".

فقال بوارو: "فى هذه الحالة - وكما سبق وقلت - إنَّه حاول ألا يلتقى بالسيدة كيترينج".

ثم صمت الرجل الضئيل، ولم يحاول فان ألدن قطع حبل أفكاره

الفصل السابع عشر

السيد المهذب

فى صباح اليوم التالى سأل بوارو خادمه: "هل ذهبت إلى الريفييرا من قبل يا جورج؟".

كان جورج هذا رجلاً إنجليزياً أصيلاً، وكان صاحب وجه متبلِّد على نحو ما.

"نعم يا سيدى. لقد ذهبت إلى هناك منذ عامين حين كنت فى خدمة اللورد إدوارد فرامتون".

فغمغم سيده قائلاً: "والآن أنت فى خدمة بوارو. يالهذه الحياة!".

لم يعلق الخادم على تلك الملاحظة الأخيرة، وبعد فترة صمت مناسبة، سأله:

"أترغب فى سترة التمشية البنِّية يا سيدى؟ الريح باردة بعض الشىء هذا اليوم".

فقال بوارو معترضاً: "ثمة بقعة دهن على كمِّها، سقطت فى أثناء تناولى الغداء فى فندق الريتز الثلاثاء الماضى".

فقال جورج فى أدب: "لم تعد موجودة يا سيدى؛ فقد أزلتها".

فقال بوارو: "حسن جداً، أنا مسرور منك يا جورج".

"شكراً يا سيدى".

وبعد صمت قليل، قال بوارو فى صوت حالم:

"افترض يا جورج أنك ولدت فى ذات الطبقة الاجتماعية التى كانت لسيدك السابق اللورد "إدوارد فرامتون" وكنت متزوجاً - وأنت بلا مال - من امرأة ثرية، لكن تلك الزوجة طلبت الطلاق؛ ولأسباب وجيهة جداً، فماذا أنت فاعل؟".

فردَّ جورج: "سأكافح يا سيدى من أجل إثنائها عن قرارها هذا".

"بوسائل سلمية أم عنيفة؟".

فقال جورج: "اسمح لى يا سيدى، السيد المهذب لا يسلك مسالك تجار وايتشابل؛ فهو لن يتصرَّف أى تصرف دنىء".

دق الباب؛ فذهب جورج وفتحه قليلاً، وسرت غمغمة خافتة، ثم استدار الخادم نحو بوارو.

"رسالة يا سيدى".

أخذها بوارو. كانت من السيد كوكس مأمور الشرطة.

"نحن على وشك استجواب دوق لا روش، ويرجو القاضى حضورك".

"أحضر سترتى سريعاً يا جورج، علىَّ أن أسرع".

بعد ربع ساعة، دخل بوارو حجرة قاضى التحقيقات بسترته البنِّية وقد نُظِّفت تماماً. كان السيد كوكس موجوداً بالفعل؛ فقام هو والسيد كاريج بتحيَّة بوارو فى أدب.

غمغم السيد كوكس قائلاً: "هذه القضية تبدو محبطة بعض الشىء".

"يبدو أنَّ الدوق قد وصل إلى نيس فى اليوم السابق على الجريمة".

فرد بوارو قائلاً: "إن كان هذا صحيحاً؛ فهذا يعدِّل مسار القضية أمامك".

تنحنح السيد كاريج، ثم قال: "لا ينبغى أن نقبل حجة غيابه هذه دون فحص شديد"، ثم دق جرساً على المكتب.

بعد ثوان دخل رجل طويل يرتدى ملابس داكنة أنيقة، وسيماه تشى بالعجرفة. كان الرجل أرستقراطى الهيئة جداً، حتى إن أحداً لم يكن يجرؤ على تخيل أن أباه كان مجرد بائع حنطة فى بانت برغم أن هذه كانت الحقيقة؛ فبنظرة واحدة إليه، يمكنك الجزم بأنَّ عدداً هائلاً من أسلافه قد أُعدِموا بالمقصلة فى أثناء الثورة الفرنسية.

قال الدوق باستخفاف: "لقد حضرت أيها السادة، هل لى أن أعرف سبب استقدامى؟".

فقال القاضى بأدب: "تفضَّل بالجلوس يا سيدى. إنَّ الأمر يتعلَّق بوفاة السيدة كيترينج".

"وفاة السيدة كيترينج؟ أنا لا أفهم شيئاً".

"لقد كنت – أأأ – على معرفة بالسيدة يا سيدى، أليس كذلك؟".

"فعلاً، كنت على معرفة بها. فما شأن ذلك بما جرى؟".

ملصقاً نظَّارته بعينيه، جعل الدوق يجول بنظرة باردة بين الحاضرين، وأدامها على بوارو الذى كان ينظر إليه نظرة بريئة معجبة، وهو ما كان يرضى غرور الكونت. استرخى السيد كاريج على

ظهر كرسيه، وتنحنح.

"لعلك لا تعلم يا حضرة الدوق أنَّ السيدة كيترينج قد قُتِلَت".

"قُتِلَت؟! ياله من خبر مفجع!".

رسم على وجهه مشاعر الدهشة والحزن على نحو ممتاز؛ فبدت طبيعية تماماً.

فتابع السيد كاريج: "لقد تمَّ خنق السيدة كيترينج بين باريس وليون، وسُرِقَت مجوهراتها".

فصاح الدوق بتأثُّر: "ياله من جرم شنيع! لابد للشرطة أن تضع حداً للصوص القطارات هؤلاء؛ فلا أحد يشعر بالأمان هذه الأيام".

فتابع القاضى حديثه: "لقد وجدنا بحقيبة يد السيدة خطاباً منك. لقد كانت ترتِّب - على ما يبدو- للقائك؟".

هزَّ الدوق كتفيه وبسط ذراعيه.

قال مصارحاً: "ما من جدوى للمواراة؛ نحن جميعاً رجال، وأنا أقر لكم سراً بهذه العلاقة".

فقال السيد كاريج: "لقد قابلتها فى باريس وتابعت الرحلة معها، أليس كذلك؟".

"كان ذلك هو الترتيب الأولى، لكن تمَّ تغييره وفق رغبة السيدة. وأصبح علىَّ مقابلتها فى هيريس".

"ألم تقابلها على متن القطار فى جارى دى ليون مساء الرابع عشر من هذا الشهر؟".

"على العكس؛ فقد وصلت إلى نيس فى صباح ذلك اليوم؛ ولذلك يكون لقائى بها إذن مستحيلاً".

قال السيد كاريج: "تماماً، تماماً، لكن من الناحية الشكلية، سيكون عليك أن تقدِّم لى تقريراً مفصلاً بتحركاتك خلال مساء ذلك اليوم".

ففكَّر الدوق لحظات.

"تناولت عشائى فى مقهى باريس بمونت كارلو. بعد قليل ذهبت إلى لو سبورتنج، وهناك ربحت بضعة آلاف من الفرنكات"، ثم هزَّ كتفيه، وتابع: "ثم عدت إلى المنزل فى الواحدة صباحاً تقريباً".

"عذراً يا سيدى، لكن كيف عدت إلى المنزل؟".

"فى سيارتى الخاصة ذات المقعدين".

"ألم يكن معك من أحد؟".

"لا، لم يكن معى أحد".

"هل لك شهود يدعِّمون إفادتك هذه؟".

"بلا شك هناك العديد من أصدقائى الذين رأونى ذاك المساء، لكنى تناولت عشائى بمفردى".

"هل كان خادمك هو من فتح لك حين عدت للفيلا؟".

"بل دخلت باستخدام مفتاحى".

فغمغم القاضى: "آه!".

ثم عاد ليدق جرس مكتبه. فُتِح الباب، ودخل الساعى.

فقال السيد كاريج: "أحضر الخادمة، ماسون".

"حسنًا، سيدى القاضى".

أُدْخِلَت أدا ماسون.

"هلا تفضَّلت يا آنسة، وتذكرت إن كان السيد هو من كان فى قمرة سيدتك بباريس أم لا".

فنظرت المرأة نظرة طويلة فاحصة فى وجه السيد الذى تصوَّر بوارو أنه غير مستريح لهذا الفحص.

ثم قالت ماسون أخيراً: "لا يمكننى الجزم بأنه هو يا سيدى؛ فحيث إننى لم أر منه سوى ظهره، فمن الصعب الجزم. لكنى أظنُّه هو".

"لكنك لست موقنة؟".

فقالت ماسون على مضض: "لا، لا،لست متأكدة".

"ألم ترى السيد من قبل فى شارع كارسون؟".

فهزت ماسون رأسها نافية.

ثم استطردت قائلة: "فى الغالب لا أرى من ينزل بشارع كارسون، إلا أولئك الذين يقيمون بالمنزل".

فقال القاضى بحدة: "حسن جداً".

كان يبدو مُحْبَطاً من ردِّها.

فقال بوارو: "لحظة من فضلكم، ثمة سؤال أود طرحه على الآنسة - لو سمحتم".

"بالطبع يا سيد بوارو؛ لك ما تريد".

فتوجَّه بوارو بكلامه نحو المرأة.

"ماذا جرى للتذاكر؟".

"أى تذاكر يا سيدى؟".

"نعم، تذاكر القطار من لندن إلى نيس. هل كانت بحوزتك، أم بحوزة سيدتك؟".

"كان مع السيدة تذكرة البولمان الخاصة بها، وكانت البقية معى".

"وماذا حدث لها؟".

"أعطيتها لمحصل التذاكر على القطار الفرنسى، وقال إنَّ ذلك هو المعتاد. أرجو أن أكون قد فعلت الصواب يا سيدى؟".

"نعم، كان الصواب، تمام الصواب. إنها مجرد تفاصيل".

فنظر إليه السيد كوكس والسيد كاريج فى فضول. ظلت ماسون واقفة فى ترقُّب لدقيقة أو اثنتين، ثم أومأ لها القاضى بإشارة انصراف؛ فانصرفت. كتب بوارو شيئاً على قصاصة ورق مررها إلى السيد كاريج. قرأها الأخير فاستطال حاجباه.

فقال الدوق فى عجرفة: "حسنًا، أيها السادة، هل ما زلتم فى حاجة لى؟".

فأسرع السيد كاريج قائلاً فى تودُّد شديد: "بالطبع لا؛ فقد انجلى كل ما يتعلق بك فى هذه القضية؛ فطبيعى - أنه فى ضوء الخطاب - كان يتوجَّب علينا سؤالك".

نهض الدوق، والتقط عصاه الأنيقة من زاوية الغرفة، ثم غادر الغرفة فى غلظة.

قال السيد كاريج: "هكذا إذن، لقد كنت محقاَ تماماَ يا سيد بوارو فى أن نشعره أنه ليس مشتبهاَ به. سيقوم رجلان من أتباعنا بمراقبته كظله ليل نهار، فى ذات الوقت الذى سنفحص فيه مصداقية حجة غيابه. وهى لا تبدو لى قوية".

فوافقه بوارو وهو شارد فى أفكاره: "محتمل".

فتابع القاضى: "لقد طلبت من السيد كيترينج أن يأتينا هذا الصباح، ورغم أنه لا يوجد الكثير لنسأله عنه، إلا أنَّ ثمة أمرًا أو اثنين مثيرين للشك فى أمره ـــــ"، ثم توقف، وجعل يحك ذقنه.

فسأل بوارو: "مثل ماذا؟".

"حسنًا" – سعل القاضى – "تلك السيدة التى قيل إنَّه سافر معها – الآنسة ميريلى. لقد أقامت فى فندق، وأقام هو فى آخر. لقد لفتنى ذلك، أمر غريب إلى حد ما".

فقال السيد كوكس: "يبدو لى أنهما كانا حذرين".

فقال السيد كاريج منتصراً: "تماما، وما الذى أرادا أن يحذرا منه؟".

فقال بوارو: "حذرهما يبدو مريباً، أليس كذلك؟".

"بالضبط".

فغمغم بوارو: "ربما يكون لدينا سؤال أو اثنان فى انتظار السيد كيترينج".

فأصدر القاضى توجيهاته، وبعد لحظات دخل ديريك مبتهجاً كالعادة.

فقال القاضى بأدب: "صباح الخير يا سيدى".

فقال ديريك كيترينج بخشونة: "صباح الخير، لقد أرسلت فى طلبى. هل من جديد فى الأمر؟".

"اجلس لو تفضلت".

جلس ديريك بأحد المقاعد ووضع قبَّعته وعصاه على الطاولة.

وسأل بنفاد صبر: "ماذا إذن؟".

فقال السيد كاريج بحذر: "ليس لدينا حتى الآن شىء جديد".

فقال ديريك بطريقة جافة: "جميل جداً، هل أحضرتنى لتخبرنى بذلك؟".

فقال القاضى بحدة: "ظننّا أنك ستود معرفة أى تقدَّم قد يحصل".

"حتى لو لم يكن هناك من تقدُّم".

"ووددنا أيضاً أن نوجِّه لك بعض الأسئلة".

"فاسأل إذن".

"أنت موقن من أنك لم تر أو تحدِّث زوجتك على متن القطار؟".

"لقد أجبت عن ذلك، فعلاً؛ فأنا لم أفعل".

"كانت لديك أسبابك، ولا شك".

فرمَقَه ديريك فى توجُّس.

"لم – أكن – أعلم – أنها – على – متن – القطار".

كان يفصل ويباعد بين كلماته كما لو كان يخاطب رجلاً أبله.

فغمغم كاريج: "هذا ما قلته فعلاً".

فعبس وجه ديريك على نحو خاطف.

"أود أن أفهم ما ترمى إليه يا سيد كاريج، هل تعرف ما الذى أراه؟".

"ما الذى تراه يا سيدى؟".

"أرى أنَّ هناك مبالغة شديدة فى تقدير الشرطة الفرنسية. لابد أنك تعلم بشأن تلك العصابات التى تسطو على القطارات. إنه لأمر مثير للغضب أنَّ شيئاً كهذا يجرى على قطار فاره كهذا، وأن تكون الشرطة الفرنسية عاجزة عن فعل شىء حيال ذلك".

"نحن نعالج هذه المشكلة يا سيدى؛ فلا تخف".

تدخَّل بوارو فجأة فى الحديث، وقد عقد بين أطراف أصابعه، وهو ينظر عامداً إلى السقف: "على حد علمى أنَّ السيدة كيترينج لم تخلف وصية".

فقال كيترينج: "لا أظنّها فعلت، لماذا تسأل؟".

فقال بوارو: "إنها ثروة كبيرة تلك التى ورثتها من ورائها – ثروة كبيرة فعلاً".

رغم أنَّ نظره ظل معلقاً فى السقف، إلا أنَّ بوارو تمكَّن من أن يرى الحمرة التى اعترت وجه كيترينج.

"ما الذى تعنيه؟ ومن أنت بالأساس؟".

فك بوارو عقدة ساقيه، وصرف وجهه عن السقف واستدار به نحو الشاب.

وقال بهدوء: "اسمى هيركيول بوارو، وأنا - تقريباً - أفضل محقق على وجه الأرض. هل أنت على يقين من أنك لم تسمع أو تر زوجتك على القطار؟".

"ما الذى ترمى إليه؟ هل – هل تلمِّح إلى أننى مَنْ قتلها؟".

ثم ضحك فجأة.

"هذا لن يفقدنى أعصابى؛ فهذا محض هراء؛ فلو أننى قتلتها، فما حاجتى لسرقة مجوهراتها؟".

فغمغم بوارو خجلاً: "هذا صحيح، لم تخطر ببالى هذه الفكرة".

فقال ديريك كيترينج: "إن كان ثمة قضية قتل وسرقة واضحة؛ فلأن روث المسكينة اصطحبت تلك الماسات اللعينة معها. ولابد أن خبر حيازتها لتلك الماسات قد شاع. أنا على يقين من أنَّ جرائم كثيرة قد تسببت فيها تلك الماسات من قبل".

نهض بوارو فجأة عن مقعده، وعلا عينيه بريق خاطف. بدا وكأنه كقط امتلأ شبعاً.

وقال: "لدى سؤال آخر، متى كانت آخر مرة رأيت فيها زوجتك؟".

فقال كيترينج مفكراً: "دعنى أتذكَّر، لابد أن ذلك كان – نعم، كان ذلك منذ ثلاثة أسابيع تقريباً. أنا آسف، لا يمكننى تحديد ذلك بالضبط".

فقال بوارو: "لا يهم؛ هذا كل ما أردت معرفته".

فقال كيترينج بصبر نافد: "حسنًا، هل من أسئلة أخرى؟".

كان يتطلَّع إلى السيد كاريج، الذى استرشد ببوارو، والذى أشار عليه بهزة خاطفة من رأسه".

ثم قال بأدب: "لا يا سيد كيترينج، لا أظنُّنا سنزعجك أكثر من ذلك. أتمنَّى لك صباحاً هنيئاً".

فقال ديريك: "ولك مثله"، ثم خرج وصفق الباب خلفه.

مال بوارو إلى الأمام، وتحدَّث فى حدة بمجرد خروج الرجل من الغرفة.

قال بلهجة قاطعة: "أخبرنى، متى تحدَّثت بأمر الماسات أمام السيد كيترينج؟".

فقال السيد كاريج: "لم أتحدَّث عنها معه؛ فلم نعلم بها قط سوى بالأمس من السيد فان ألدن".

"نعم، لكنها ذُكِرت فى خطاب دوق لا روش".

بدا السيد كاريج وقد انزعج.

قال بصوت مشدوه: "أنا بطبيعة الحال لم أتحدث إلى السيد كيترينج فى أمر الخطاب؛ كان هذا ليكون كشفاً غير مبرر فى هذه المرحلة من التحقيق".

مال بوارو للأمام ونقر الطاولة بأصابعه.

ثم سأل بهدوء: "فكيف علم بها إذن؟ لا يمكن أن تكون السيدة هى من أخبرته؛ لأنه لم يرها منذ ثلاثة أسابيع. ويبدو من غير المعقول أيضاً أن يكون السيد فان ألدن أو مساعده هما من أخبراه؛ فحوارهما معه كان فى اتجاهات مغايرة بالمرة؛ إضافة إلى أنه لم ترد للماسات أية إشارات فى الصحف".

نهض بوارو والتقط قبَّعته وعصاه.

وقال مغمغماً: "ومع هذا فصاحبنا يعلم كل شىء عنها؛ فكيف؟".

الفصل الثامن عشر

غداء كيترينج

توجَّه ديريك مباشرة إلى "نيجريسكو"؛ حيث طلب مشروبين وسرعان ما ازدردهما؛ ثم جعل يحدِّق مكتئباً نحو زرقة البحر المتألِّقة. جعل يلحظ المارة على نحو آلى – أولئك العامة الغوغاء، رثو الثياب، لا يرى المرء فيهم ما يدعو أبداً لجذب الانتباه؛ فالمرء لا يكاد يرى شيئاً يلفت الانتباه هذه الأيام. ثم ما لبث أن عدَّل انطباعه الأخير هذا، حين رأى امرأة تجلس على طاولة ليست ببعيدة عنه كثيراً. كانت ترتدى ثوباً يخلط فى روعته بين البرتقالى والأسود، وعلى رأسها قبعة أخفت ملامح وجهها. طلب مشروباً ثالثاً، وعاد يحدق ناحية البحر ثانية، وفجأة انتبه؛ فثمة رائحة عطر مألوفة له أزكمت أنفه، فتطلع، فإذا بذات الرداء البرتقالى الأسود واقفة بجواره. لقد كانت ميريلى. كانت تبتسم تلك الابتسامة الوقحة، المثيرة التى يعرفها.

غمغمت قائلة: "ديريك، ألست مسروراً لمقابلتى؟".

جلست على مقعد بالجانب المقابل من الطاولة.

"لكن عليك أن ترحب بى على الأقل أيها الأحمق".

فقال ديريك: "سرورى بلقائك غير متوقع، متى غادرت لندن؟".

فهزت كتفيها فى لا مبالاة، وقالت:

"منذ يوم أو اثنين".

"وماذا عن البارثنون؟".

"لقد – لا أدرى كيف أقولها – لقد هجرتهم".

"حقاً؟".

"لست ودوداً يا ديريك، هل تنتظر قدوم أحد؟".

"هل تتوقعين أننى كذلك؟".

"لعلك تظن أنَّ لقاءنا ليس من الحكمة بهذه السرعة؟".

حدَّق إليها ديريك، ثم هز كتفيه، وقال بشكل رسمى:

"هل تتناولين غداءك هنا؟".

"بالطبع، سأتناوله معك".

فقال ديريك: "أنا آسف للغاية، لدى ارتباط فى غاية الأهمية".

فقالت متعجِّبة: "حقاً! إنكم مثل الأطفال أيها الرجال. لكنك كالطفل العاق فى تعاملك معى؛ فمنذ ذلك اليوم الذى اندفعت فيه خارجاً من شقتى، وأنت عابس".

فقال ديريك: "عزيزتى، لست أدرى بالضبط ما تتحدثين عنه. لقد اتفقنا فى لندن على أنَّ الجرذان تهجر السفينة الغارقة، وهذا كل شىء".

على الرغم من كلماته اللا مبالية، فقد بدا وجهه منهكاً ومتوتراً. مالت نحوه ميريلى فجأة.

غمغمت قائلة: "لا يمكنك خداعى؛ فأنا أعرف – أعرف ما فعلت من أجلى".

فنظر نحوها بحدة؛ فثمة تضمينات فى صوتها أثارت انتباهه، ثم أومأت له برأسها.

"آه، لا يتملكنَّك الخوف؛ فأنا كتومة. أنت رائع! لقد تحلَّيت بقدر كبير من الشجاعة، لكن مع ذلك، أنا من أوحت لك بالفكرة ذاك اليوم؛ حين قلت لك فى لندن، إنَّ ثمة حوادث تقع هكذا فجأة. لكن، ألست فى خطر الآن، ألا تشك بك الشرطة؟".

"أى شيطانة ـــــ؟".

"شششش!".

ورفعت يداً زيتونية نحيلة، زان إصبعها الخنصر خاتم زمرُّدى ضخم.

"أنت على حق، لا ينبغى أن أتحدث على هذا النحو فى مكان عام كهذا.. لن نتحدَّث فى هذا الأمر ثانية؛ المهم أنَّ مشاكلنا قد انتهت؛ إنَّ حياتنا معاً ستكون رائعة – رائعة بحق!".

ضحك ديريك فجأة – ضحكة فجَّة غير مستساغة.

"إذن فقد عادت الجرذان، أليس كذلك؟ مليونا جنيه تصنع الفارق بلا شك. كان علىَّ أن أدرك ذلك". ضحك ثانية، ثم تابع: "ستساعدينني فى إنفاق هذه الأموال يا ميريلى، أليس كذلك؟ فأنت تعرفين أكثر من أى امرأة كيف يُنفَق المال"، ثم ضحك ثانية.

فصاحت ميريلى: "صه يا ديريك، ماذا أصابك؟ انظر، لقد بدأ الناس يلتفتون بأبصارهم نحوك".

"ما أصابنى؟ سأقول لك ما أصابنى. لقد أنهيت علاقتى بك يا ميريلى، هل تسمعين؟ أنهيتها".

لم يبد على ميريلى ما يتوقع منها من ذهول، بل نظرت إليه دقيقة أو اثنتين، ثم ابتسمت فى نعومة.

"يا لك من طفل! أنت غاضب – مجروح؛ كل هذا لأنى كنت عملية. ألم أكن أقول لك دوماً إننى مغرمة بك؟".

ثم مالت للأمام.

"لكنى أعرفك جيداً يا ديريك، انظر إلىَّ – أترانى، إنَّ ميريلى هى من تحدِّثك. تلك التى لا تستطيع العيش بدونها. لقد كنت أحبك من قبل، وأحبك الآن أكثر مائة مرة. وسأحيل حياتك إلى نعيم – نعيم حقيقى. ليس هناك امرأة تفعل ما تفعله ميريلى".

كانت عيناها مثبتتين فى عينيه مباشرة. رأت الشحوب يعترى وجهه، وأنفاسه تتلاحق، ابتسمت فى نفسها راضية؛ فهى تدرك أثر سحرها وجبروتها على الرجال.

قالت بلطف: "لقد سوينا الأمر، والآن يا ديريك، هل ستطلب لى الغداء؟".

"لا".

شهق فى حدة ثم نهض على قدميه.

"أنا آسف، لكننى أخبرتك – لدى موعد مهم".

"هل تتناول غداءك مع أخرى؟ لا أصدق".

"سأتناول غدائى مع هذه السيدة، هناك".

ثم اندفع مباشرة نحو سيدة ترتدى ثوباً أبيض، دخلت المكان لتوِّها. وناداها لاهثاً إلى حد ما.

"آنسة جراى، هلا – هلا تفضلت بتناول الغداء معى؟ لقد تقابلنا فى منزل السيدة تامبلين، أتذكرين؟".

نظرت نحوه كاثرين دقيقة أو اثنتين بعينيها الرماديتين الحالمتين اللتين تشيان بالكثير.

فقالت بعد لحظات من الصمت: "شكراً لك، يسعدنى ذلك جداً".

الفصل التاسع عشر

زائر غير متوقَّع

فرغ دوق لا روش لتوه من عشائه الذى تضمَّن (أومليت بالأعشاب، وحساء بيرنس باللحم البقرى، وكعكًا). نهض عن طاولته وهو يمسح شاربه الأسود الجميل بمنديل المائدة. مر عبر بهو الفيلا، ملاحظاً بعض القطع الفنيَّة التى بُعثرت بإهمال. من ذلك علبة نشوق لويس الخامس عشر، وحذاء من الستان ارتدته مارى أنطوانيت، وغير ذلك من قطع تاريخية كانت جزءاً من هيئة الدوق الخارجية. كانت تلك القطع - كما كان يوضح لزوَّاره موروثات للعائلة، وحين مرَّ الدوق بشرفة الفيلَّا طلَّع نحو البحر فى شرود. ثمة خطة كاملة الترتيب انتهت للاشىء، وأن عليه أن يعيد الترتيب من جديد. تمدَّد الدوق فى كرسى خشبى؛ وجعل يفكر بعمق .

فى تلك اللحظة، أتى خادمه هيبوليت محضراً القهوة وتنويعة من الشراب، فاختار الدوق بعض الشراب الفاخر العتيق.

وبينما كان يستعد الخادم للمغادرة، أبقاه الدوق بإشارة من يده، فوقف الخادم فى أدب. لم تكن ملامحه جذَّابة بالمرة، لكن سلوكه المناسب فى عمله، عوض عن ملامحه الدميمة. وهو الآن يقف بين يدى سيده فى وقار.

قال الدوق: "من المحتمل فى غضون الأيام القليلة القادمة أن يتردد على المنزل بعض الأغراب. سيحاولون جاهدين التعرُّف عليك وعلى مارى. وغالباً ما سيسألانكما العديد من الأسئلة بخصوصى".

"حسنًا يا سيدى الدوق".

"هل حدث ذلك بالفعل؟".

"كلا يا سيدى".

"ألم تر أية غرباء بالجوار؟ هل أنت متأكد؟".

"لم يكن هناك من أحد على هذا النحو يا سيدى الدوق".

فقال الدوق بغلظة: "حسنًا، على كل حال هم سيأتون – أنا على يقين من ذلك. وسيطرحون عليكم الأسئلة".

نظر هيبوليت نحو سيده مستقرئاً بذكاء ما يدور بخلده.

تحدَّث الدوق ببطء، ودون أن ينظر نحو هيبوليت، وقال:

"كما تعلم، لقد وصلت هنا صباح الثلاثاء الماضى. فى حال سألت الشرطة أو أى مستفسر، لا تنس هذه الحقيقة. لقد وصلت فى يوم الثلاثاء الذى وافق الرابع عشر من هذا الشهر – وليس الأربعاء الذى وافق الخامس عشر. هل تفهم؟".

"كل الفهم، سيدى".

"فى المسائل التى تتعلق بالنساء، ينبغى على المرء أن يكون كتوماً، وأنا على يقين يا هيبوليت من أنك تستطيع الكتمان".

"يمكننى ذلك، سيدى".

"وماذا عن مارى؟".

"وكذلك مارى. فسأجيب نيابة عنها".

فغمغم الدوق قائلاً: "هذا حسن إذن".

حين انصرف هيبوليت، بدأ الدوق يحتسى قهوته السادة منخرطاً فى أفكاره على نحو ما. فتجهَّم وجهه مرات، وهز رأسه مرة، وأومأ بها مرتين، وبينما هو فى أفكاره تلك، قَدِمَ هيبوليت مرة أخرى.

"هناك سيدة، بالباب سيدى".

"سيدة؟!".

كان الدوق مندهشاً؛ ليس لأن الزائرة امرأة؛ بل لأنه الآن تحديداً، لا يستطيع تخمين ماهية تلك السيدة.

غمغم الخادم، معيناً سيده: "لا أظنُّها من معارفك يا سيدى".

فازداد قلق الدوق.

ثم أمر خادمه قائلاً: "أحضرها إلى هنا، يا هيبوليت".

بعد لحظات تبدَّى فى الشرفة قوام رائع يتحلى باللونين البرتقالى والأسود، ومعه رائحة عطر قوية لزهور عجيبة.

"دوق لا روش؟".

فقال الدوق منحنياً: "فى خدمتك سيدتى".

"أدعى ميريلى، لعلك سمعت بى".

"آه! بالطبع يا آنستى؛ فمن ذا لم يسحره فن الآنسة ميريلى؟".

ردت ميريلى تلك المجاملة بابتسامة آلية.

قالت مستفتحة: "لقد أتيتك هكذا، دون ميعاد مسبق".

فصاح الدوق، مقرباً منها كرسياً: "قبل كل شىء، تفضَّلى بالجلوس يا آنستى".

خلف تودُّده البادى، كان يعمل على دراستها عن كَثَب. ليس هناك ما لا يعرفه الدوق عن النساء. صحيح أن خبرته لا تجدى كثيراً مع مثيلات ميريلى؛ فهى مثله متفرِّسة. لقد كان هو وميريلى وجهين لعملة واحدة، فحيَله - إذن - لا تنطلى عليها. وهى باريسية وذكية. إلا أنَّ شيئاً واحداً أدركه الدوق فيها على الفور. لقد أدرك للتو أنه يحادث امرأة غاضبة، والمرأة الغاضبة - كما يدرك الدوق جيداً - دائماً ما تتحدَّث بأكثر مما تقتضيه الحكمة، وتكون أحياناً مصدر نفع للرجل الذكى الهادئ.

"إنه لطف كبير منك أن تشرفى مسكنى المتواضع هذا بقدومك، آنستى".

فقالت ميريلى: "إنَّ لنا أصدقاء مشتركين فى لندن، وقد سمعت بك من خلالهم، لكنى أتيتك اليوم لسبب آخر. لقد سمعت عنك منذ وصولى إلى نيس – ولعلك تفهم ما أعنى".

فقال الدوق فى خفوت: "ماذا؟".

فتابعت ميريلى حديثها: "سأكون قاسية فيما أقول، لكن اعلم أننى حسنة النيَّة. إنهم يقولون فى نيس - يا دوق لا روش - أنك مَنْ قتلت السيدة الإنجليزية، مدام كيترينج".

"أنا! – قاتل مدام كيترينج، ياله من اتهام سخيف!".

كانت لهجته باردة - ولم تكن ساخطة - مدركاً أنَّ هذا سيثيرها أكثر.

فقالت مصرَّة: "لكن هذا ما يقولونه فعلاً".

فغمغم فى لا مبالاة: "الناس يتسلون بالحديث. وإنه ليحط من قدرى أن آخذ هذه الاتهامات على محمل الجد".

فمالت نحوه ميريلى - وعيناها تلتمعان - وقالت: "أنت لا تعى الأمر؛ هذا ليس حديث العامة، بل هو حديث الشرطة".

"الشرطة – آه؟".

اعتدل الدوق، وقد نشط مرة أخرى.

فأومأت ميريلى برأسها فى نشاط عدة مرات.

"بلى، بلى. أنت تفهمنى الآن – إنَّ لدى أصدقاء فى كل مكان. مدير الشرطة ذاته...". لم تنه جملتها، وهزت كتفيها بلا مبالاة.

فقال الدوق فى أدب: "من ذا الذى يظل كتوماً أمام امرأة جميلة مثلك؟".

"إنَّ الشرطة تعتقد بأنك مَنْ قتلت السيدة كيترينج. لكنهم على خطأ فى اعتقادهم هذا".

فقال الدوق فى بساطة: "إنهم كذلك بالطبع".

"أنت تقول ذلك، لكنك لا تعرف الحقيقة. وأنا أعرفها".

فنظر إليها الدوق بفضول.

"هل تعرفين قاتل السيدة كيترينج؟ هل هذا ما تودين قوله يا آنسة؟".

فأومأت ميريلى فى حماسة.

"نعم".

فسأل الدوق بحدة: "مَنْ هو؟".

فمالت نحوه وقالت: "زوجها. زوجها هو مَنْ قتلها". كانت تتحدث بصوت خفيض يقطر غضباً وإثارة.

"دعينى أسألك يا آنسة. كيف عرفت ذلك؟".

نهضت ميريلى ضاحكة، وهى تقول: "كيف عرفت ذلك؟ هو مَنْ أخبرنى قبل ذلك بنيته. لقد كان مَخْزِيًّا، ومفلساً، وملوث السمعة. وكانت وفاة زوجته هى الحل الوحيد لإنقاذه. لقد قال لى ذلك. فسافَر على نفس القطار – لكن من دون علمها. قل لى لماذا؟ حتى يتمكن من التسلل إليها فى الليل – آه!" – أغلقت عينيها ثم تابعت: "أكاد أراه يفعلها...".

ضحك الدوق.

ثم غمغم قائلاً: "ربما – ربما. وفى هذه الحالة، لابد أنه سرق المجوهرات؟".

فقالت ميريلى: "المجوهرات! المجوهرات. آه! تلك الماسات...".

سرى الغموض بعينيها والتمع بها نور من بعيد. نظر إليها الدوق بفضول، متأملاً ذاك الأثر السحرى للمجوهرات على النساء والذى عرفه جيداً. فاستعادها إلى أرض الواقع، وقال:

"فماذا تريدين منى فعله يا آنسة؟".

فانتبهت ميريلى، واستعادت حسَّها العملى.

"الأمر بسيط. ستذهب إلى الشرطة. وتقول لهم إنَّ السيد كيترينج هو من ارتكب الجريمة".

فسألها وهو ينظر بعينيها مباشرة: "وماذا لو لم يصدقونى؟ وطلبوا منى دليلاً على صحة كلامى؟".

ضحكت ميريلى بنعومة، ولملمت إليها رداءها البرتقالى الأسود.

ثم قالت بنعومة: "أرسلهم إلىَّ يا حضرة الدوق، وسوف أعطيهم الدليل الذى يريدونه".

وبكلماته تلك انصرفت كالريح الهوجاء، وقد أنجزت مهمتها.

تبعها الدوق بنظراته، وقد ارتفع حاجباه قليلاً.

ثم غمغم قائلاً: "إنها غاضبة، ما الذى أغضبها إلى هذا الحد؟ لكنها أفصحت عما بداخلها بوضوح شديد. هل تعتقد حقاً أنَّ السيد كيترينج هو مَنْ قتل زوجته؟ إنها تود منى تصديق ذلك، بل تود أن تصدِّق الشرطة ذلك أيضاً".

ابتسم لنفسه. لم تكن لديه أية نية للذهاب إلى الشرطة. إنَّ أمامه عدة احتمالات متعدِّدة أخرى؛ وابتسامته تشير لصورة مقبولة لهذه الاحتمالات.

وفجأة انعقد حاجباه؛ فوفق قول ميريلى، تشتبه به الشرطة. ربما يكون هذا صحيحاً، وربما لا. إن امرأة غاضبة مثل هذه ليس من الغالب أن تهتم كثيراً لصدق كلامها. وعلى الجانب الآخر، لعلها حصلت بسهولة – على معلومات سرِّية لدى الشرطة. وفى هذه الحال – زمَّ فمه عند هذه الفكرة – فى هذه الحال، سيكون عليه أن يتخذ بعض الإجراءات الاحترازية.

عاد إلى داخل منزله، وسأل هيبوليت مرة أخرى، إن كان ثمة أغراب قد قدموا إلى المنزل. فأكد الخادم ما قاله آنفًا بأن هذا لم يحدث. صعد الدوق إلى غرفة نومه واتَّجه نحو خزانة عتيقة بجوار الحائط. أزاح غطاءها، وسعت أصابعه بحثاً عن زر فى خلفية إحدى خانات الخزانة. ضغطته، فانفتح درج سرِّى، كانت به لفافة ورقية صغيرة بنِّية اللون. تناولها خارج الدرج، وتحسَّس وزنها بيده لدقيقة أو اثنتين. رفع يده نحو رأسه، وبتكشيرة خفيفة، نزع شعرة منه. ثبَّت تلك الشعرة على فوهة الدرج وأغلقه بإحكام. حاملاً اللفافة، هبط الدرج، ثم اتَّجه نحو المرآب؛ حيث تواجدت سيارة قرمزية بمقعدين. وبعدها بعشر دقائق كان على الطريق نحو مونت كارلو.

قضى بضع ساعات فى "كازينو"، ثم أخذ يتجوَّل فى المدينة، ثم عاد لسيارته وقادها باتجاه مينتون. فى وقت سابق من تلك الظهيرة، لاحظ أنَّ سيارة رمادية تتبعه. وها هو ذا يلحظها الآن أيضاً. ابتسم لنفسه. كان الطريق يأخذ اتجاهاً متصاعداً؛ فضغط الدوق على دواسة الوقود بشدة. لقد صممت تلك السيارة الحمراء الصغيرة خصيصاً وفق تصميم الدوق، وبها من القدرة فى محرِّكها ما لا يبديه مظهرها. فانطلقت به.

نظر خلفه سريعاً وابتسم؛ لقد كانت السيارة الرمادية تتبعه. أخذت السيارة الحمراء تنهب الطريق وقد لفَّها الغبار. كانت تسير الآن على سرعة خطيرة، لكن الدوق كان سائقاً من الطراز الأول. كان قد بدأ يهبط من مرتفع الطريق، وقد جعل يتلوَّى بها ويدور بشكل متوال، ثم بدأ يهبط بسرعة السيارة، حتى توقَّفت تماماً أمام مكتب بريد. خرج الدوق من السيارة، وفتح غطاء صندوق الأدوات، ثم أخرج منه اللفافة البنِّية، وأسرع إلى داخل مكتب البريد، وبعد دقيقتين كان يقود سيارته ثانية باتجاه مينتون. وحين وصلت السيارة الرمادية، كان هو يحتسى شاى الخامسة عصراً فى شرفة أحد الفنادق.

لاحقاً، قاد سيارته عائداً إلى مونت كارلو، وتناول عشاءه هناك، ووصل إلى منزله مرة أخرى فى الحادية عشرة، فخرج هيبوليت لملاقاته بوجه مرتَبِك.

"آه! لقد وصلت يا سيدى الدوق. ألم تتَّصل بى اليوم لأية أسباب؟".

فهز الدوق رأسه.

"ومع ذلك، فقد تلقيت فى الساعة الثالثة استدعاءً منك؛ كى أحضر إليك فى نيجريسكو".

فقال الدوق: "حقاً؟ وهل ذهبت؟".

"بالطبع يا سيدى، وهناك لم أجدهم يعلمون شيئاَ عن وجودك".

فقال الدوق: "آه، وبالطبع كانت مارى قد خرجت فى تلك الساعة للتسوق؟".

"هذا صحيح سيدى".

فقال الدوق: "حسناً، ليس هذا بأمر ذى بال. لابد أنه خطأ ما".

صعد إلى الطابق الثانى، وهو مبتسم.

وبمجرد أن دخل غرفته، وأغلق بابه، ونظر بأرجاء الغرفة فى حدة. كان كل شيء كالمعتاد. فتح العديد من الأدراج والخزانات، ثم أومأ برأسه. لقد كان كل شيء كما تركه تقريباً، لكن ليس كما تركه بالضبط. ولا شك أنَّ ثمة تفتيشًا دقيقًا تمَّ إجراؤه.

اتجه نحو الخزانة، وضغط زراً خفياً؛ فانفتح الدرج، لكن كانت الشعرة كما تركها، فأومأ برأسه لنفسه عدة مرات.

غمغم محدثاً نفسه: "بارعون هم رجال الشرطة الفرنسية؛ فلا شيء يفوتهم!".

الفصل العشرون

كاثرين تكتسب صديقاً

فى الصباح التالى كانت كاثرين ولينوكس تجلسان فى شرفة فيلا مارجريتا. ثمة روح من الصداقة بدأت تنبت بينهما - رغم فارق السن. لكن لينوكس رأت أن كاثرين تقضى وقتاً صعباً فى فيلا مارجريتا؛ فقضية كيترينج أصبحت حديث الساعة. والسيدة تامبلين كانت تستغل بكل وضوح علاقة ضيفتها بالقضية لتحقيق كل منفعة ممكنة. وبرغم رفض كاثرين المتكرر وصدها، فشلت فى أن تصيب كرامة السيدة تامبلين، حتى تترفَّع عما تطلبه. فى الوقت الذى اتبعت فيه لينوكس مسلكاً مستقلاً عن أفعال أمها، كانت تبدى تفهماً لمشاعر كاثرين. ولم يضف وجود تشابى جديداً للموقف، والذى كانت سعادته الساذجة بالأمرغير مقبولة؛ فقد اعتاد تقديم كاثرين للجميع باعتبارها:

"هذه هى الآنسة جراى. هل سمعت بحادثة القطار الأزرق؟ لقد كانت الآنسة فى قلب الأحداث! وقد تبادلت حواراً مطولاً مع روث كيترينج قبل ساعات من مقتلها! محظوظة هى، أليس كذلك؟".

تكرر هذا عدة مرات، حتى دفعها ذلك لرد سريع لاذع هذا الصباح، وحين انفردتا ببعضهما، قالت لينوكس فى بطء:

"لم تعتادى أن يستغلك الآخرون، أليس كذلك؟ ما زال أمامك الكثير لتتعلميه يا كاثرين".

"أنا آسفة، لقد فقدت أعصابى. هذا لا يحدث منى فى العادة".

"مع الوقت ستتعلمين كيف تصرفين غضبك. إن تشابى ليس سوى فتى أحمق؛ لا ضرر منه. أما أمى، فلو أنك فقدت أعصابك معها ألف مرة، ما حرَّكها ذلك قيد أنملة. فسوف تتسع عيناها الواسعتان، الزرقاوان، الحزينتان، ثم لن تلقى بالاً لشىء".

لم تجب كاثرين عن تلك الملاحظة، فتابعت لينوكس:

"أنا تقريباً مثل تشابى، أشعر بالإثارة لهذه القضية، هذا بالإضافة إلى أنَّ معرفتنا بديريك تجعل الوضع مختلفاً".

فأومأت كاثرين.

تابعت لينوكس، متدبِّرة: "إذن؛ فقد تناولت معه الغداء بالأمس، هل أعجبك يا كاثرين؟".

فقالت كاثرين ببطء: "لست أدرى".

"إنه جذاب للغاية".

"نعم إنه كذلك".

لم تجب كاثرين عن السؤال، أو أنها لم تجب على نحو مباشر؛ فقالت: "لقد تحدَّث عن وفاة زوجته، وقال إنَّه لن يدَّعى فى الأمر شيئاً سوى أنه ذو حظ عظيم".

فقالت لينوكس: "ولعل هذا صدمك". توقَّفت عن الكلام، ثم أضافت برنة صوت مريبة:

"لقد أحبك يا كاثرين".

فقالت كاثرين باسمة: "لقد استمتعت بتناول الغداء معه".

أبت لينوكس أن تبتعد بها كاثرين عما تريد.

قالت فى تدبُّر: "لقد لاحظت ذلك فى الليلة التى قَدِم فيها إلى هنا؛ فلست من النوع المعتاد له – بل أنت على النقيض تماماً".

قالت ماريا، وهى تطل من نافذة البهو: "هناك من يطلب الآنسة على الهاتف، السيد بوارو يريد التحدث إليها".

"مزيد من الإثارة. هيا انطلقى يا كاثرين، اذهبى واعبثى مع محققك العزيز".

جاء صوت السيد بوارو فى أذنها نقياً وواضحاً.

"هل هذه الآنسة جراى؟ حسنًا آنستى، لدىَّ رسالة لك من السيد فان ألدن والد السيدة كيترينج. إنه يتوق للحديث إليك، سواء فى فيلا مارجريتا، أو فى الفندق الذى ينزل به، أيهما شئت".

فكَّرت كاثرين لحظات، ثم رأت أن قدوم فان ألدن إلى فيلا مارجريتا سيكون مؤلماً له وغير ضرورى. فلو أتى، لباركت السيدة تامبلين مجيئه بالسعادة المفرطة. إنها لا تفوِّت فرصة للتشبث بأصحاب الملايين. فأخبرت كاثرين بوارو بأنها تفضِّل أن تأتى هى إلى نيس.

"ممتاز يا آنسة كاثرين. سآتيك بنفسى بالسيارة بعد ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، ولعل هذا مناسب؟".

فى الموعد تماماً، ظهر بوارو. كانت كاثرين بانتظاره؛ فانطلقا بالسيارة على الفور.

"حسنًا يا آنسة كاثرين، كيف تجرى الأمور؟".

نظرت فى عينيه البارقتين، وقد تأكّد لديها انطباعها الأول عنه، من أنَّ به شيئاَ جذاباَ للغاية.

قال بوارو: "هذا هو اتفاقنا، فقد وعدتك بأن نحقق فى الأمر معًا، وأنا دائماً ما أفى بوعودى".

فغمغمت كاثرين قائلة: "أنت فى غاية اللطف يا سيد بوارو".

"آه، هذه مبالغة، هل تودين معرفة تطورات القضية، أم لا؟".

أقرَّت لبوارو بأنها تود ذلك، فأخذ بوارو فى رسم صورة موجزة لها عن دوق لا روش.

فقالت كاثرين فى تفكُّر: "يبدو أنك تعتقد بأنه من قتلها".

فقال بوارو بحذر: "هذه هى النظرية المطروحة".

"هل تؤمن أنت أنه مَنْ قتلها؟".

"أنا لم أقل ذلك. وماذا عنك يا آنستى، ماذا ترين؟".

هزت كاثرين رأسها.

"كيف لى أن أعرف؟ أنا لا أفهم شيئاً على الإطلاق فى هذا الشأن، لكن يمكننى القول ـــــ".

فقال بوارو مشجعاً: "ها".

"حسنًا – مما قلت يمكننى القول إنَّ الدوق ليس من النوع الذى يُقدِمُ على القتل".

فصاح بوارو: "آه! رائع، لقد وافقتنى الرأى، هذا ما خلصت إليه بالضبط"، ثم نظر إليها بتفحص، وقال: "لكن أخبرينى، هل قابلت السيد كيترينج؟".

"قابلته فى منزل السيدة تامبلين، وتناولت الغداء معه أمس".

فقال بوارو - هازاً رأسه: "آه، يالنساء – يحببن ذلك كثيراً".

غمز لها بعينه وضحكت.

ثم تابع: "إنه من النوع الذى يلفت الانتباه له فى أى مكان، لا شك أنك لاحظته على متن القطار، أليس كذلك؟".

"بلى، لمحته".

"فى مطعم القطار؟".

"لا، لم أره فى أثناء تناول الطعام على الإطلاق. لقد رأيته مرة واحدة فقط – يدخل غرفة زوجته".

فأومأ بوارو، ثم غمغم قائلاً: "عمل غريب، لقد قلت إنَّك كنت يقظة، ونظرت خارج نافذتك فى ليون؟ ألم ترى رجلاً طويلاً قاتم الملابس مثل دوق لا روش يغادر القطار؟".

فهزت كاثرين رأسها. ثم قالت: "لا أظن أنى رأيت أى شخص على الإطلاق؛ فلم يخرج سوى شخص يبدو صغير السن ويرتدى قبعة ومعطفاً، لكنى لا أعتقد أنه كان يغادر القطار بل كان فقط يهبط إلى الرصيف ثم يصعد. وكان هناك رجل فرنسى سمين، يرتدى البيجاما وعليها المعطف، وكان يريد فنجاناً من القهوة. باستثناء ذلك، لم يكن هناك غير خدم القطار".

أومأ بوارو برأسه عدة مرات، ثم قال: "تعلمين، لدى دوق لا روش حجة غياب. وحجة الغياب هذه عادة ما تفتح أوسع أبواب الشك. لقد وصلنا!".

صعدا مباشرة لجناح السيد فان ألدن؛ حيث وجدا هناك نايتون. عرَّفه بوارو بكاثرين. وبعد بعض عبارات التعارف النمطية، قال نايتون: "سأخبر السيد فان ألدن بوجود الآنسة جراى".

دخل عبر ردهة تؤدى إلى غرفة ملحقة. وسرى بينهما بعض الهمس، ثم دخل السيد فان ألدن إلى الغرفة، واتجه بيد ممدوة نحو الآنسة جراى، وهو يرمقها فى ذات الوقت بنظرة فاحصة، مدقِّقة.

قال فى بساطة: "سعيد بلقائك يا آنسة جراى، كنت راغباً بشدة فى أن أستمع لما يمكنك إخبارى به عن روث".

لفت ببساطته كاثرين بشدة. وشعرت أنها أمام رجل حزين بحق، حزين لدرجة اختفت معها كل مظاهر الحزن الخارجية.

قدَّم لها كرسياً.

"تفضلى بالجلوس هنا، وقُصِّى علىَّ كل شىء".

انسحب بوارو ونايتون فى أدب إلى الغرفة المجاورة، وبقيت كاثرين ومعها فان ألدن وحدهما. لم تجد صعوبة فى مهمتها بإعادة سرد القصة؛ فببساطة وتلقائية شديدة روت كاثرين حوارها مع روث كما جرى تقريباً وقدر استطاعتها على ضبطه. استمع هو فى صمت، مسنداً نفسه لظهر كرسيِّه، وبإحدى يديه أخفى عينيه، وحين انتهت، قال بهدوء:

"شكراً لك، عزيزتى".

جلس كلاهما صامتين لحظات. شعرت كاثرين أن أى كلمات مواساة ستكون خارج إطارها. وحين بدأ المليونير الحديث، كانت نبرة حديثه مختلفة:

"أنا ممتن لك جداً يا آنسة جراى، أرى أنك هدَّأت من روع ابنتى المسكينة فى ساعات حياتها الأخيرة. تعلمين – كما أخبرك السيد بوارو – بأمر ذلك المحتال الذى ورطت ابنتى نفسها معه. كان هو من حدَّثتك عنه – ذلك الذى كانت تنوى مقابلته. برأيك، هل ترين أنها غيَّرت من قرارها بعد حوارك معها؟ هل ترين أنها ربما قررت العودة؟".

"بصراحة، لا يمكننى الجزم. هى بالتأكيد استقرَّت على قرار معين، وبدت أكثر ابتهاجاً به".

"ألم تخبرك عن مكان لقائها بذلك الحقير – ما إذا كان فى باريس أو هيريس؟".

فهزت كاثرين رأسها.

"لم تقل شيئاً عن ذلك".

فقال فان ألدن متدبراً: "آه، وتلك هى النقطة المهمة. حسنًا، ستكشف لنا الأيام حقيقة الأمر".

نهض وفتح باب الغرفة الملحقة فعاد بوارو ونايتون.

اعتذرت كاثرين عن دعوة المليونير لها لمشاركته الغداء، ورافقها نايتون إلى السيارة التى تنتظرها، ثم عاد ليجد بوارو وفان ألدن منهمكين فى الحديث.

قال المليونير فى تفكير عميق: "لو أننا نعرف ما خلص له قرار روث؛ فثمة احتمالات عديدة لذلك. لعلها أرادت مغادرة القطار فى باريس ومهاتفتى من هناك. وربما أرادت أن تكمل طريقها لجنوب فرنسا والتفاهم مع هذا الدوق. نحن فى مجهول – مجهول تام. لكن لدينا رواية الخادمة من أن روث ذُهِلَت وارتعدت من ظهور الدوق فى محطة باريس. يبدو أنَّ هذا كان خارج الخطة الموضوعة. هل تتفق معى يا نايتون؟".

فقال المساعد: "المعذرة سيدى؛ لم أكن مصغياً".

فقال فان ألدن: "كنت فى حلم يقظة، أليس كذلك؟ ليست هذه بعادتك. أعتقد أنَّ تلك الفتاة قد نالت منك!".

فاحمرَّ وجه نايتون.

فقال فان ألدن: "إنها فتاة لطيفة حقاً؛ هل لاحظت عينيها؟".

فقال نايتون: "لا يملك أى رجل حيلة فى ألا يلاحظ عينيها!".

الفصل الحادى والعشرون

فى ملعب التنس

مرَّت بضعة أيام. وذات صباح خرجت كاثرين وحدها لتتمشى، وحين عادت وجدت لينوكس تبتسم فى وجهها فى ترقب.

"لقد اتَّصل بك صديقك الشاب يا كاثرين".

"مَنْ هو صديقى الشاب هذا؟".

"إنه صديق جديد – مساعد فان ألدن. يبدو أنك خلفت أثراً كبيراً هناك. لقد أصبحت فاطرة قلوب حقيقية يا كاثرين؛ ففى البداية كان كيترينج، ثم ها هو نايتون يقع فى غرامك. الطريف أننى أذكر نايتون هذا جيدًا. لقد كان فى المستشفى الحربى الذى كانت تديره أمى. لقد كنت حينها فى الثامنة من عمرى".

"هل كان مصاباً بإصابة بالغة؟".

"كان مصاباً بطلق نارى فى ساقه، وحسب ما أذكر، أن إصابته كانت سيئة. لقد أساء الأطبَّاء تقديرها قليلاً؛ فقالوا إنَّه لن يبقى فى مشيته عرجة أو شىء من ذلك، لكنه ظل أعرج".

أتت السيدة تامبلين، وانضمت إليهما.

سألت ابنتها: "هل أخبرت كاثرين باتصال الماجور نايتون؟ ياله من رجل طيِّب! فى البداية لم أتذكَّره؛ فالبال مشغول بالكثير – لكننى الآن تذكَّرت كل شىء".

قالت لينوكس: "لقد كان من قبل أقل أهمية من أن يأتى فى الذاكرة، لكنه الآن سكرتير مليونير أمريكى، الوضع مختلف الآن إذن".

فقالت تامبلين بصوتها المعاتب المعتاد: "ويحك!".

فسألت كاثرين: "لماذا اتَّصل السيد نايتون؟".

"سأل إن كنت تريدين المجىء لملعب التنس بعد ظهر هذا اليوم؛ فإن وافقت فسوف يأتى ليقلَّكِ بالسيارة. وقد قبلت أنا وأمى نيابة عنك على وجل. فلو سارت علاقة بالسكرتير على ما يرام،

فربما وجدت لنفسى فرصة مع المليونير ذاته. إنه رجل يقارب الستين الآن، وأظنّه يبحث عن شابة لطيفة فى سنِّى".

فقالت السيدة تامبلين فى حماسة: "أود مقابلة السيد فان ألدن، فقد سمعت عنه الكثير؛ فرجال الغرب الأمريكيين الأشداء هؤلاء" – انقطع صوتها لحظات ثم تابعت هامسة – "مبهرون".

قالت لينوكس: "لقد كان الماجور نايتون واضحاً فى بيان أن الدعوة هى من قِبَل السيد فان ألدن، كرَّرها كثيراً حتى بدأت أستشعر شيئاً لديه. أنت ونايتون ستكونان زوجين رائعين، بارك الله لكما".

ضحكت كاثرين، ثم صعدت لتغيِّر ملابسها.

عاد نايتون سريعاً بعد الغداء وتحمَّل فى صبر نشوة التعارف لدى السيدة تامبلين.

وحين انطلقا بالسيارة، قال لكاثرين: "لقد تغيَّرت السيدة تامبلين كثيراً".

"فى المظهر أم الجوهر؟".

"فى كليهما. لابد أنها جاوزت الأربعين، لكنها لا تزال جميلة بحق".

فقالت كاثرين: "نعم، هى كذلك".

فتابع نايتون: "أنا سعيد جداً أنك تمكَّنت من القدوم اليوم. سيكون السيد بوارو حاضراً هو الآخر. هذا الرجل غير عادى. هل تعرفينه جيداً يا آنسة جراى؟".

هزَّت كاثرين رأسها قائلة: "قابلته على القطار فى طريقى إلى هنا. لقد كنت أقرأ رواية بوليسية، وصادف ذلك أننى رأيت أشياءً لا تحدث فى أرض الواقع. لكنى بالطبع لا أعرف مَنْ هو".

قال نايتون: "إنه رجل مميز جداً، وقد حقق بعض الإنجازات المشهودة. إنه عبقرى فى اكتشاف حقائق الأمور، ومن بداية القضية لنهايتها، لا يعلم أحد بما يفكر به بالضبط. أذكر أننى كنت أقيم فى منزل بيورك شير، وسُرِقَت مجوهرات السيدة كلانرافون. وقد بدا الأمر فى البداية وكأنه مجرد حادث سرقة عادى، لكن الأمر أعجز الشرطة المحلية تماماً، فأردت منهم استقدام السيد بوارو، وقلت لهم إنَّه الوحيد الذى يمكنه مساعدتهم، لكنهم تمسَّكوا بثقتهم فى شرطة اسكوتلاند يارد".

فسألت كاثرين بفضول: "وماذا جرى؟".

فقال نايتون: "لم يُعْثَر على المجوهرات قط".

"هل تؤمن حقاً بقدراته؟".

"بالطبع. صحيح أنَّ دوق لا روش ماكر جداً، وينجو بالعديد من الوقائع. لكنه لاقى هذه المرة مكافئَهُ السيد بوارو".

فقالت كاثرين فى تدبُّر: "دوق لا روش، أنت تعتقد إذن أنه الفاعل؟".

فنظر إليها نايتون فى اندهاش: "بالطبع، ألا تعتقدين أنت ذلك؟".

فقالت كاثرين بسرعة: "بلى، بلى، أعنى إن لم تكن مجرد سرقة قطارات عادية".

فوافقها قائلاً: "ربما تكون كذلك بالطبع، لكننى أعتقد أن هذه بالذات منطبقة على دوق لا روش".

"لكن لديه حجة غياب".

"أوه! يالحجج الغياب!" ضحك نايتون، وانبسط وجهه بتلك الابتسامة الصبيانية الجذَّابة.

"لقد ذكرت يا آنسة جراى، أنك قرأت قصصاً بوليسية؛ فلابد أنك تعلمين أنَّ كل من كانت له حجة غياب بالغة الإحكام، كان محل شك عظيم".

فسألت كاثرين باسمة: "وهل تظن الواقع مثل ما تقرؤه فى القصص؟".

"ولم لا؛ فالقصص الأدبية تُبنَى على ما يكون فى الواقع فعلاً".

فقالت كاثرين: "لكنَّه يفوق الواقع على نحو ما".

"ربما. لكن على أية حال لو أننى مرتكب لجريمة، لن أود أن يكون بوارو هو مَنْ يقوم باقتفاء أثرى".

فقالت كاثرين ضاحكة: "وكذلك أنا".

عند وصولهما قابلا بوارو. ولما كان الجو دافئاً؛ فقد ارتدى بوارو حلَّة بيضاء قطنية، ووضع فى عروتها زهرة كاميليا بيضاء.

فقال بوارو: "صباح الخير يا آنسة، أنا اليوم أبدو إنجليزياً صرفاً، أليس كذلك؟".

فقالت كاثرين: "بل تبدو رائعاً جداً".

فقال بوارو ببراءة: "تسخرين منى، لكن لا بأس؛ فبابا بوارو هو مَنْ يضحك دائماً بالنهاية".

فسأل نايتون: "أين السيد فان ألدن؟".

"سيلاقينا عند المقاعد المخصصة لنا. الحق يا صديقى، أنه ليس راضياً عن عملى. إنَّ هؤلاء الأمريكان لا يعرفون شيئاً عن الراحة، أو الهدوء! السيد فان ألدن يظن أنَّنى سأطير فى أزقَّة نيس أتتبع المجرمين".

فقال نايتون: "كنت أظن أنا أيضاً أنَّ هذا هو التصرُّف السليم".

فقال بوارو: "أنت مخطئ؛ ففى حل القضايا لا يحتاج المرء إلى الطاقة بقدر حاجته للدهاء. فى ملاعب التنس يمكن للمرء أن يقابل كل مَنْ يحتاج للقائه. وهذا أمر مهم جداً. آه، ها هو السيد كيترينج".

دخل ديريك عليهم فجأة، وكان يبدو هائجاً وغاضباً كما لو كان هناك شىء قد حدث وأثار استياءه. تبادل هو ونايتون التحية بنفس الدرجة من الفتور. وكان يبدو أن بوارو وحده هو الذى لم يكن يدرك أى شعور بالتوتر، وبدأ فى الحديث بسرور فى محاولة محمودة منه لبث الارتياح فى نفوس الجميع، وأصدر القليل من الإطراءات.

فقال ملاحظاً: "إنه لأمر مدهش يا سيد كيترينج، إنك تتحدث الفرنسية بطلاقة لدرجة أنك تبدو كما لو كنت فرنسياً، وهذا إنجاز نادر جداً قلما تجده لدى رجال الإنجليز".

قالت كاثرين: "أتمنى لو كنت أتقن الفرنسية، إننى أدرك تماماً أن لغتى الفرنسية متأثرة بالإنجليزية بشكل مؤلم".

وصل كل منهم إلى مقعده وجلسوا جميعاً، ولكن بعدها مباشرة رأى نايتون صاحب العمل الذى يعمل لديه يشير إليه من الجانب الآخر من القاعة؛ فنهض ليتحدث إليه.

قال بوارو: "بالنسبة لى، فإننى أستحسن ذلك الشاب"، وأصدر ابتسامة مشرقة فى أعقاب السكرتير الذى كان يغادر المكان وسأل: "وماذا عنك يا سيدتى؟".

"إننى أحبه كثيراً جداً".

"وماذا عنك يا سيد كيترينج؟".

وكان هناك رد سريع تلقائى كاد أن يقفز على شفتى ديريك، ولكنه تحقق منه أولاً كما لو كان هناك شىء فى عينى المحقق البلجيكى النحيل جعله ينتبه فجأة.

فقال: "إن نايتون رفيق جيد للغاية".

وللحظة تخيلت كاثرين أن بوارو أصيب بالإحباط.

فقالت: "إنه شديد الإعجاب بك يا سيد بوارو"، وسردت بعض الأشياء التى كان نايتون يقولها في حقه، وأدهشتها رؤية هذا الرجل وهو يتباهى بنفسه مثل الطائر المغرور، وينفخ صدره زهواً، ويبدى نوعاً من التواضع الزائف الذى لا يمكن أن يخدع أحداً.

قال فجأة: "ذلك يذكرنى يا سيدتى بأمر بسيط فى العمل أود التحدث إليك بشأنه. عندما كنت جالسة فى القطار تتحدثين إلى تلك السيدة المسكينة، أعتقد أن علبة السجائر الخاصة بك قد سقطت منك".

بدت كاثرين مندهشة للغاية وقالت: "لا أعتقد ذلك". وأخرج بوارو من جيبه علبة سجائر ذات جلد أزرق ناعم ومنقوش عليها حرف "K" بالذهب.

قالت كاثرين: "كلا؛ إنها ليست ملكى".

"آه، إننى أعتذر كثيراً، إنها بلا شك كانت تخص السيدة كيترينج؛ فالحرف "K" يمثل الحرف الأول من اسمها أيضاً. لقد كنا نشك فى هذا الأمر لأن حقيبتها كان بها علبة سجائر أخرى، وكان يبدو من العبث أن تحمل معها علبتى سجائر"، ثم استدار فجأة نحو ديريك وقال: "أعتقد أنك لا تعرف ما إذا كانت هذه العلبة تخص زوجتك أم لا؟".

بدا ديريك مذهولاً للحظة، وتلعثم قليلاً فى رده وقال: "لا – لا أعرف. أعتقد ذلك".

"إنها ليست ملكك على أية حال؟".

"بالطبع لا؛ فلو كانت تخصنى لكان من الصعب جداً أن تكون بحوزة زوجتى".

وبدا بوارو أكثر سذاجة وبراءة كالأطفال عن السابق.

وقال موضحاً بخبث: "لقد اعتقدت أنك ربما تكون قد أسقطتها عندما كنت فى كابينة زوجتك!".

"إننى لم أكن هناك على الإطلاق، وقد أخبرت الشرطة بذلك عشرات المرات".

فقال بوارو بلهجته الاعتذارية السائدة: "إننى أقدم عميق اعتذاراتى؛ لقد كانت السيدة التى هنا هى التى أخبرتنى أنها رأتك وأنت تدخل إلى هناك".

وتوقف وهو يشعر بالإحراج.

نظرت كاثرين إلى ديريك، وتحول لون وجهه إلى اللون الأبيض، ولكن ربما كان هذا هو ما تخيلته؛ فقد أصدر ضحكة طبيعية للغاية.

وقال بسهولة بالغة: "لقد ارتكبت خطأ يا آنسة جراى؛ فقد استنتجت مما أخبرتنى به الشرطة أن كابينتى كانت تبعد عن كابينة زوجتى بمقدار كابينة أوكابينتين فقط – على الرغم من أننى لم أشك فى هذه الحقيقة حينئذ. ولابد أنك رأيتنى وأنا أدخل كابينتى الخاصة"، ثم نهض على الفور عندما رأى فان ألدن ونايتون يقتربان.

وقال معلناً: "سوف أغادركم الآن؛ فأنا لا أستطيع تحمل حماى مهما كان الثمن".

وجه فان ألدن التحية لكاثرين بحرارة، ولكنها لم تخل من الدعابة السيئة.

ثم دمدم قائلاً: "يبدو أنك مغرم بمشاهدة مباريات التنس يا سيد بوارو".

رد بوارو بهدوء: "بالفعل إنها متعة بالنسبة لى".

قال فان ألدن: "يبدو الأمر كما لو كنت فى فرنسا، فنحن قد اعتدنا الأمور المثيرة للتوتر فى الولايات المتحدة؛ فهناك يأتى العمل قبل المتعة دائماً".

وفى الحقيقة فإن بوارو لم يتعامل مع الأمر على أنه إساءة؛ بل ابتسم بلطف وثقة للمليونير الغاضب.

"أرجوك لا تزعج نفسك؛ فكل شخص له طرقه الخاصة. وبالنسبة لى، فأنا دائماً أجدها فكرة مبهجة وسارة أن أقرن العمل بالمتعة دائماً".

ثم نظر تجاه الشخصين الآخرين، وقد كانا منهمكين بشدة مع بعضهما فى الحديث، ثم أومأ برأسه فى رضا تام، وعندئذ مال تجاه المليونير وأخفض صوته قدر استطاعته.

"إن الأمر هنا لا يمثل لى متعة فقط يا سيد فان ألدن. راقب فقط هذا الرجل العجوز الطويل المقابل لنا – ذا الوجه الأصفر واللحية الوقورة.

"حسناً. ماذا به؟".

قال بوارو: "إنه السيد بابولوس".

"إنه يونانى، إيه؟".

"كما قلت، إنه يونانى. وهو تاجر تحف ذائع الصيت على مستوى العالم، وهو يمتلك متجراً صغيراً للتحف فى باريس، وتشك فيه الشرطة بأكثر من ذلك".

"ماذا؟".

"إنه يتاجر فى البضائع المسروقة وخاصة الجواهر، وما من صغيرة ولا كبيرة ولا واردة ولا شاردة إلا ويعرفها عن المجوهرات، كما أنه يتعامل مع أرقى الطبقات فى أوربا، وكذلك أحطها قدراً فى عالم الجريمة".

كان فان ألدن ينظر إلى بوارو فجأة بانتباه يقظ.

وقال ملحاً بطلب المزيد: "حسناً؟".

قال بوارو وهو يضرب بيده على صدره: "لقد سألت نفسى أنا هيركيول بوارو، مالذى جعل السيد بابولوس يأتى فجأة إلى نيس؟".

كان فان ألدن متأثراً للغاية، وللحظة شك فى أن يكون هذا الرجل لا يفعل شيئاً من واجبات وظيفته إلا التكلف، ولكن الآن وفى لحظة عاد لرأيه الأصلى، ونظر مباشرة إلى هذا المحقق.

"يجب أن أعتذر إليك يا سيد بوارو".

ورد بوارو على الاعتذار بإيماءة مبالغ فيها.

وصاح قائلاً: "أوه، كل هذا ليس ذا أهمية. والآن اسمع يا سيد فان ألدن، فلدىّ أخبار لك".

نظر المليونير إليه بحدة وقد أعاره كامل انتباهه.

أومأ بوارو.

"كما توقعت، سوف تكون مهتماً. أنت تعرف يا سيد فان ألدن أن كونت دو لا روش كان تحت المراقبة بعد لقائه بـ جوج دونستركشن. وفى يوم بعد هذا، وفى أثناء غيابه تم تفتيش الفيلا مارينا بإذن من الشرطة".

قال فان ألدن: "حسناً، وهل وجدوا شيئاً؟ أنا متأكد أنهم لم يجدوا أى شىء".

انحنى بوارو برأسه انحناءة بسيطة.

"إن ذكاءك لا يخطئ يا سيد فان ألدن؛ فهم لم يجدوا شيئاً يوحى بتورطه فى الجريمة. ولم يكن متوقعاً لهم أنهم سيجدون شيئاً. فعلى حد قولك، لم يكن كونت دو لا روش ساذجًا؛ بل إنه رجل مهذب ذكى واسع الخبرة".

دمدم فان ألدن: "حسناً، استمر".

"بالطبع ربما لا يكون لديه شيء يدينه، ولكننا يجب ألا نهمل إمكانية إدانته، وعندئذ، فإذا كان لديه شيء ليخفيه، فأين هو؟بالطبع ليس فى منزله – فقد قامت الشرطة بتفتيشه بدقة بالغة. وبالنسبة لشخص فى ذكائه، فإنه يعرف أنه معرض للاعتقال فى أى لحظة. وهنا يتبقى – سيارته. وكما قلت، فقد كان تحت المراقبة، وقد تبعوه حتى مونت كارلو، ومنها إلى مينتون وقد كان يقود السيارة بنفسه. وتتميز سيارته بالقوة والسرعة الشديدتين؛ مما مكنه من الاختفاء تماماً عن الأنظار لمدة ربع ساعة كامل".

تساءل فان ألدن باهتمام بالغ: "وهل تعتقد أنه قام بإخفاء شيء على جانب الطريق فى أثناء هذا الوقت؟".

"كلا ليس على جانب الطريق؛ فهذا غير ممكن. ولكن اسمع الآن – بالنسبة لى، لقد اقترحت اقتراحاً بسيطاً للسيد كاريج، وقد وافق عليه برضا تام. ففى أحد مكاتب البريد فى المنطقة، هناك شخص يعرف كونت دو لا روش رآه هناك. ولأنه، كما تعرف يا سيدى، فأفضل طريقة لإخفاء أى شيء هى أن ترسله إلى مكان بعيد عبر البريد".

قال فان ألدن بإلحاح: "حسناً؟"، وقد بدا على وجهه الاهتمام الكامل والترقب.

"حسناً"، وبحركة درامية أخرج بوارو من جيبه قطعة ورق مطوية لطرد تم إزالة الخيط منه.

"خلال ربع الساعة التى اختفى فيها، أرسل رجلنا المهذب هذا".

وسأل الآخر بحدة: "وما هو العنوان؟".

أومأ بوارو برأسه.

"ربما كان هذا سيخبرنا بشيء، ولكنه للأسف لم يفعل. فقد تم إرسال الطرد إلى أحد متاجر الصحف الصغيرة فى باريس؛ حيث يتم الاحتفاظ بالخطابات والطرود حتى يحين وقت تسديد رسومها مقابل نسبة صغيرة كعمولة".

ألح فان ألدن بنفاد صبر: "نعم، ولكن ما الذى كان بداخله؟".

فض بوارو الورقة البنية وأخرج صندوق بطاقات مربعاً، ونظر حوله.

وقال بهدوء: "إنها لحظة رائعة؛ جميع العيون تتجه نحو مباراة التنس، انظر يا سيدى!".

رفع غطاء الصندوق فى جزء من الثانية، وصدرت صيحة دهشة وتعجب من المليونير، وتحول لون وجهه إلى الأبيض مثل الطباشير.

وتنهد قائلاً: "يا إلهى! الماسات".

وقف لدقيقة وكأنه مصاب بالدوار، وأعاد بوارو الصندوق إلى جيبه وابتسم بهدوء، وفجأة هب المليونير من سباته وكأنه أفاق من غيبوبته، ومال على بوارو وعصر يده بشدة حتى إنه أجفل من الألم.

قال فان ألدن: "رائع، رائع يا سيد بوارو؛ إنك شخص فريد من نوعه، لا يضاهيك أحد".

قال بوارو بتواضع: "إنه لا شيء؛ فالأمر والطريقة معروفان من قبل – هذا هو كل ما فى الأمر".

قال فان ألدن بحماس: "والآن أعتقد أنه قد تم القبض على كونت دو لا روش؟".

قال بوارو: "كلا".

وبدت على وجه فان ألدن نظرة دهشة.

"ولكن لماذا؟ ما المزيد الذى تريده؟".

"إن إدانة كونت لاتزال ناقصة".

"ولكن هذا هراء".

قال بوارو: "نعم، أعتقد أنه هراء، ولكننا للأسف يجب أن نثبت ذلك".

"وفى نفس الوقت، فإنه سوف يفلت من بين أصابعك".

هز بوارو رأسة بقوة شديدة.

وقال: "كلا، لن يفعل ذلك؛ فالشيء الوحيد الذى لا يمكن أن يضحى كونت من أجله هو مكانته الاجتماعية؛ فمهما كان الثمن، يجب أن يتوقف ويحافظ عليها".

كان فان ألدن لا يزال غير مقتنع.

"ولكننى لا أفهم ـــــ".

رفع بوارو يده وقال: "امنحنى لحظة صغيرة يا سيدى؛ فلدىّ فكرة صغيرة. هناك الكثير من الأشخاص الذين كانوا يسخرون من أفكار بوارو الصغيرة – وثبت خطؤهم فيما بعد".

قال فان ألدن: "حسناً، واصل كلامك. ما هذه الفكرة الصغيرة؟".

توقف بوارو للحظة ثم قال:

"سوف أتصل بك فى الفندق الخاص بك فى تمام الساعة الحادية عشرة من صباح الغد؛ وحتى ذلك الحين، لا تتفوه بأى شىء لأى أحد".

الفصل الثانى والعشرون

على مائدة إفطار السيد بابولوس

كان السيد بابولوس يتناول إفطاره، وقبالته جلست ابنته زيا.

دق أحدهم باب غرفة الجلوس، ودخل الخادم حاملاً بطاقة أتى بها إلى السيد بابولوس. أمعن الرجل النظر إلى البطاقة، ورفع حاجبيه، ثم مرر البطاقة لابنته.

قال السيد بابولوس وهو يحك أذنه اليسرى مفكراً: "آه! هيركيول بوارو، ما الذى أتى به يا ترى؟!".

تبادل الرجل وابنته النظرات.

ثم قال السيد بابولوس: "لقد رأيته بالأمس فى ملعب التنس. وقد كرهت ذلك".

فقالت الابنة مذكرة إياه: "لقد كان مفيداً لك للغاية".

فقال مقرًّا: "هذا صحيح، وقد سمعت أنه قد ترك عمله".

كان الأب يتبادل الحوار مع ابنته بلغتهما، ثم استدار نحو الخادم، وقال له بالفرنسية:

"أدخل الضيف".

وبعد دقائق معدودة، دخل هيركيول بوارو، متأنقاً فى ثيابه؛ ممسكاً بعصا يهزها بمرح.

"عزيزى السيد بابولوس".

"عزيزى السيد بوارو".

ثم قال بوارو بانحناءة: "مرحبًا يا آنسة زيا".

قال بابولوس وهو يصب لنفسه فنجاناً آخر من القهوة "اعذرنا فى استكمال إفطارنا يا سيد بوارو. فقد – أأأ – أبكرت فى قدومك قليلاً".

فقال بوارو: "أنا آسف لهذا فعلاً، لكن كما ترى أنا مشغول".

فغمغم بابولوس قائلاً: "أنت تعمل فى قضية إذن؟".

فقال بوارو: "قضية خطيرة جداً. إنها قضية مقتل السيدة كيترينج".

فقال بابولوس وهو يتطلع نحو السقف ببراءة: "أتلك السيدة التى ماتت على متن القطار الأزرق؟ لقد قرأت شيئاً عن ذلك فى الصحف، لكن لم تكن هناك إشارة لجريمة".

فقال بوارو: "لقد اتُّفِقَ على كتمان الأمر لصالح التحقيقات".

صمت كلاهما للحظات.

ثم سأل التاجر فى أدب: "وكيف يتسنَّى لى مساعدتك يا سيد بوارو؟".

قال بوارو: "حسناً، سوف أوافيك لهذا"؛ ثم أخرج من جيبه ذات العلبة التى أظهرها فى مدينة كان وفتحها، وأخرج الماسات، ودفعها عبر الطاولة نحو السيد بابولوس.

ورغم أن بوارو راقبه عن كثب، إلا أن عضلة واحدة لم تتحرك فى وجه العجوز. تناول الماسات، وفحصها بشكل محايد، ثم نظر للمحقق متسائلاً.

فسأله بوارو: "فريدة، أليس كذلك؟".

فقال بابولوس: "إنها حقاً ممتازة".

"كم تساوى برأيك؟".

فارتجف وجه اليونانى قليلاً.

وسأل: "هل من الضرورى أن أجيبك عن هذا السؤال يا سيد بوارو؟".

"أنت رجل ذكى يا سيد بابولوس، لا ليس ضرورياً أن تجيب؛ فهى لا تساوى مثلاً خمسمائة ألف دولار".

فضحك بابولوس، وتبعه فى ذلك بوارو.

قال بابولوس، وهو يعيد إليه الماسات: "إنها رائعة كما قلت، بالنسبة لمجوهرات مُقلَّدة. واسمح لى أن أسألك يا سيد بوارو عن كيفية وصولها إليك".

فقال بوارو: "على الرحب، ليس لدى مانع على الإطلاق أن أخبر صديقاً قديماً بأمر كهذا. لقد كانت بحوزة دوق لا روش".

فارتفع حاجبا بابولوس.

وغمغم: "حقاً!".

مال بوارو نحوه واستحضر أقصى أشكال البراعة والخداع لديه.

ثم قال: "سيد بابولوس، سأضع أوراقى على الطاولة. إنَّ النسخة الأصلية من هذه المجوهرات سُرِقت من السيدة كيترينج على متن القطار الأزرق. وأقول لك بادئ ذى بدء إنَّنى لست مهتماً بأمر هذه المجوهرات؛ فبها تهتم الشرطة، وأنا لا أعمل لحساب الشرطة. أنا أعمل لحساب فان ألدن. وأريد أن أضع يدى على قاتل السيدة كيترينج. وسيهمنى أمر المجوهرات فقط فى حال أنها قادتنى للقاتل. هل تفهمنى؟".

شدَّد بوارو على الكلمتين الأخيرتين. وظل وجه السيد بابولوس كما هو لم يتغيَّر، ثم قال بهدوء:

"تابع حديثك".

"الأكثر احتمالاً لدىَّ، أنَّ هذه الماسات سوف تُنقَل ملكيتها فى نيس، وربما حدث هذا بالفعل".

قال بابولوس: "آه!".

أخذ رشفة من فنجان قهوته مفكراً، وقد بدا على نحوٍ ما أكثر نبلاً ورفعة من المعتاد.

فتابع بوارو: "لقد قلت فى نفسى، يالحظك السعيد؛ فصديقك القديم بابولوس موجود فى نيس.. وسوف يساعدنى".

فسأل بابولوس فى برود: "وكيف يمكننى المساعدة؟".

"لقد قلت لنفسى، إنَّ السيد بابولوس لابد أنه قد أتى إلى نيس فى عمل".

"على الإطلاق؛ فأنا هنا لأسباب صحِّية. أنا هنا بأمر الطبيب".

ثم سعل.

فرد بوارو، بشىء من التعاطف المصطنع: "يحزننى أن أسمع هذا. لكن لنكمل. حين يقوم دوق روسى عظيم، أو أميرة نمساوية، أو أمير إيطالى بالتفكير فى تدبُّر أمر مجوهرات عائلته، فلمن يلجأ؟ يلجأ إلى بابولوس، أليس كذلك؟ والذى طبقت شهرته الآفاق فى قدرته على تصريف أشياء كهذه بحذر وتكتم".

فانحنى الآخر، وقال:

"هذا إطراء كبير".

فقال بوارو متأملاً: "التكتم شيء جيد، أنا أيضاً رجل كتوم".

فأجابه اليونانى بابتسامة سرت بوجهه.

ثم تلاقت عينا الرجلين.

ثم بدأ بوارو يتكلم ببطء شديد، ويختار كلماته بعناية؛ فقال:

"لقد قلت لنفسى، لو أنَّ هذه المجوهرات قد تمَّ تصريفها فى نيس، فلابد أنَّ السيد بابولوس قد سمع بالأمر؛ فهو يعلم بكل ما يسرى فى عالم المجوهرات".

فتناول السيد بابولوس قطعة كرواسون وهو يتمتم قائلاً: "آه!".

قال بوارو: "الشرطة كما تعلم، لا دخل لها بالأمر، إنَّ الأمر شخصى".

فقال السيد بابولوس، بحذر: "تأتى لمسامعى بعض الشائعات".

فقال بوارو بسرعة: "مثل ماذا؟".

"هل من سبب يدفعنى لتسريب ذلك؟".

فقال بوارو: "نعم هناك. تذكَّر يا سيد بابولوس، أنه منذ سبع عشرة سنة كان بحوزتك بضاعة من هذه، كانت قد تُرِكَت كرهن من قبل أحد الشخصيات المعروفة. لقد كانت بحوزتك واختفت بشكل غير متوقع. لقد كَنت متورطاً كما هو واضح".

دارت عيناه بلطف نحو الفتاة. كانت قد دفعت طبقها جانباً، وركَّزت بمرفقيها على الطاولة مرخية وجهها على كفَّيها، وجعلت تستمع إلى الحديث فى يقظة. تابع بوارو حديثه وهو لا يزال يرمقها:

"كنت فى باريس وقتها. أرسلت فى طلبى. وأوكلت لى الأمر، فاستعدت لك بضاعتك، وقلت إنَّك ستحفظ الجميل لى ما حييت، وها أنا أطلب منك ردَّه".

تنهَّد الرجل تنهيدة طويلة.

غمغم قائلاً: "كانت لحظة بغيضة فى تاريخى المهنى".

قال بوارو مفكراً: "سبعة عشر عاماً زمن طويل، لكننى على يقين سيدى من أن عرقكم لا ينسى أبداً".

فقال بابولوس ساخراً: "العرق اليونانى؟!".

فقال بوارو: "ليس هذا ما أقصد".

سرى صمت، ثم انتفخ الرجل مزهواً.

ثم قال بهدوء: "أنت على حق يا سيد بوارو؛ فأنا لا أنسى الجميل".

"فسوف تساعدنى إذن؟".

"فيما يخص المجوهرات، ليس هناك ما يمكننى القيام به".

كان العجوز قد اقتفى أثر بوارو، وبدأ يختار كلماته بعناية.

"أنا لا أعرف شيئاً، ولم أسمع بشىء. لكن ربما أمكننى مساعدتك، هذا إن كنت مهتماً بالسباقات".

فقال بوارو، وعيناه مثبتتان عليه: "تحت ظروف معيَّنة، أهتم بها".

"ثمة حصان سيكون فى سباق لونجتشامبس، سوف يلفت الانتباه حسب ظنى. لا يمكننى الجزم، أن تفهم أنَّ هذه أقاويل تتوارد عبر كثيرين".

توقَّف، وثبَّت نَظَره نحو بوارو، كما لو كان يتأكَّد من أن الآخر يفهمه.

فقال بوارو مومئاً: "حسنًا، حسنًا".

قال بابولوس، وقد أسند ظهره للخلف، وعقد بين أطراف أصابعه: "اسم الحصان ماركيز. أعتقد ذلك، لكننى غير واثق، إنه حصان إنجليزى، أليس كذلك يا زيا؟".

فقالت الفتاة: "أنا أيضاً، أظن ذلك".

نهض بوارو، فى خفة.

وقال: "أشكرك يا سيدى. هذا ما يصفه الإنجليز بقولهم، خذ الفائدة حتى من إسطبل الخيول، إلى اللقاء وشكرى الجزيل لك".

ثم التفت نحو الفتاة.

"إلى اللقاء يا آنسة زيا. يبدو لى لقائى بك فى باريس وكأنه كان البارحة. أكاد أقول إنَّ الفارق لا يتجاوز سنتين على الأكثر".

فقالت زيا فى رثاء: "فارق كبير بين سن السادسة عشرة والثالثة والثلاثين".

فقال بوارو مجاملاً: "لا ينطبق هذا عليك. ووددت أن لو أتيت أنت ووالدك لتناول العشاء معى ذات يوم".

فقالت زيا: "سيكون هذا من دواعى سرورنا".

فقال بوارو: "حسناً، سنرتِّب للأمر. والآن إلى اللقاء".

سار بوارو فى الشارع يدندن لحناً مع نفسه. وقد جعل يلف عصاه مرحاً، وابتسم لنفسه مرة أو اثنتين. دخل إلى أول مكتب بريد قابله، وأرسل برقية. أخذ بعض الوقت فى صياغتها، لكنها كانت بالشفرة، وكان عليه أن يعتمد على ذاكرته. وكان الهدف منها معرفة تفصيل صغير، وكانت مرسلة إلى المحقق جاب باسكوتلاند يارد.

كانت قصيرة ومحددة.

"ابعث لى بكل ما تعرفه عن شخص يحمل اسماً مستعاراً هو ماركيز".

الفصل الثالث والعشرون

نظرية جديدة

كانت الساعة قد بلغت تمام الحادية عشرة حين قدم بوارو إلى الفندق الذى ينزل به فان ألدن. كان المليونير وحده.

قال مبتسماً وهو ينهض لتحية المحقق: "أنت دقيق فى مواعيدك يا سيد بوارو".

فقال بوارو: "أنا كذلك دائماً. أنا دائماً ما أراعى الدقة؛ فبدون النظام والمنهجية ـــــ".

قطع حديثه، ثم قال: "آه، لعلى قلت لك هذا من قبل. فلنأت مباشرة لهدف الزيارة".

"تقصد فكرتك التى تحدَّثت عنها؟".

فقال بوارو باسماً: "نعم، فكرتى".

"أولاً، أريد استجواب الخادمة مرة أخرى "أدا ماسون" أليست هنا؟".

"نعم، إنها هنا".

"آه!".

نظر إليه فان ألدن بفضول. دق الجرس، وطلب من الساعى أن يجد ماسون.

حيَّاها بوارو بأدبه المعتاد، الذى لا يتأثَّر بهذه الطبقة خاصة.

قال مبتهجاً: "مساء الخير يا آنسة، تفضلى بالجلوس بعد إذن السيد فان ألدن".

فقال فان ألدن: "نعم، نعم، اجلسى يا صغيرتى".

فقالت ماسون فى احتشام: "شكراً، يا سيدى"، ثم جلست على طرف أحد الكراسى. بدت نحيفة أكثر من أى وقت مضى.

قال بوارو: "لقد أتيت لأسألك بعض الأسئلة الإضافية؛ فعلينا أن نكشف عن سر القضية. ومحور البحث دائماً حول الرجل الذى كان على متن القطار. لقد عرضنا عليكِ الدوق لا روش. لقد قلتِ إنَّ من رأيتِه ربما يكون الدوق لا روش، لكنك لم تكونى على يقين".

"كما أخبرتك يا سيدى. إننى لم أر وجهه مطلقاَ. هذا ما جعل تحديده أمراَ صعباَ".

فابتسم بوارو وأومأ برأسه.

"بالطبع، بالطبع. أنا أفهم حجم الصعوبة. الآن يا آنسة، أنت فى خدمة مدام كيترينج منذ شهرين كما قلت. خلال هذا الوقت، كم مرة قابلت سيدك؟".

فكرت ماسون لحظات، ثم قالت:

"مرتين فقط يا سيدى".

"وهل ذلك قريباً، أم منذ فترة؟".

"حسناً، رأيته مرة حين أتانا فى شارع كارسون. كنت فى الطابق الثانى، فنظرت من بين قوائم (درابزين) السلم ورأيته فى الصالة؛ فقد كنت فى فضول لأن أعلم الوضع من حولى"، ثم أنهت حديثها بسعلتها المتحفظة.

"ماذا عن المرة الثانية؟".

"كنت فى المتنزه يا سيدى، كنت مع أنى، إحدى الخادمات. وقد أشارت إليه وكان يمشى مع سيدة لا نعرفها".

فأومأ بوارو مرة أخرى.

"فكيف إذن حكمت يا ماسون، أنَّ الرجل الذى رأيتِه مع سيدتك لم يكن سيدك؟".

"سيدى؟ لا، لا أظن هذا".

فألح بوارو: "لكنك لست على يقين".

"الحق أنَّ هذا لم يخطر ببالى".

كان من الواضح أنَّ الفكرة قد أزعجت ماسون.

"وقد سمعت أيضاً أنَّ سيدك كان على متن القطار. أليس من الطبيعى أن يكون سيدك هو من قَدِمَ من الممر؟".

"لكن السيد الذى كان يتحدث إلى السيدة قد أتى من خارج القطار. فكان يرتدى ما يناسب المشى بالشوارع. كان يرتدى معطفاً وقبَّعة".

"تماماً يا آنسة، لكن فكَرى قليلاً. كان القطار قد وصل لتوه إلى جارِى دى ليون؛ حيث يعد معظم المسافرين أنفسهم للتنزُّه على رصيف المحطة. وكانت سيدتك أيضاً على وشك ذلك؛ ولذا ارتدت معطفها، أليس كذلك؟".

فوافقته ماسون قائلة: "صحيح يا سيدى".

"وسيدك بالطبع فعل الشىء ذاته؛ فالقطار دافئ، أما فى المحطة، فالجو بارد. فارتدى معطفه وقبَّعته وسار بجوار القطار، وتطلَّع من خلال النوافذ المضاءة وفجأة رأى السيدة كيترينج؛ فحتى تلك اللحظة لم يكن يعلم أنها على القطار. وبالطبع، صعد القطار ثانية، وذهب إلى مقصورتها. وقد اندهشت لرؤيته فأسرعت بإغلاق الباب الواصل بين غرفتيكما لما كان محتملاً أن يكون حديثهما على قدر من الخصوصية".

أرخى ظهره إلى مسند كرسيه وانتظر حتى يقع أثر فكرته التى عرضها. إنه أفضل مَنْ يعلم أنَّ الطبقة التى تنتمى لها ماسون لا تحب أن تستعجل؛ فلابد أن يمنحها الوقت كى تتخلَّص من تصوُّراتها المسبقة، وبعد ثلاث دقائق تقريباً قالت:

"حسنًا يا سيدى. ربما كان هو بالفعل. لكنى لم أتصوَّر ذلك؛ فالسيد طويل وأسمر وفى نفس البنية تقريباً. رؤيته بالقبعة والمعطف جعلتنى أظن أنه من الخارج... نعم لعله كان السيد، لكننى على كل لست متأكدة".

"شكراً يا آنستى. لن أسألك المزيد. آه، سؤال آخر فقط"، وأخرج من جيبه علبة السجائر التى أراها لكاثرين، ثم سأل ماسون: "هل هذه هى علبة سجائر سيدتك؟".

"كلا، سيدى، ليست علبة سجائر سيدتى – إنها ـــــ".

بدت مذهولة فجأة؛ فثمة فكرة كانت تختمر برأسها.

فقال بوارو مشجعاً: "إنها ماذا؟".

"أظن سيدى، لكننى لست على يقين – إنَّها العلبة التى اشترتها سيدتى لتعطيها لسيدى".

فقال بوارو: "آه".

"لكننى بالطبع لا أعلم إن كانت قد أعطته إياها فعلاً أم لا".

فقال بوارو: "بالطبع. هذا بالضبط كل ما وددت معرفته. أتمنَّى لكِ يوماً هانئاً".

انصرفت أدا ماسون فى احتشام، وأغلقت الباب خلفها دون صوت.

نظر بوارو لـ فان ألدن، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة. بدا المليونير مشدوهاَ.

وسأل بوارو: "هل تظن، هل تظن أن ديريك هو الفاعل؟ لكن كل شىء يشير فى اتجاه معاكس؛ فقد ضُبِطَ الدوق ومعه الماسات".

"كلا".

"لكنك أخبرتنى ـــــــ".

"بم أخبرتك؟".

"بتلك القصة التى حكيتها عن الماسات. لقد أريتنى إياها".

"كلا".

فحدَّق إليه فان ألدن.

"هل تعنى أنك لم ترنى الماسات؟".

"كلا".

"أمس، فى ملعب التنس؟".

"كلا".

"سيد بوارو ، هل جننت، أم أننى أنا المجنون".

فقال بوارو: "ليس بيننا مجنون. لقد سألتنى سؤالاً، وقد أجبتك عنه. لقد سألتنى إن كنت قد أريتك الماسات بالأمس؟ فأجبتك بلا. فما أريتك إياه بالأمس، كان تقليداً من الدرجة الأولى للماسات الحقيقية، لا يكاد يدرك حقيقته إلا المحترفون".

الفصل الرابع والعشرون

بوارو يعرض النصيحة

استغرق المليونير بضع دقائق حتى أدرك الأمر. جعل يحدق إلى بوارو وهو لا يزال مشدوهاً، فأومأ المحقق البلجيكى فى لطف.

قال بوارو: "بلى، إنَّ هذا يقلب الأوضاع، أليس كذلك؟".

"تقريباً!".

ثم مال أماماً ناحية بوارو.

"طوال هذا الوقت يا سيد بوارو، وأنت مقتنع بتلك الفكرة؟ طوال الوقت وأنت تسعى إلى هذا الاستنتاج؟ أنت لم تعتقد قط أن دوق لا روش هو من ارتكب الجريمة؟".

فقال بوارو بهدوء: "بل كانت لدى شكوك، وقد سبق أن قلت لك هذا كثيراً؛ فالسرقة تتضمن عنفًا وقتلاً" هز رأسه بشدة – "لا، من الصعب تصور هذا - فهذا أمر لا يتواءم مع شخصية الدوق لا روش".

"لكنك تعتقد أنه مَنْ سرق الماسات؟".

"بالطبع. هذا لا شك فيه. اسمع، سأعرض لك الأمر كما أراه. إنَّ دوق لا روش علم بأمر الماسات وأعد خطة ليسرقها. لقد اخترع قصة رومانسية عن أنه يؤلِّف كتاباً؛ حتى يغرى ابنتك بإحضار الماسات معها. وقد جهز نسخة مقلدة مطابقة من الماسات. ومن الواضح أن ما كان يسعى خلفه هو إبدال المقلَّدة بالحقيقية. وابنتك لم تكن خبيرة فى أمر المجوهرات. وبالتأكيد سيمر وقت طويل قبل أن تكتشف حقيقة ما جرى. وحتى حين تكتشف الحقيقة، فلن تتَّهم الدوق لا روش. فلديه ما يسكتها. فبحوزته العديد من رسائلها إليه. لقد كانت خطة محكمة من وجهة نظر الدوق – تشبه العديد من الخطط التى نفذها من قبل".

فقال فان ألدن وهو مقتنع بما سمع: "يبدو هذا صحيحاً تماماً".

فقال بوارو: "هذا ما يوافق طبيعة شخصية الدوق لا روش".

نظر فان ألدن إلى بوارو متقصِّياً، وقال: "نعم، لكن الآن – ما الذى جرى بالضبط؟ أخبرنى يا سيد بوارو".

فهز بوارو كتفيه، فى لا مبالاة.

وقال: "الأمر بسيط جداً، أحدهم سبق الدوق فى دخول الغرفة".

توقفا عن الكلام لحظات.

بدا فان ألدن وكأنه يعيد ترتيب الأوضاع فى رأسه من جديد. وحين بدأ الحديث، لم يدُر حول الموضوع، وقال: "منذ متى وأنت تشك فى زوج ابنتى يا سيد بوارو؟".

"منذ البداية؛ فلديه الدافع والفرصة. لقد سلَّم الجميع بأن الرجل الذى كان فى غرفة السيدة كان الدوق لا روش. وقد ظننت أنا أيضاً ذلك. حتى صادف أن أخبرتنى أنك ذات مرة خلطت بين الدوق لا روش وزوج ابنتك. ساعتها علمت أنهما فى ذات الطول والبنية وذات اللون تقريباً؛ فدارت بعقلى بعض الأفكار. لقد كانت مدة عمل الخادمة مع السيدة محدودة. ويبدو أنها لم تكن تميِّز السيد كيترينج جيداً؛ بما أنه لم يكن يسكن معهما فى شارع كارسون، إضافة إلى أنَّ الرجل الذى كان بالغرفة حرص على مواراة وجهه".

فقال فان ألدن فى غلظة: "هل تظن أنه مَنْ قتلها؟".

فرفع بوارو يده بسرعة.

"لا، لا، أنا لم أقل ذلك – لكن ذلك يعد احتمالاً – لكنه احتمال قوى جداً. لقد كان فى ورطة شديدة، الفضيحة تتهدَّده. وكان ذلك مخرجه منها".

"لكن لماذا سرق الماسات؟".

"لكى تبدو الجريمة كتلك التى اعتاد لصوص القطارات القيام بها، وإلا انصرف نحوه الاتهام مباشرة".

"فإن كان هذا صحيحاً، فماذا فعل بالماسات؟".

"يظل هذا قيد الفحص؛ فهناك العديد من الاحتمالات. فثمة رجل فى نيس يمكنه تقديم العون لنا؛ ذلك الذى أشرت له فى ملعب التنس".

نهض بوارو وكذلك فان ألدن الذى قام بدوره ووضع يده على كتف الرجل الضئيل، وتحدَّث بصوت قاس.

"جِدْ لى قاتل روث، هذا كل ما أطلبه".

مطَّ بوارو قامته وهو يقول فى استعلاء:

"دع الأمر لهيركيول بوارو. لا تقلق فسوف أجد القاتل".

مسح ذرة غبار على قبعته، ثم ابتسم لفان ألدن مطمئناً إياه، وغادر الغرفة. لكنه بعدما غادر الغرفة، غادرت وجهه بعض علائم الثقة التى كانت تكسوه.

غمغم مع نفسه قائلاً: "حسنًا، لكن هناك عقبات. نعم عقبات ضخمة جداً". وبينما كان فى طريق خروجه من الفندق توقَّف فجأة؛ فأمام الباب توقفت سيارة كان بداخلها كاثرين جراى، وبجانب السيارة كان ديريك كيترينج واقفاً يتحدث إليها فى شغف. وبعد دقيقة أو نحوها انطلقت السيارة وظل ديريك على الرصيف يودِّعها ببصره. كان التعبير المرتسم على وجهه غريباً جداً. حرَّك كتفيه فجأة فيما يبدو نفاد صبر، وتنهَّد بعمق، ثم استدار ليجد هيركيول بوارو خلفه تماماً. فجزع رغمًا عنه. نظر كلا الرجلين للآخر. بوارو نظر بثبات وحزم، أما ديريك فنظر باستخفاف مفرط. حين تحدَّث ظهرت فى حديثه رنة السخرية، وقد رفع حاجبه قليلاً خلال ذلك.

سأل فى بساطة: "فتاة لطيفة، أليس كذلك؟".

كان طبيعياً جداً فى طريقته.

فقال بوارو متأملاً: "بلى، هذا هو الوصف المناسب تماماً للآنسة كاثرين. إنه وصف إنجليزى صرف، وكذلك الآنسة جراى، إنجليزية صرفة".

ظل ديريك على هدوئه التام ولم يجب.

"وهى عاطفية أيضاً، أليس كذلك؟".

فقال ديريك: "نعم، ليس هناك الكثير من عيِّنتها".

كان يتحدَّث بهمس كما لو أنه يحدِّث نفسه، وأومأ بوارو متفهماً، ثم مال نحو محدِّثه، وقال فى نبرة صوت مغايرة، نبرة صوت هادئة، وجادة، وغريبة على ديريك كيترينج.

"المعذرة يا سيدى؛ فرجل عجوز مثلى قد يتفوَّه بكلام يبدو فظاً. ثمة مثل إنجليزى أود تذكيرك به، يقول: "تخلَّص من حبك القديم قبل أن تبدأ قصة حب جديدة".

فالتفت نحوه ديريك غاضباً.

"ما الذى تعنيه؟".

فقال بوارو بهدوء: "لقد غضبت منى كما توقَّعت. بالنسبة لما أعنى – أنا أعنى سيدى، أنَّ ثمة سيارة ثانية وبها سيدة، ولو التفت لرأيتها".

فاستدار ديريك فى حدة؛ فأظلم وجهه بالغضب.

غمغم قائلاً: "ميريلى، لعنها الله. فى الحال سوف ـــــ".

أوقفه بوارو عما اعتزم.

وسأله محذراً: "هل من الحكمة أن تفعل هذا؟". كانت عيناه تشعان فى نعومة باللون الأخضر الذى تلوَّنت بهما. لكن ديريك قد تجاوز غضبه كل علامات التحذير من بوارو؛ فهو فى غضبه لا يراعى شيئاً.

صاح غاضباً: "لقد قطعت كل علاقة لى بها".

"قطعت علاقتك، هذا صحيح. لكن هل قطعت هى علاقتها بك؟".

فضحك ديريك ضحكة جافة مفاجئة.

"هى لن تقطع علاقتها بمليونى جنيه إسترلينى؛ تلك هى ميريلى حقاً".

فرفع بوارو حاجبيه.

وقال مغمغماً: "نظرتك متشائمة".

فرد ديريك بابتسامة واسعة: "حقاً! سيد بوارو لقد عشت فى هذا العالم بما يكفى لكى أعلم حقيقة كل النساء على وجه اليقين"، ثم لانت ملامح وجهه فجأة، وتابع: "إلا واحدة".

لاقت عيناه عينى بوارو فى تحدٍ. وظهر فى عينيه الاهتمام للحظات قبل أن يتلاشى ثانية، ثم قال وهو يدير وجهه نحو كاب مارتين: "تلك المرأة".

فقال بوارو: "أها!".

ثم صمت للحد الذى عرف أنه سيثير محدِّثه.

فقال ديريك: "أعلم ما سوف تقوله. عن نوع الحياة التى حييتها، وحقيقة أننى لا أستحق امرأة مثلها. سوف تقول إنَّه لا يحق لى أن أطلب ودَّها. أعلم أنه ليس من الأدب حديث كهذا وزوجتى قد تُوفيت منذ أيام قلائل، وقد وجدت مقتولة على هذا النحو".

توقَّف ليلتقط أنفاسه، فاستغل بوارو هذه اللحظات ليقول فى نبرة مواساة:

"لكننى بالطبع، لم أقل شيئاً من ذلك".

"لكنك ستقول ـــــــ".

فقال بوارو: "ماذا أقول؟".

"ستقول إنَّه ليس لى من فرصة على الإطلاق للزواج من كاثرين".

فقال بوارو: "كلا، لن أقول ذلك. صحيح أنَّ سمعتك سيئة، لكن هذا لا يعنى شيئاً للنساء؛ فإن كنت رجلاً ذا شخصية رائعة، وذا أخلاق صارمة فلا تفعل ما لا يجب فعله وتفعل تقريباً كل ما يجب فعله – إيه، حسناً – هنا قد تتوفَّر لدى شكوك كبرى فى نجاحك فيما تسعى إليه؛ فالقيمة الأخلاقية فى الحب - كما تعلم - ليست أمراً رومانسياً. لكنَّها مُقدَّرة عند الأرامل".

حدَّق إليه كيترينج لحظات، ثم استدار على عقبيه واتَّجه نحو السيارة المنتظرة.

ودَّعه بوارو بنظرة اهتمام. رأى تلك المرأة الفاتنة تميل خارج السيارة وتتحدَّث.

لم يتوقف ديريك. فقد اعتمر قبَّعته ومر بجوار السيارة مباشرة.

قال هيركيول بوارو: "حسنًا، إذن. أظن أنه قد حان وقت عودتى".

وجد بوارو خادمه يقوم - فى هدوء - بكىِّ بعض البناطيل.

قال له: "يوم جميل يا جورج. مرهق بعض الشىء، لكن لا بأس به".

تلقَّى جورج ملاحظات سيده بجموده المعتاد، وقال:

"بالطبع يا سيدى".

"شخصية المجرم يا جورج، لافتة للانتباه حقاً؛ فكثير من المجرمين هم أصحاب شخصيات أخَّاذة فعلاً".

لطالما سمعت يا سيدى، أنَّ الدكتور كريبين كان رجلاً طيب السيرة، ورغم هذا فقد قطَّع جسد زوجته كقطعة لحم مفروم".

"دائماً تذكر الأمثال المناسبة يا جورج".

لم يجب الخادم، وفى اللحظة ذاتها دق جرس الهاتف. فالتقط بوارو سمَّاعته.

"ألو – ألو – نعم، نعم، أنا هيركيول بوارو".

"أنا نايتون، هلّا انتظرت على الخط للحظات يا سيد بوارو؛ فالسيد فان ألدن يود الحديث إليك".

ساد الصمت لحظات على الهاتف، ثم أتاه صوت المليونير.

"سيد بوارو، أردت فقط أن أخبرك بأن ماسون أتتنى الآن من تلقاء نفسها. لقد فكَّرت بإمعان، وخَلُصَت تقريباً إلى أنَّ الرجل الذى رأته فى باريس هو ديريك كيترينج؛ فثمة شىء مألوف كان لديه فى حينها، لكنها لم تستطع تحديده. إنها الآن أكثر يقيناً".

فقال بوارو: "آه، حسنًا. شكراً يا سيد فان ألدن؛ فهذا يتقدَّم بنا كثيراً فى القضية".

وضع سماعة الهاتف، وظل واقفاً لدقيقة أو اثنتين وعلى وجهه ابتسامة غريبة جداً. ولم يرد على جورج إلا بعد أن ناداه مرتين.

قال بوارو: "ماذا؟ ماذا كنت تقول لى؟".

"كنت أسأل سيدى، إن كنت ستتناول غداءك هنا أم ستخرج؟".

فقال بوارو: "لا هذا، ولا ذاك. سوف أذهب للنوم. لقد وقع ما كان متوقعاً، وحين يقع المتوقع، أشعر بإثارة كبيرة!".

الفصل الخامس والعشرون

التحدِّى

حين مر ديريك كيترينج بجوار السيارة، مالت ميريلى خارجها، ونادت:

"ديريك، أريد أن أحادثك لحظات".

لكن ديريك اعتمر قبَّعته ومرَّ دون أن يتوقف.

حين عاد إلى الفندق، خرج البوَّاب من كشكه الخشبى وتبعه.

"هناك ضيف فى انتظارك يا سيدى".

فسأل ديريك: "من هو؟".

"لم يذكر اسمه، لكنه ذكر أنه يريدك فى أمر مهم وسوف ينتظرك".

"وأين هو؟".

"فى الردهة الصغرى. لقد فضَّل المكوث فيها على بهو الفندق؛ حيث قال إنَّها أكثر خصوصية".

أومأ ديريك برأسه، ثم سار فى ذلك الاتجاه.

كانت الصالة الصغرى خالية إلا من ذلك الزائر، الذى نهض وانحنى فى حفاوة غير إنجليزية حين دخل عليه ديريك. صادف أن ديريك كان قد قابل دوق لا روش مرة واحدة قبل الآن، إلا أنه لم يجد صعوبة فى تمييز ذلك الأرستوقراطى، وتجهَّم غاضباً؛ فهذا هو تمام الوقاحة.

قال ديريك: "أنت دوق لا روش؟ أخشى أنك ضيَّعت وقتك بالقدوم إلى هنا".

فقال الدوق فى قبول، وقدأظهرت ابتسامته التماع أسنانه: "أرجو ألا أكون كذلك".

سحر الدوق على بنى جنسه كان منعدماً؛ فكل الرجال بلا استثناء يبغضونه من القلب. ديريك كيترينج كانت تنتابه بالفعل رغبة جامحة فى أن يلقى به إلى خارج الغرفة. لم يكبح جماحه سوى إدراكه أنَّ الفضيحة لن تكون شيئاً مناسباً فى هذا التوقيت. وقد تعجَّب ثانية من أن روث كانت تهتم بشخص مثله؛ إنه رجل خسيس، بل هو أسوأ من ذلك. جعل ينظر فى تقزز إلى يدى الدوق المشذبة بعناية.

قال الدوق: "لقد جئت فى أمر مهم، ويحسن بك الاستماع إلىَّ".

ومرة أخرى ازدادت رغبة ديريك فى أن يرمى به خارج الغرفة، ومرة أخرى تراجع. لم تفته نبرة التهديد فى حديثه، لكنه برَّرها على طريقته. كان هناك العديد من الأسباب التى تجعل من الأفضل الاستماع لما يود الدوق قوله.

جلس، وجعل يدق بأصابعه على الطاولة فى نفاد صبر.

قال بحدة: "حسناً، ما الأمر؟".

ولم تكن من عادة الدوق أن يشرع فيما يريد مباشرة.

"اسمح لى سيدى أن أقدِّم مواساتى فى مصابك".

فقال ديريك فى هدوء: "لو تفوَّهت بأى وقاحة، فسوف أرمى بك من النافذة".

أشار برأسه نحو النافذة التى بجوار الدوق، الذى تحرك فى اضطراب.

قال فى اختيال: "سأرسل لك أصدقائى إن كان هذا ما تريد".

فضحك ديريك.

"تريد عراكاً يا عزيزى الدوق؟ لن آخذ هذا على محمل الجد منك، لكننى سأكون سعيداً وأنا أرمى بك خارج بروميناد دى أنجليز".

لم يبال الدوق؛ إلا أنه رفع حاجبه وغمغم:

"برابرة هم الإنجليز".

فقال ديريك: "حسنًا، ما الذى تريد قوله لى؟".

قال الدوق: "سأكون صريحاً، وسآتيك بلب الأمر مباشرة؛ فهذا هو الأنسب لكلينا، أليس كذلك؟".

ومرة أخرى ابتسم ابتسامته البهيجة المعتادة.

فقال ديريك فى غلظة: "أكمل".

نظر الدوق إلى السقف، وجمع بين أطراف أصابعه، وقال فى هدوء:

"لقد وقعتَ على مال كثير".

"وما شأنك أنت بهذا؟".

اعتدل الدوق، ثم قال:

"سيدى، لقد تلوَّث اسمى! فأنا مشتبه به فى هذه القضية".

فقال ديريك ببرود: "إنَّ الاتهام لم يصدر منى، فكطرف مستفيد ليس لى أن أدلى برأيى فيها".

فقال الدوق: "إننى برىء، أقسم بالله" – رفع يديه إلى السماء – أقسم بالله إننى برىء".

فقال ديريك بلطف: "السيد كاريج هو قاضى التحقيقات فى هذه القضية حسب علمى".

لم يلتفت الدوق لعبارته.

"ليس الأمر مقصوراً فقط على اتهامى ظلماً، لكننى أيضاً فى حاجة شديدة للمال".

ثم سعل فى همس وعلى نحو موحٍ.

فنهض ديريك.

ثم قال هامساً: "كنت أنتظر ذلك، تريد ابتزازى! لكننى لن أعطيك بنساً واحداً. زوجتى قد ماتت، ولم تعد أى فضيحة لتنال منها. أنا على يقين أنها ربما كتبت لك بعض الرسائل الحمقاء. ولو أننى أردت شراءها منك هذه اللحظة، سوف تتمكن من استبقاء واحدة منها أو اثنتين، ودعنى أقل لك سيد دى لا روش، إنَّ الابتزاز كلمة قبيحة فى إنجلترا وفى فرنسا على السواء؛ وذلك ردِّى، عمت مساء".

فقال الدوق ماداً يده، بينما كان ديريك يستدير للمغادرة "لحظة، أنت مخطئ يا سيدى. أنت مخطئ تماماً؛ فأنا رجل "نبيل" حسب ظنى". ضحك ديريك: "فأى رسائل كتبتها لى السيدة ستظل مقدَّسة لدىَّ". وأشاح برأسه فى لمحة نبل لطيفة: "إن ما أعرضه عليك مختلف تماماً. أنا - كما سبق وقلت - فى ضائقة مالية شديدة، وضائقتى قد تدفعنى للذهاب إلى الشرطة والإدلاء ببعض المعلومات".

عاد ديريك ببطء إلى الغرفة.

"ماذا تعنى؟".

التمعت ابتسامة الدوق البشوشة مرة أخرى.

قال: "لن نخوض فى التفاصيل، لكن فكَر بمَنْ المستفيد من الجريمة، أليس هناك ما يقولونه؟ وكما قلت تواً لقد وقعت على قدر كبير من المال".

ضحك ديريك.

قال فى ازدراء: "إنَّ كان كل ما ـــــ".

لكن الدوق هز رأسه.

"لكن هذا ليس كل شىء يا عزيزى؛ فما كنت لآتى إليك دون أن تكون لدىَّ معلومات أدق من هذه. ليس من الملائم لك أن يُقْبَض عليك وتُحَاكَم بتهمة القتل يا سيدى".

اقترب منه ديريك والغضب يتطاير من وجهه؛ مما جعل الدوق يتراجع خطوتين تلقائياً.

فقال ديريك مغضباً: "هل تهددنى؟".

فقال الدوق مطمئناً: "لن تسمع المزيد عن ذلك".

"من بين كل الترهات العظمى التى صادفتنى ـــــ".

فرفع الدوق يده البيضاء.

"أنت على خطأ. هذه ليست ترهات. ولكى تقتنع اسمع هذا. إنَّ ما لدىَّ من معلومات قد حصلت عليها من سيدة محدَّدة. سيدة تحمل الدليل الذى لا جدال فيه بأنك من ارتكب الجريمة".

"من تلك السيدة؟".

"الآنسة ميريلى".

تراجع ديريك وكأنه صُدِم.

غمغم: "ميريلى".

فأسرع الدوق ليلح على ما بدا فرصته.

وقال: "مائة ألف فرنك، ولن أطلب غيرها".

فقال ديريك فى شرود: "ماذا؟".

"كنت أقول سيدى، إنَّ مائة ألف فرنك سوف تريح ضميرى".

بدا أن ديريك يستجمع ذاته، ونظر بحدة إلى الدوق.

"هل تريد جوابى على هذا الآن؟".

"إذا تفضَّلت؟"

"فاسمعه إذن، اذهب للجحيم".

استدار ديريك وغادر الغرفة، تاركاً الدوق فى اندهاش منعه من الحديث.

بمجرد أن خرج من الفندق، أشار إلى سيارة أجرة وقصد الفندق الذى تنزل به ميريلى. وبالسؤال، علم أنها قدِمَت لتوِّها، فأعطى ديريك بطاقته للبوَّاب.

"أعط هذه للآنسة، واطلب منها مقابلتى".

دقائق قليلة، وبعدها اصطحب أحد الخدم ديريك إلى الداخل.

موجة من عطر رائحته نفاذة ملأت أنفه، وهو يخطو نحو جناح ميريلى. كانت الغرفة مليئة بالقرنفل، والأوركيدا، والميموزا. وكانت ميريلى تقف بجوار النافذة ترتدى ثوباً فضفاضاً مزيناً بنطاق.

سارت باتجاهه، مادة يديها.

"ديريك – لقد أتيت، كنت على يقين من ذلك".

دفع يديها جانباً، ونظر إليها فى عبوس.

"لم أرسلت دوق لا روش إلىَّ؟".

فنظرت إليه فى اندهاش، بدت له صادقة.

"أنا؟ أرسلت لك دوق لا روش؟ لماذا؟".

فقال ديريك مغتماً: "للابتزاز، كما هو واضح".

ومرة أخرى حدقت إليه، ثم ابتسمت فجأة، وأومأت برأسها.

"طبعاً. كان هذا مُتوقعاً. هذا بالفعل هو ما يمكن أن يفعله. كان علىَّ أن أدرك ذلك. لكن لا يا ديريك، أنا لم أرسله".

نظر إليها بحدة شديدة؛ كما لو أنه يريد قراءة ما فى عقلها.

قالت ميريلى: "سأخبرك بما جرى. إنه مخز، لكنى سأخبرك. فى ذلك اليوم، تعلم أنى كنت فى قمة غضبى" وقامت بإشارة بليغة تشرح مشاعرها: "لقد أردت الانتقام منك؛ ولذا ذهبت إلى دوق لا روش، وقلت له أن يذهب إلى الشرطة ويقول لهم كذا وكذا. لكن لا تخف على الإطلاق ديريك؛ فأنا لم أفقد عقلى تماماً؛ فالدليل لدى أنا فقط. ولا يمكن للشرطة أن تفعل شيئاً دون إفادة منِّى، هل تفهمنى؟ والآن ـــــ".

اقتربت منه، ونظرت إليه بعينين رقيقتين.

دفعها بعيداً عنه بعنف؛ فوقفت فى مكانها، وصدرها ينتفض، وعيناها تضيقان مثل قطة.

"حذار يا ديريك، حذار. لقد عدت إلىَّ ثانية، أليس كذلك؟".

فقال ديريك بحسم: "أنا لن أعود إليك مطلقاً".

"آه!".

اقتربت ميريلى شبهاً بالقطة أكثر من أى لحظة مضت. وبدأت أجفانها ترفَّان.

"إذن فهى امرأة أخرى؟ تلك التى تناولت غداءك معها. ألست محقَّة؟".

"إننى أنوى طلبها للزواج. ربما تعرفين هذا أيضاً".

"تلك الفتاة الإنجليزية المتزمِّتة! وهل تظن أنى سأرضى بهذا؟ بالقطع لا". كان جسدها الجميل يرتجف. "اسمع يا ديريك، هل تذكر ذلك الحوار الذى دار بيننا فى لندن؟ لقد قلت إنَّ الشىء الوحيد الذى ينقذك هو وفاة زوجتك، وشعرت بالحسرة؛ لأنها بصحة جيدة تماماً. ثم خطرت ببالك فكرة وقوع حادث، بل ما يجاوز الحادث".

فقال ديريك: "وأفترض أنَّ هذه المحادثة هى ما كررتِها للدوق".

فضحكت ميريلى وقالت:

"هل ترانى حمقاء؟ هل للشرطة أن تفيد من قصة مبهمة كهذه؟ اسمع، سوف أمنحك فرصة أخيرة. عليك أن تهجر تلك المرأة، وعليك أن تعود إلىَّ. بعد ذلك، لن أنبس ببنت شفة ـــــ".

"بماذا؟".

ضحكت بنعومة: "هل تظن أن أحداً لم يرك – ".

"ماذا تقصدين؟".

"كما قلت، أنت تظن أنَّ أحداً لم يرك – لكننى رأيتك ديريك حبيبى، لقد رأيتك تخرج من قمرة زوجتك قبل أن يصل القطار مباشرة إلى ليون تلك الليلة. بل إنى أعلم أكثر من ذلك. أعلم أنَّك حين خرجت من عندها كانت ميِّتة".

حدَّق إليها. وكمن يحلم، استدار وسار إلى خارج الغرفة، مترنِّحًا قليلاً فى مشيته.

الفصل السادس والعشرون

تحذير

قال بوارو: "هكذا إذن، نحن صديقان مقرَّبان ولا نخفى أسراراً عن بعضنا البعض".

استدارت كاثرين برأسها نحوه. كان ثمة شىء فى نبرة صوته، ثمة جدِّية مبطَّنة لم تعتدها منه.

كانا يجلسان فى حديقة مونت كارلو. كانت كاثرين قد قَدِمت مع أصدقائها وانضموا جميعاً لنايتون وبوارو بمجرد وصولهما. السيدة تامبلين عملت على حصار نايتون وأغرقته بأحاديث الذكريات، والتى كان لدى كاثرين شكوك فى مدى صدقيتها. سارا بعيداً: تامبلين وقد تأبطت ذراع نايتون، ونايتون يستدير برأسه ويرمق كاثرين، التمعت عينا بوارو وهو يرى ذلك.

قالت كاثرين: "بالطبع نحن أصدقاء".

فقال بوارو: "منذ البداية وكل منَّا يتعاطف مع الآخر".

"منذ أن قلت لى إنَّ الروايات البوليسية تحدث على أرض الواقع".

"وكنت محقاً أليس، كذلك؟". رفع لها إصبعاً فى إشارة تحد. "فها نحن نعيش إحداها. وهذا أمر طبيعى بالنسبة إلىَّ؛ فهذا عملى، أما بالنسبة إليك فالأمر مختلف. نعم". وأضاف لصوته نبرة تأملية: "الأمر مختلف بالنسبة إليك".

نظرت إليه فى حدة. بدا وكأنه يحذِّرها، ويشير إليها نحو تهديد لا تكاد تراه.

"لمَ تقول إنَّنى مرتبطة بهذه القضية؟ صحيح أننى تحدَّثت مع السيدة كيترينج قبل وفاتها مباشرة، لكن الآن – الآن انتهى الأمر. ولم أعد مرتبطة بهذه القضية على أى نحو".

"أوه، آنستى، من منَّا يستطيع الحكم بأنه خلص من هذا أو ذاك؟".

فاستدارت كاثرين كليَّة لتواجهه.

وسألت: "ما الأمر؟ أنت تحاول إخبارى بشىء، لكنى لا أجيد فهم التلميحات. وأفضِّل لو أنك قلت ما تريد على نحو مباشر".

فنظر إليها بوارو بأسى. وقال: "يا لهؤلاء الإنجليز الطيبين، يأخذون كل شىء بمبدأ الأبيض والأسود، كل شىء لابد أن يكون واضحاً ومحدداً. لكن الحياة لا تسير دوماً على هذا النحو. هناك

أمور تَلقِى بظلال قبل حدوثها فعلاً".

ربت على حاجبه بمنديل جيب حريرى كبير، وقال:

"آه، يبدو أننى أفرطت فى حديث نظرى. لنبدأ حديث الحقائق، ولا شىء سوى الحقائق. أخبرينى عما ترينه فى الماجور نايتون".

فقالت كاثرين فى دفء: "أحبه كثيراً بالطبع؛ إنه رجل لطيف فعلاً".

فتنهَّد بوارو.

فسألت كاثرين: "ما الأمر؟".

قال بوارو: "أنت تردِّين بمودة شديدة. لو أنك رددت بنبرة صوت مغايرة، كأن تقولى مثلاً: "أوه، إنه رجل لطيف - لكنت أكثر سعادة بهذه الإجابة".

لم ترد كاثرين. كانت تشعر بعدم ارتياح. وتابع بوارو حديثه الحالم:

"لكن مَنْ يدرى؟ فللنساء طرقهن فى إخفاء مشاعرهن، وإظهار الشغف قد يبدو إحداها".

ثم تنهَّد.

فقالت كاثرين: "أنا لا أفهم ـــــ".

فقاطعها.

"لا تفهمين ما يدفعنى للحديث بهذا التجاسر، أليس كذلك؟ إننى رجل كبير السن، وبين حين وآخر يصادفنى من أهتم لأمره. نحن أصدقاء آنستى، قلت ذلك بنفسك. والأمر أننى أريد أن أراك سعيدة".

حدقت كاثرين ببصرها إلى الفراغ. كان معها مظلة من الكريتون فجعلت بطرفها تخط خطوطاً فى حصى الأرض أسفل قدميها.

"لقد سألتكِ سؤالاً عن الماجور نايتون، والآن سأسألك سؤالاً آخر. هل تحبين السيد ديريك كيترينج؟".

فقالت كاثرين: "أنا بصعوبة أعرفه".

"هذه ليست إجابة لسؤالى".

"بل أظنها كذلك".

نظر إليها، منذهلاً من شيء أحس به فى نبرة صوتها، ثم أخذ يومئ برأسه فى رزانة وبطء.

"ربما تكونين على حق آنستى، لكن اسمعى، أنا ذلك الذى يتحدث إليك، رأيت الكثير فى هذا العالم، وتأكَّد لدىَّ صدق شيئين اثنين. الرجل الطيب قد ينهار لحبه امرأة سوء، لكن الوجه الآخر صحيح أيضاً. فالرجل السيئ ينهار لحبه امرأة صالحة".

فتطلَّعت نحوه بحدة.

"أنت تقول ينهار ـــــ".

"أعنى الانهيار من وجهة نظره؛ فالمرء يخلص فى ارتكاب جريمة، كما يخلص فى فعل كل شيء".

قالت كاثرين بصوت خفيض: "أنت تريد تحذيرى، فممن؟".

"لا يمكننى الدخول إلى قلبك يا آنسة، ولا أظنُّك تسمحين لى إن استطعت. فقط أقول لك إنَّ هناك رجالاً يملكون سحراً غريباً على النساء".

فقالت كاثرين بابتسامة: "تقصد الدوق لا روش".

"هناك آخرون – آخرون أخطر من دوق لا روش. آخرون يتميَّزون بالتهوُّر، والجرأة، والتجاسر. أنت مغرمة آنسة، يمكننى رؤية ذلك، لكنى آمل ألا يزيد الأمر على ذلك. إنَّ الرجل الذى أقصده، مشاعره نحوك صادقة، لكن مع هذاـــــ".

"ماذا؟".

نهض من مجلسه ونظر إليها، ثم قال فى صوت خفيض ومختلف:

"ربما يمكنك الوقوع بحب سارق، لكن ليس بقاتل".

استدار بشكل مباغت وغادر تاركاً إياها جالسة بمكانها.

سمع شهقتها، لكنه لم يلق بالاً؛ فقد قال ما أراد قوله. وتركها لتستوعب تلك الكلمة التى لا يمكن الخلط فى فهمها.

وبينما كان ديريك كيترينج خارجاً من كازينو، رآها تجلس وحيدة؛ فانضم إليها.

قال بضحكة خفيفة: "كنت ألعب. لم تكن محاولة ناجحة؛ فقد خسرت كل ما كان معى".

نظرت إليه كاثرين بوجه مضطرب. لقد لاحظت فى التو شيئاً مختلفاً فى أسلوبه، رأت إثارة مخفاة تحاول عدم الظهور بآلاف من الإشارات الدقيقة.

"كان ينبغى أن أخمِّن أنَّك تحب اللعب، فروح المنافسة تناسِبُك".

ومع ظنِّها بالهدوء والجمود، شعرت كاثرين برجفة خفيفة انتابتها.

تابع ديريك حديثه: "أريد الحديث معك، من يدرى؛ فلعلى لا أجد فرصة كهذه بعدها. ثمة قول يسرى بأننى من قتلت زوجتى – لا، لا تقاطعيننى، أرجوك. القول سخيف بالطبع". توقَّف لدقيقة أو اثنتين، ثم تابع حديثه بترو أكبر: "فى تعاملى مع الشرطة والسلطات المحلية هنا أكون مضطراً للادِّعاء – حسناً – الادعاء ببعض الأدب. لكننى أفضِّل ألا أكون مدعياً معك، لقد كنت أسعى وراء المال حين قابلت روث فان ألدن للمرة الأولى. كانت تشبه العذراء فى براءتها، وقد اتخذت كل القرارات المناسبة، لكننى خُدِعْت بشدة. فزوجتى كانت تحب شخصاً آخر حين تزوجتنى. لم تكن تحبنى فى أى وقت. أوه أنا لا أشتكى؛ فقد كانت معادلة متكافئة تماماً. هى أرادت اسم ليكونبرى، وأنا أردت المال. لكن المشكلة نشأت بسبب الروح الأمريكية لدى روث؛ فهى دون أن تهتم لأمرى لحظة، كانت ترغب فى مواصلتى لمرافقتها فى الحفلات. ومرة بعد مرة فهمت منها أنها اشترتنى وأننى من بعض ملكيَّتها. وكانت النتيجة أننى عاملتها بتحقير شديد. وسوف يخبرك حماى بهذا، وهو صادق فى قوله تماماً. فى الوقت الذى ماتت فيه روث كنت أواجه كارثة محققة" ضحك فجأة: "إنَّ المرء ليواجه كارثة محقَّقة إذا كان خصمه هو فان ألدن".

سألت كاثرين فى صوت خفيض: "ثم ماذا؟".

فهز ديريك كتفيه: "ثم قُتِلَتْ روث – بقدر الله".

ضحك؛ فساء كاثرين صوت ضحكه، وجفلت.

فقال ديريك: "نعم، يبدو الأمر غير لطيف بالمرة، لكنه حقيقى. والآن، دعينى أخبرك بأمر آخر. إننى من اللحظة الأولى التى رأيتك فيها علمت أنك لى من بين كل نساء العالم. لقد – لقد كنت خائفاً منك؛ فقد ظننت أنك قد تجلبين لى الحظ السيئ".

فقالت كاثرين بحدة: "الحظ السيئ؟".

حدَّق إليها ثم قال: "لم تكررين الكلمة على هذا النحو؟ ما الذى خطر ببالك؟".

"فكرت بأشياء قالها الناس لى؟".

ابتسم ديريك فجأة: "سيقولون عنى الكثير عزيزتى، ومعظم قولهم صحيح. بل هناك أسوأ مما يقولون – أشياء لن أقصها عليك قط. فلطالما كنت مقامراً – مع احتمالات ربح طفيفة. إننى لن أعترف لك الآن ولا فى أى وقت آخر؛ فقد مر الماضى بما فيه. لكن شيئاً واحداً أريد منك أن تصدِّقينى فيه. أقسم لك مخلصاً أننى لم أقتل زوجتى".

كان فى عبارته من الحماسة ما يكفى لتصديقه، لكن ثمة لمسة مسرحية فى طريقة حديثه. لاحظ نظرتها المضطربة، ثم تابع:

"نعم. لقد كذبت فى اليوم التالى؛ فقد دخلت قمرتها".

فقالت كاثرين: "آه!".

"من الصعب أن أشرح لك سبب دخولى، لكننى سأحاول. لقد قررت ذلك بشكل لحظى. كنت على متن القطار لمراقبتها بشكل أو بآخر. وقد حاولت البقاء بعيداً عن الأنظار على متن القطار. كانت ميريلى قد أخبرتنى بأن زوجتى ذاهبة للقاء دوق لا روش فى باريس. ولغاية ما لم يحدث هذا اللقاء. شعرت بالخزى، وفكرت فجأة أنه سيكون من الخير أن أفاتحها فى الأمر مرة أولى ونهائية؛ ولذا دفعت الباب ودخلت".

توقَّف عن الحديث.

فقالت كاثرين فى لطف: "أكمل".

"كانت روث نائمة على سريرها، ووجهها فى الجهة المقابلة – كنت فقط أرى رأسها من الخلف. وكنت لأوقظها بالطبع. لكننى تراجعت فجأة؛ فبالمحصلة النهائية، ما الذى يمكن قوله ولم يقله كلانا للآخر مئات المرات؟ لقد بدت فى مرقدها مسالمة تماماً؛ فغادرت الغرفة بهدوء قدر الإمكان".

سألت كاثرين: "فلماذا كذبت على الشرطة؟".

"لأننى لست أحمق تماماً؛ لقد أدركت من البداية، أنه من ناحية الدافع، سأكون أنا القاتل المنطقى تماماً؛ فلو اعترفت لمرة واحدة أننى دخلت قمرتها قبل مقتلها مباشرة، أكون قد قضيت على نفسى".

"أفهمك".

هل فَهِمَتْه كاثرين؟ هى لا تستطيع الجزم. إنها تشعر بانجذاب شديد نحو شخصية ديريك، لكنَّ شيئاً ما بداخلها يقاوم هذا الانجذاب...

"كاثرين ـــــ".

"أنا ـــــ".

"تعلمين أننى أحبك؛ فهل – هل تبادلينني نفس الشعور؟".

"لـ - لست أدرى".

إنه الضعف. سواء كانت تدرى أو لا تدرى. لو – فقط لو أن ـــ

زاغت ببصرها فى محيطه بيأس وكأنها تطلب المساعدة. احمرَّ وجهها وهى ترى رجلاً طويلاً وسيماً يهرول بعرجة فى اتجاههما – كان الماجور نايتون.

كان فى صوتها راحة ودفء غير متوقع حين شرعت فى تحيَّته.

نهض ديريك متجهماً، وقد اسودَّ وجهه كغيمة رعدية.

قال ببساطة: "لعل السيدة تامبلين أصابها هياج، سأذهب إليها للتهدئة من روعها".

ثم استدار وغادر، تاركاً إياهما معاً. جلست كاثرين ثانية. قلبها يخفق بشدة، لكن بمجرد أن جلست وبدأت تتبادل بعض عبارات المجاملة مع الرجل الهادئ الخجول الجالس بجوارها، استعادت سيطرتها على نفسها.

وسرعان ما أدركت كاثرين أنَّ نايتون هو الآخر يسعى لكشف ما بقلبه كما فعل ديريك لكن بأسلوب مغاير تماماً.

فقد كان خجولاً ومتلجلجاً، وقد خرجت كلماته متردِّدة ودون فصاحة تساندها.

"منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها – لم أتمكَّن من الحديث مباشرة – لكن السيد فان ألدن قد يغادر فى أى يوم، وربما لن تواتينى فرصة أخرى للحديث. أعلم أنك لا يمكنك الارتباط بى عاطفياً بهذه السرعة – هذا محال. بل لعلها مجرد افتراضات من جانبى. إنَّ لدىَّ بعض الموارد الخاصة، لكن ليست بالكثيرة – لا، أرجوك لا تجيبى الآن؛ فأنا أعلم ما سيكون عليه ردك. لكن فى حال رحلت بشكل مفاجئ أود أن تعلمى أننى – أننى أهتم لأمرك".

لقد اهتزَّت – لقد تحركت مشاعرها. كان أسلوبه فى غاية اللطف والجاذبية.

"هناك أمر آخر. أود فقط أن أقول: إنَّه لو حدث فى أى وقت أن لحِقَتْك فيه بعض المتاعب؛ فأى شىء بإمكانى ـــــ".

تناول يديها بين راحتيه، وضمهما بشدة لدقيقة، ثم تركها وغادر مسرعاً باتجاه كازينو دون أن ينظر خلفه.

جلست كاثرين ساكنة تماماً، تنظر فى إثره. ديريك كيترينج – ريتشارد نايتون – رجلان مختلفان تماماً – مختلفان تماماً. ثمة شىء لطيف فى نايتون، لطيف وصادق. أما بالنسبة لديريك –

فجأة انتاب كاثرين شعور غريب للغاية. لقد شعرت وكأنها لا تجلس وحيدة فى الكازينو، وإنما هناك شخص آخر يقف بجوارها، وأنَّ هذا الشخص روح امرأة متوفاة، إنها روث كيترينج. أكثر من ذلك، إنها شعرت بأن روث أرادت بإلحاح أن تخبرها بشىء. كان شعوراً ملحًّا، حتى إنه كان عصياً على التلاشى. كانت متأكدة تماماً من أن روح روث تحاول أن توصِّل لها شيئاً مهماً للغاية. ثم تلاشى الشعور. نهضت كاثرين، وارتجفت قليلاً. ما الذى أرادت روث أن تبلِّغها إياه؟

الفصل السابع والعشرون

مقابلة مع ميريلى

ترك نايتون كاثرين وذهب باحثاً عن بوارو؛ فوجده فى ساحة اللعب. حين لحق به نايتون ثبتت اللعبة على الرقم ثلاثة وثلاثين وضاع رهان بوارو هباءً.

قال نايتون: "حظ سيئ. هل ستراهن ثانية؟".

فهز بوارو رأسه.

"ليس فى الوقت الحاضر".

فسأل نايتون فى فضول: "هل تشعر بجاذبية نحو اللعب؟".

"ليس فى هذه اللعبة تحديداً".

رمقه نايتون بنظرة خاطفة. كان وجهه مضطرباً؛ فتحدَّث متردداً، وبلمسة من الاحترام.

"هل أنت منشغل يا سيد بوارو؟ ثمة شىء أريد أن أسألك بخصوصه".

"أنا فى خدمتك. هلا خرجنا؟ أظن أنَّ حديثنا فى ضوء الشمس ألطف".

مشيا إلى الخارج معاً، وأخذ نايتون نَفَساً عميقاً.

ثم قال: "إننى أحب الريفييرا. لقد أتيت إلى هنا لأول مرة منذ أحد عشر عاماً؛ وذلك حين نُقِلت إلى مستشفى السيدة تامبلين. كانت مثل فردوس بالنسبة لمن أتى من الفلاندر".

فقال بوارو: "فعلاً".

قال بوارو: " لكم تبدو الحرب بعيدة الأمد الآن؟!".

مشيا فى صمت لبضع دقائق.

ثم قال بوارو: "هل ببالك شىء ما؟".

فنظر إليه نايتون فى دهشة.

قال مقرًّا: "هذا صحيح. إلا أننى لا أدرى كيف عرفت ذلك".

فقال بوارو فى جمود: "ما ببالك يبدو جلياً عليك".

"لم أكن أعلم أنَّك شفاف لهذا الحد".

فقال الرجل الضئيل فى شمم: "إنَّ من عملى أن أراقب ملامح الوجه".

"سوف أخبرك سيد بوارو. تعلم بأمر تلك الآنسة – ميريلى؟".

"تلك التى على علاقة بالسيد ديريك كيترينج؟".

"إنها هى؛ ولعلك لهذا تفهم موقف السيد فان ألدن المسبق منها. لقد كتبت إليه، طالبة منه لقاءها. وقد طلب منى كتابة اعتذار مهذَّب، وهو ما فعلته بالطبع. وهذا الصباح أتت إلى الفندق وأرسلت إلينا بطاقتها، قائلة إنَّ من الملحّ جداً أن يلاقيها السيد فان ألدن فى الحال".

فقال بوارو: "لقد أثرت اهتمامى".

"لقد كان السيد فان ألدن غاضباً. وأبلغنى رسالة أوصلها إليها. وقد تجرَّأت على الاختلاف معه؛ فقد بدا لى محتملاً وممكنًا أن يكون لدى هذه السيدة من المعلومات المهمة ما تعطيه لنا؛ فنحن نعلم أنها كانت على متن القطار، ولعلها رأت أو سمعت شيئاً يهمُّنا معرفته. ألا تتفق معى يا سيد بوارو؟".

فقال بوارو فى جمود: "نعم. ولو جاز لى القول، فإن السيد فان ألدن يتصرَّف بحمق شديد".

فقال السكرتير: "سعيد بأنَّك رأيت الأمر على هذا النحو يا سيد بوارو، ومع شعورى بتصرُّف السيد فان ألدن غير الحكيم؛ فقد نزلت إلى السيدة وقابلتها أنا".

"آه، حسنًا!".

"المشكلة هى أنها أصرَّت على ملاقاة السيد فان ألدن بنفسه. وقد لطَّفت من نبرة رسالته قدر الإمكان. الحقيقة - ولكى أكون صريحاً - لقد عدلتها تماماً. وقلت لها إنَّ السيد فان ألدن فى غاية الانشغال الآن، لكن بإمكانها إيصال ما تشاء إلىَّ. وهذا ما لم تكن مستعدة له؛ فغادرت من دون كلمة إضافية. لكنَّ لدى إحساساً قوياً يا سيد بوارو بأن هذه السيدة تعلم شيئاً".

فقال بوارو بهدوء: "هذا أمر ذو بال، هل تعرف أين تقيم؟".

فقال نايتون: "نعم"، ثم ذكر له اسم الفندق الذى تنزل به.

فقال بوارو: "حسنًا، سنذهب إليها حالاً".

فبدا السكرتير مرتاباً.

سأل متشككاً: "وماذا عن السيد فان ألدن؟".

فقال بوارو بجمود: "السيد فان ألدن رجل متعنِّت. وأنا لا أجادل المتعنتين. بل أعمل بالرغم منهم. سنذهب فى الحال لمقابلة السيدة. وسأخبرها بأنك مُخوَّل من قِبَل السيد فان ألدن بالتصرُّف نيابة عنه، لكن عليك أن تحاذر من مناقضتى فى الحديث".

ظل نايتون على نظرته المتشكِّكة، لكن بوارو لم يلق بالاً إلى تردُّده.

فى الفندق، أُخْبِرا بأن الآنسة موجودة، فأرسل بوارو ونايتون بطاقتيهما، وقد كُتِبَ عليها بالرصاص: "من قِبَل السيد فان ألدن".

أتاهما بأن السيدة سوف تستقبلهما.

وحين تمَّ إرشادهما إلى جناح الآنسة، تقدَّم بوارو المسير.

غمغم، منحنياً انحناءة طفيفة: "آنسة، نحن هنا بالنيابة عن السيد فان ألدن".

"آه! ولماذا لم يأت هو بنفسه؟".

فقال بوارو مدَّعياً: "إنَّه متوعِّك، لقد ألمَّت به آلام الحلق التى تصيب روَّاد الريفييرا، لكننى مُخوَّل بالعمل نيابة عنه، وكذلك الماجور نايتون، سكرتير السيد فان ألدن. هذا إن لم تكونى تنوين انتظار أسبوعين حتى تتمكَّنى من لقائه هو".

إنَّ ثمة ما هو يقينى بالنسبة لبوارو، هو أنَّ كلمة "انتظار" تعنى لعنة بالنسبة لمن فى مزاج كمزاج ميريلى.

فصاحت قائلة: "حسنًا، سأتحدَّث أيها السادة؛ فقد كنت صبورة جداً - وأمسكت يديها - ومن أجل ماذا؟ لأننى أُهنت! نعم أُهنت! هل يظن أنَّ بإمكانه أن يعاملنى على هذا النحو؟ يرمى بى كجورب قديم استنفد أغراضه. لم يسبق لرجل أن سئم منِّى. بل أنا من أسأم منهم!".

قطعت الغرفة جيئة وذهاباً، وجسدها الرشيق يرتَجف من الغضب. طاولة صغيرة كانت تعوق سيرها؛ فقامت بقذفها إلى ركن الغرفة؛ حيث تشظَّت بارتطامها بالحائط.

ثم صاحت قائلة: "هذا ما سوف أفعله به، وهذا أيضاً!".

ثم تناولت قارورة زجاجية وضعت فيها الزنابق، ورمتها نحو حاجز المدفأة فتهشّمت لمئات القطع.

كان نايتون ينظر نحوها باستنكار إنجليزى بارد، وشعر بالارتباك وعدم الارتياح. أما بوارو فقد كان مستمتعاً تماماً بهذا المشهد.

صاح قائلاً: "رائع! من الواضح أنَّ المدام فى حالة مزاجية سيئة".

فقالت ميريلى: "إننى فنَّانة، ولكل فنَّان شططه المزاجى. وقد أخبرت ديريك أن يحذر من شططى، لكنه لم ينصت"، ثم استدارت نحو بوارو فجأة: "أليس صحيحاً أنه يريد الزواج من تلك الفتاة الإنجليزية؟".

فسعل بوارو.

ثم غمغم بالقول: "أوه! إنه مغرم بها بشدة".

سارت ميريلى نحوهما.

وقالت صارخة: "لقد قتل زوجته. ها قد عرفتم! لقد أخبرنى مسبقاً بأنه ينوى فعل ذلك. لقد أراد الخروج من مأزقه! وقد اتَّخذ لذلك أيسر سبيل".

"تقولين إنَّ السيد كيترينج قتل زوجته".

"نعم، نعم، نعم. هذا ما قلته".

فغمغم بوارو قائلاً: "الشرطة تحتاج إلى دليل على هذه الإفادة".

"لقد رأيته وهو يخرج من قمرتها فى تلك الليلة على متن القطار".

فسأل بوارو بحدة: "متى؟".

"قبل وصول القطار إلى ليون مباشرة".

"أتقسمين على ذلك يا آنسة؟".

كان بوارو الذى يتحدَّث مختلفاً بالكليَّة؛ فكان حاداً وحاسماً.

"نعم".

سرى الصمت لحظات. كانت ميريلى تلهث، وعيناها - نصف المتحدية، نصف الخائفة - تتنقّل بين الرجلين.

قال المحقق: "ما تقولينه خطير يا آنسة، هل تدركين مدى خطورته؟".

"تمام الإدراك".

فقال بوارو: "حسنًا، تدركين إذن أنه لا ينبغى تضييع الوقت. سوف تصحبيننى فوراً إلى مكتب قاضى التحقيقات".

ارتبكت ميريلى. لقد تردَّدت، لكنها - وكما توقَّع بوارو - لم يكن أمامها من مهرب.

فقالت: "حسنًا، سوف أحضر معطفى".

وحين غادرت، تبادل بوارو ونايتون النظرات.

قال بوارو: "كان من الضرورى التصرُّف فى الحال – لا أدرى كيف تقولون ذلك – الحديد ساخن، أو شيئاً من هذا القبيل. إنها الآن فى حالة ثورة؛ وفى غضون ساعة ربما تندم؛ ومن ثم تتراجع. ينبغى أن نمنع ذلك بكل الوسائل".

عادت ميريلى، وقد لفَّت نفسها بمعطف أصفر مخملى مرقَّط كجلد الفهد. ولم تكن هى بعيدة عن شكل الفهد، فكانت مرقَّطة وخطرة. ولم تزل عيناها تلمعان غضباً وإصراراً.

وجدوا السيد كوكس وقاضى التحقيقات معاً. وبعد تقدمة وجيزة من بوارو طلب منها فى أدب أن تعيد قص روايتها. ولم تختلف كثيراً عن تلك التى قصَّتها على بوارو ونايتون، إلا أنها كانت هذه المرة أكثر رزانة.

قال السيد كاريج ببطء: "هذه قصة مثيرة فعلاً، يا آنسة". استند لظهر كرسيه، وعدَّل نظَّارته الأنفية، وتفحَّص من خلالها الآنسة بدقة وريب.

"أتودين منَّا أن نصدق أنَّ السيد كيترينج باح لك بعزمه مسبقاً؟".

"نعم، نعم. كانت بصحة جيدة جداً، كما قال. وإن كان لابد لها من أن تموت، فلابد أن يكون ذلك من خلال حادثة – لقد رتَّب للأمر كله".

قال السيد كاريج عابساً: "هل تعين، يا آنسة، أنك تجعلين من نفسك شريكاً على هذا النحو؟".

"أنا؟ مطلقًا يا سيدى. فلم آخذ كلامه على محمل الجد ولو للحظة. كلا بالطبع! فأنا أعرف الرجال، يقولون الكثير من الكلام الجامح. سيكون مضحكاً لو أننى أخذت كل كلامهم على محمل

الجد".

رفع القاضى حاجبيه.

"هل لنا نحن أيضاً أن نأخذ تهديدات السيد كيترينج باعتبارها كلاماً سخيفاً؟ هل لى أن أسألك آنسة، عما جعلك تهملين ارتباطاتك فى لندن وتأتين إلى الريفييرا؟".

فقالت ببساطة: "أردت أن أكون مع مَنْ أحب؛ فهل فى هذا غرابة؟".

بأدب، تتدخَّل بوارو بسؤال.

"فهل كانت تلك إذن هى رغبة السيد ديريك فى أن تصحبيه إلى نيس؟".

بدا أنَّ ميريلى وجدت صعوبة فى جواب هذا السؤال. وتردَّدت قبل أن تجيب. وحين أجابت، أجابت بلا مبالاة وغرور.

قالت: "فى أمور كهذه، أحب أن أمتِّع نفسى سيدى".

لم تكن تلك هى الإجابة التى لاحظها الرجال الثلاثة. ولم يعلق أحدهم.

"متى أدركت أنَّ السيد كيترينج قتل زوجته؟".

"كما أخبرتك سيدى، لقد رأيته خارجاً من قمرة زوجته قبل وصول القطار إلى ليون مباشرة. كانت على وجهه نظرة – لم أدركها فى حينها – كانت نظرة مريبة ومرعبة. لن أنسى تلك النظرة أبداً".

ارتفع صوتها مجلجلاً، وبسطت ذراعيها على نحو متكلّف.

فقال السيد كاريج: "هكذا إذن".

"وحين علمت أنَّ السيدة كيترينج قُتِلَت، حينها أدركت الأمر!".

فقال المأمور فى لطف: "ومع هذا لم تذهبى إلى الشرطة".

رمقته ميريلى بزهو؛ فقد بدت أنها استمتعت بالدور الذى تلعبه.

وسألت: "هل أخون حبيبى؟ بالطبع لا، لا يمكن لامرأة أن تفعل ذلك".

قال السيد كوكس: "حتى الآن ـــــ".

"الآن، اختلف الوضع. لقد خاننى! فهل أتْرَك لأعانى فى صمت؟...".

تفحَّصها القاضى بعناية.

وقال فى هدوء: "حسنًا، حسنًا. والآن هل لك أن تقرئى إفادتك وتوقِّعى عليها".

لم تضع ميريلى وقتاً فى قراءة الوثيقة.

وقالت: "نعم، نعم. إنها صحيحة"، ونهضت: "هل تريدون منى شيئاً آخر؟".

"لا، ليس فى الوقت الحاضر".

"فهل سيتم القبض على ديريك؟".

"فى الحال يا آنسة".

ضحكت ميريلى بقوة، ولملمت أذيال فرائها.

صاحت قائلة: "كان عليه أن يفكِّر فى هذا قبل أن يهيننى".

فسعل بوارو معتذراً: "ثمة تفصيلة صغيرة متبقية".

"نعم؟".

"ما الذى جعلك تعتقدين أنَّ السيدة كيترينج كانت قد ماتت حين وصل القطار إلى ليون؟".

فدهشت ميريلى.

"ولكنها كانت ميتة فعلاً".

"حقاً؟"

"نعم، بالطبع كانت ميتة. لقد ـــــ".

توقَّفت بشكل مفاجئ. تأملها بوارو بعناية، ولاحظ الحذر الذى ملأ عينيها.

"لقد أُخبرت بذلك. الكل قال ذلك".

فقال بوارو: "كنت أعتقد أن تلك الحقيقة لم تكن قد خرجت من مكتب القاضى".

بدا أنَّ ميريلى قد ارتبكت.

قالت فى غموض: "الأخبار تتناقل، ويتبادلها الناس. لقد أخبرنى أحدهم بالأمر. لا أذكر مَنْ هو بالضبط".

تحرَّكت نحو الباب، فأسرع السيد كوكس ليفتح لها الباب، وبينما كان يفعل ذلك ارتفع صوت بوارو ثانية.

"وماذا عن المجوهرات؟ المعذرة يا آنسة، هل لك أن تخبرينى بأى شىء عنها؟".

"المجوهرات؟ أى مجوهرات؟".

"ماسات الملكة كاثرين العظمى؛ فبما أنك سمعت الكثير، فلابد أنك سمعت بأمرها".

فقالت ميريلى فى حدة: "لا أعلم شيئاً عن أية مجوهرات".

وخرجت مغلقة الباب خلفها. عاد السيد كوكس إلى كرسيه؛ وتنهَّد القاضى.

ثم قال: "يالها من امرأة سليطة! أظن أنَّ روايتها صادقة".

فقال بوارو: "بالطبع، جزء من قصتها حقيقى؛ فلدينا ما يؤكده من قصة الآنسة جراى. لقد كانت تتطلَّع فى ممر القطار قبل وقت قصير من وصول القطار إلى ليون، وقد رأت السيد كيترينج يخرج من قمرة زوجته".

قال المأمور: "تبدو الدلائل واضحة ضده، يا ألف خسارة!".

فسأل بوارو: "ماذا تعنى؟".

"كانت أمنية حياتى أن أضع الأغلال فى يدى الدوق لا روش. وهذه المرة، ظننت أننى أوقعت به فعلاً".

حك السيد كاريج أنفه.

قال فى تحفُّظ: "لو ثبت خطأ ما فى الأمر، ستتعقَّد الأمور؛ فالسيد كيترينج له خلفيته الأرستقراطية. وسيذيع الأمر فى الصحف. ولو أننا أخطأنا –"، ثم هز كتفيه فى تخوُّف.

قال المأمور: "وماذا عن المجوهرات؟ ما تظنُّه فعل بها؟".

فقال السيد كاريج: "لابد أنه أخذها لعميل سرِّى؛ فلابد أن وجودها معه يسبب إزعاجاً شديداً وصعوبة بالغة فى بيعها".

ابتسم بوارو.

"لدىَّ فكرة بخصوص المجوهرات. أخبرونى أيها السادة، ما الذى تعرفون عن السيد ماركيز؟".

مال المأمور للأمام وقد أثاره السؤال.

"ماركيز؟ هل تظن أنه متورِّط فى هذا الأمر، سيد بوارو؟".

"سألتك عمَّا تعرفه عنه".

فتجهَّم وجه المأمور.

ثم قال: "ليس الكثير؛ فهو يعمل خلف الكواليس، كما تعلم. وله أتباعه الذين يقومون له بالأعمال القذرة. لكنه من علية القوم، هذا ما نحن على يقين منه؛ فهو ليس من طبقات إجرامية".

"هل هو فرنسى؟".

"نعم. أو هكذا نعتقد على الأقل. لكننا لسنا على يقين من ذلك؛ فقد عمل فى فرنسا، وإنجلترا، وأمريكا. لقد تمَّت سلسلة من السرقات فى سويسرا الخريف الماضى وقد أشارت إليه. وبكل الأحوال هو أستاذ كبير يتحدَّث الفرنسية والإنجليزية بإتقان كامل، ويعد أصله لغزاً".

أومأ بوارو ونهض قاصداً الرحيل.

فقال المأمور: "هل هناك شىء آخر لتخبرنا به سيد بوارو؟".

فقال بوارو: "لا شىء فى الوقت الحالى، لكنْ ثمة أخبار فى انتظارى حال عودتى إلى الفندق".

فقال السيد كاريج فى غير ارتياح: "لو أنَّ لماركيز علاقة بذلك –" توقَّف عن إتمام عبارته.

فقال كوكس: "إنَّ هذا يربك أفكارنا".

فقال بوارو: "لكنَّه لا يربك أفكارى أنا. بل على العكس، أرى أنها تتَّفق مع أفكارى تماماً. إلى اللقاء أيها السادة؛ إذا وردتنى أية معلومات ذات بال، فسأطلعكم عليها فى الحال".

عاد سيراً إلى الفندق بوجه متجهِّم. فى أثناء غيابه، وصلته برقية. أخرج فتاحة الخطابات وفتح بها البرقية، وقرأها فى بطء مرتين قبل أن يضعها فى جيبه. وبالأعلى، كان جورج فى انتظار

سيده.

"أنا متعب يا جورج، متعب جداً. هلا طلبت لى طبقاً صغيراً من الشيكولاتة؟".

طُلِبَت الشيكولاتة وأُتِىَ بها، ووضعها جورج على طاولة صغيرة عند مرفق سيده، وبينما كان يستعد للانصراف، تحدَّث بوارو:

"أعتقد يا جورج، أنك على معرفة جيدة بالأرستقراطية الإنجليزية".

ابتسم جورج فى خجل.

ورد قائلاً: "أظننى كذلك سيدى".

"أفترض أنك ترى أن المجرمين عادة ما ينحدرون من طبقات أدنى".

"ليس دائماً سيدى؛ فأحد أبناء الدوق ديفيز وقع فى متاعب كبرى؛ فقد غادر إيتون مسربلاً بالعار، بعد أن تسبب فى مشكلات كبيرة بمناسبات عديدة. لم تقتنع الشرطة بأنه مصاب بهوس السرقة. كان شاباً فى غاية الذكاء والنبل، لكنه كان شريراً بالكلية. سُمْعته دفعت به إلى السفر إلى أستراليا، وسمعت أنه اتُّهم هناك تحت اسم آخر. أمر غريب جداً، لكنه يحدث؛ فهذا الشاب، لم يكن بحاجة إلى المال بصعوبة".

فأومأ بوارو برأسه ببطء.

ثم غمغم قائلاً: "ربما يكون حباً للإثارة، وربما مشكلة ما بالمخ".

أخرج البرقية ثانية من جيبه وقرأها ثانية.

تابع الخادم فى نبرة مستدعى الذكريات: "وهناك ابنة السيدة مارى فوكس، كانت تمارس النصب على أصحاب المتاجر. أمر مريع للأسر الكبيرة. وهناك غير ذلك العديد من القضايا الغريبة التى يمكننى أن أرويها عليك".

فقال بوارو:"إنَّ لديك خبرة واسعة يا جورج، لقد عملت مع عائلات كبرى ومع ذلك تنازلت بالعمل معى، أظن هذا حباً للإثارة من جانبك أنت أيضاً".

قال جورج: "ليس تماماً يا سيدى، لقد صادف أن رأيت فى مجلة "سوسيتى سنيبتس" أنك استُقْبِلت فى قصر باكنجهام. كان هذا فى الوقت الذى كنت أبحث فيه عن عمل جديد. وقيل إنَّ جلالته كان كريماً وودوداً للغاية وقدَّر قدراتك تقديراً كبيراً".

فقال بوارو: "آه، دائماً ما يحب المرء معرفة الأسباب وراء ما يقع".

ظل يفكر للحظات، ثم قال:

"هل اتصلت بالآنسة بابولوس؟".

"نعم يا سيدى؛ وقد أبلغتنى سعادتها وأبيها لأنهما سيتناولان العشاء بصحبتك هذه الليلة".

قال بوارو: "آه". وشرب شيئاً من الشيكولاتة، ثم وضع الكوب وصحن الفنجان وسط صينية التقديم تماماً، وتحدَّث بلطف حديثًا لنفسه أقرب منه للخادم.

"إن السنجاب عزيزى جورج، يجمع الجوزات. يخزِّنها فى الخريف حتى يستفيد بها لاحقاً؛ وحتى ينجح الإنسان، عليه أن يفيد من دروس مملكة الحيوان. وأنا أفعل ذلك دوماً؛ فطالما كنت القط الذى يراقب جحر الفأر، وطالما كنت الكلب الذى يتتبَّع الرائحة، دون أن أرفع أنفى عن الأثر. وكذلك يا عزيزى جورج، أكون كالسنجاب أجمع الحقائق هنا وهناك. وها أنا أذهب إلى مخزنى لأستخرج جوزة معيَّنة، جوزة خزَّنتها بعيداً، منذ سبع عشرة سنة. هل أنت معى يا جورج؟".

فقال جورج: "كنت أفكِّر سيدى إن كان بالإمكان تخزين الجوزات لسبع عشرة سنة، مع أنى أعلم أن بالإمكان صنع المعجزات بحفظ القنينات".

فنظر إليه بوارو وابتسم.

الفصل الثامن والعشرون

بوارو يلعب دور السنجاب

خرج بوارو للوفاء بموعد عشائه قبل حلوله بثلاثة أرباع ساعة. وكان له غاية من ذلك؛ فلم تأخذه السيارة مباشرة إلى مونت كارلو، لكنه ذهب إلى منزل السيدة تامبلين فى كاب مارتين؛ حيث سأل هناك عن الآنسة جراى. كانت السيدات يرتدين ملابسهن فاصْطُحِب السيد بوارو لصالون صغير للانتظار، وبعد بضع دقائق أتته لينوكس تامبلين.

قالت: "كاثرين لم تَجْهَز بعد، يمكننى أن أبعث إليها، أو أن تنتظر حتى تأتى".

نظر إليها بوارو متأملاً. استدعت إجابته دقيقة أو اثنتين، كما لو أنَّ خطباً عظيماً مرهون بجوابه. بدا وكأن الإجابة عن سؤال بسيط كهذا كانت مهمة بالنسبة إليه.

قال أخيراً: "لا، لا أظن أنَّ من الضرورى الانتظار حتى أقابل الآنسة كاثرين. بل أظنُّ أن من غير الملائم أن أقابلها. مثل هذه الأمور تكون صعبة".

انتظرته لينوكس فى أدب، وقد ارتفع حاجباها قليلاً.

فتابع بوارو: "لدىَّ بعض الأخبار، وأود منك أن تخبرى بها صديقتك. السيد كيترينج تمَّ القبض عليه بتهمة قتل زوجته".

فسألت لينوكس: "هل تريد منى إخبار كاثرين بذلك؟". كانت أنفاسها قد بدأت تتسارع، كما لو أنها كانت تجرى؛ وقد ابيضَّ وجهها وتوتَّر.

"هذا لو تفضلت يا آنستى".

فقالت لينوكس: "لماذا؟ هل تظن أنَّ خبراً كهذا يغضب كاثرين؟ هل تظنها تهتم؟".

فقال بوارو: "لست أدرى يا آنسة، اسمعى سأحدِّثك بصراحة، القاعدة هى أننى أعرف كل شىء، لكن فى هذه الحالة، أنا – أنا لا أعرف. ولعلك تدرين أنت أكثر".

فقالت لينوكس: "نعم أعلم، لكننى لن أخبرك بكل الأحوال".

توقَّفت لدقيقة أو اثنتين، وتلاقا حاجباها السوداوان فى تجهُّم.

ثم قالت بشكل مفاجئ: "هل تعتقد أنه فعلها حقاً؟".

فهز بوارو كتفيه: "الشرطة هى مَنْ تقول ذلك".

فقالت لينوكس: "آه، أنت تتحفَّظ إذن، هناك شىء يُتحفَّظ منه إذن؟".

مرة أخرى سكتت، وتجهَّمت؛ فقال بوارو فى لطف:

"أنت تعرفين ديريك كيترينج منذ زمن، أليس كذلك؟".

فقالت لينوكس: "أعرفه منذ الطفولة على فترات متقطِّعة". أومأ بوارو مرات عديدة دون أن يتكلم.

وفى إحدى حركاتها الخشنة، سحبت لينوكس كرسياً للأمام، وجلست عليه، وضعت مرفقيها على الطاولة، وسندت وجهها بيديها، ونظرت مباشرة نحو بوارو.

وسألت: "ماذا لديهم ضده؟ لابد أنه الدافع. لابد أنه ورث مالاً بموتها".

"ورث مليونين".

"ولو لم تكن قد ماتت لكان مفلساً، أليس كذلك؟".

"نعم".

فتابعت لينوكس فى إلحاح: "لكن كان لابد من وجود ما هو أكثر من ذلك. صحيح أنه سافر على نفس القطار، لكن – لكن هذا ليس كافياً".

"عُثر بقمرة السيدة كيترينج على علبة سجائر ليست لها كُتِبَ عليها حرف k ورآه اثنان يدخل ويغادر قمرتها قبل دخول القطار مباشرة إلى ليون".

"مَنْ هما؟".

"إحداهما، صديقتك الآنسة. والأخرى هى الآنسة ميريلى".

فسألت بحدة: "وماذا عن ديريك؟ ماذا قال؟".

فقال بوارو: "أنكر أنه دخل قمرة زوجته تماماً".

فقالت فى حدة: "أحمق! قلت إنَّه كان فيها قبل ليون مباشرة، فهل هناك مَنْ يعلم متى ماتت بالضبط؟".

قال بوارو: "ليس بالضرورة أن يكون الطب الشرعى محدداً بالضبط، يميل الأطباء إلى أنَّ من غير المحتمل أن تكون الوفاة قد حدثت بعد مغادرة القطار لليون. ونحن نرى ذلك أيضاً؛ فبعد لحظات من مغادرة ليون كانت السيدة كيترينج ميِّتة".

"ومن أدراك؟".

فابتسم بوارو.

"شخص آخر دخل القمرة ووجدها ميِّتة".

"ألم يقرعوا جرس الإنذار فى القطار؟".

"لا".

"ولِمَ؟".

"كانت لديهم أسبابهم ولا شك".

فنظرت إليه لينوكس فى حدة.

"هل تعرف السبب؟".

"أظننى أعلمه".

جلست لينوكس فى صمت وقد أخذت تدير الأمر فى ذهنها. وجعل بوارو يراقبها فى صمت. وفى النهاية تطلَّعت نحوه، وقد احمرَّ وجهها وبرقت عيناها.

"أنتم تظنُّون أنَّ القاتل لابد أنه كان على متن القطار، وهذا ليس ضرورياً على الإطلاق؛ فماذا يمنع أى شخص من الالتحاق بالقطار حين توقَّف فى ليون. فيمكن لأى شخص أن يذهب مباشرة لقمرتها، ويقوم بخنقها ثم استلاب الماسات والنزول من القطار دون أن يراه أحد. ربما تكون قد قُتِلَت فى أثناء توقُّف القطار فى محطة ليون؛ ومن ثم تكون هى قد كانت حية حين دخل ديريك، وميتة حين دخل من قتلها".

مال بوارو على ظهر كرسيه. وتنفَّس بعمق. نظر نحو الفتاة ثم أومأ برأسه ثلاث مرات، ثم تنهَّد.

قال: "آنستى، إن ما تقولينه صحيح، صحيح تماماً. لقد كنت أصارع فى الظلام، وأنت أرشدتنى إلى النور؛ فثمة أمر كان يحيِّرنى وأنتِ وضَّحته لى".

ونهض.

فقالت لينوكس: "وماذا عن ديريك؟".

فقال بوارو بهزة من كتفيه: "مَنْ يدرى؟ لكن يمكننى القول إنَّنى يا آنسة، لست راضيًا؛ لا - أنا هيركيول بوارو لست راضياً. ولعلنى فى هذه الليلة تحديداً أعلم شيئاً إضافياً، وسوف أذهب فى محاولة".

"هل ستقابل أحداً؟".

"شخصاً قد يكون على علم بشىء ما. فى هذه الحالات لا ينبغى أن يترك المرء أى فرصة. إلى اللقاء يا آنستى".

رافقته لينوكس حتى الباب.

وسألت: "هل – هل تمكَّنت من تقديم المساعدة؟".

لان وجه بوارو وهو يتطلع إليها وهى تقف على درج الباب.

"نعم يا آنستى، لقد قدَّمت المساعدة. وكلما كانت الأمور غامضة - تذكَّرى ذلك".

حين انطلقت السيارة، استغرق فى شرود تام، لكن ظلَّ فى عينيه ذلك الإشراق الذى دائماً ما يسبق الانتصار.

وصل متأخراً بعدة دقائق عن موعده، ووجد السيد بابولوس وابنته قد وصلا قبلاً. اعتذر عن تأخره وقد تفوَّق على نفسه فى إبداء الأدب والاهتمام. كان اليونانى يبدو فى تلك الليلة مسالماً ونبيلاً على نحو خاص، وعلى وجهه أسى شيخ بحياة بريئة. وبدت زيا وسيمة وخفيفة الظل. كان العشاء لطيفاً. كان بوارو فى أبهى حالاته. فحكى الطُرَف، وألقى بالنكات، وغازل زيا بلطف، وذكر الكثير من مواقف عمله الطريفة. كانت قائمة الطعام مختارة بعناية، وكان الشراب ممتازاً.

فى نهاية العشاء، سأل بابولوس بأدب:

"ماذا عن المعلومة التى منحتك إياها؟ هل حومت حول ذلك الحصان؟".

"أنا على اتِّصال بمسجِّل المراهنات الخاص بى".

تلاقت عينا الرجلين.

"إنه حصان شهير، أليس كذلك؟".

فقال بوارو: "لا، إنه ما يدعوه أصدقاؤنا الإنجليز، حصاناً أسود".

"آه!".

صاح بوارو: "والآن، لنذهب إلى كازينو للمراهنة على طاولة الروليت".

وفى الكازينو، تفرَّق الجمع؛ فكرَّس بوارو نفسه لزيا، بينما انجرف بابولوس وحيداً.

لم يكن بوارو محظوظاً فى رهانه، لكن زيا كانت محظوظة بعض الشيء، وكسبت بضعة آلاف من الفرنكات.

فقالت لبوارو: "يحسن بى التوقُّف الآن".

فلمعت عينا بوارو.

ثم قال: "رائع! أنت ابنة أبيك حقاً يا آنسة زيا، تعرفين متى تتوقَّفين؛ فذاك هو السر".

ثم نظر حوله.

وقال فى غير اهتمام: "لا أرى والدك فى الجوار. سوف أحضر لك معطفك، وسنخرج إلى الحديقة".

لكنه مع ذلك، لم يذهب مباشرة إلى غرفة الملابس. عيناه الحادتان لمحتا قبل قليل مغادرة السيد بابولوس. وكان متلهِّفاً لكى يعرف ما وراء ذلك اليونانى الماكر. لحق به عند مدخل الردهة الكبير. كان يقف بجوار أحد الأعمدة، متحدِّثاً إلى سيدة وصلت لتوِّها. كانت هذه هى ميريلى.

سار بوارو خفية فى الغرفة. ووصل إلى الجانب الآخر من العمود دون أن يلاحظه المتحدِّثان، وللدقة، كانت ميريلى هى مَنْ تتحدث، وكان بابولوس يسهم ببعض الكلمات القصيرة، والإيماءات المعبِّرة.

كانت تقول: "لابد أن تمنحنى وقتاً. لو منحتنى وقتاً، فسوف آتيك بالمال".

"الانتظار – ". وهز كتفيه: "أمر محفوف بالمخاطر".

فقالت راجية: "فقط لمدة بسيطة. لكن لابد من الانتظار، لأسبوع، أو لعشرة أيام، هذا كل ما أطلبه. عليك أن تطمئن؛ فالمال آت".

تحوَّل بابولوس قليلاً ونظر حوله فى غير ارتياح – ليجد بوارو خلفه تقريبًا، ينظر إليه بوجه يطل براءة.

"أوه، سيد بابولوس، لقد كنت أبحث عنك. هل من مانع لديك فى أن أصطحب الآنسة زيا إلى الحديقة؟ مساء الخير يا آنسة". انحنى انحناءة خفيفة لميريلى، ثم تابع: "أنا آسف كل الأسف؛ لأنى لم ألاحظك من البداية".

تلقَّت تحيَّته بنفاد صبر. كان واضحاً أنها استاءت من المقاطعة. وقد أدرك بوارو ذلك بسرعة. ثم قال بابولوس: "بالطبع، بالطبع"؛ فانسحب بوارو فوراً.

أحضر ثياب زيا، وسارا معاً إلى الحديقة.

قالت زيا: "هنا، تقع محاولات الانتحار".

فهز بوارو كتفيه:"هكذا يقال. حمقى هم الرجال، أليس كذلك؟ فالمرء يأكل ويشرب، ويتنفس، إنها نعمة كبرى يا آنستى. من الحمق أن يدع المرء كل هذه النعم؛ لأنه لا يملك مالاً – أو لأنه واقع بالحب، فتلك أسباب تحدث مصائب كبرى، أليس كذلك؟".

فضحكت زيا.

فقال بوارو: "لا تسخرى من أثر الحب يا آنستى؛ فأنت شابة وجميلة".

فقالت زيا: "بخلاف أنك نسيت أننى فى الثالثة والثلاثين. إننى صريحة معك؛ لأنه لا سبب للتصرُّف بخلاف ذلك. تماماً كما أخبرت أبى، فقد مر سبعة عشر عاماً منذ أن ساعدتنا فى باريس".

فقال بوارو: "لكنها تبدو أقل من ذلك بكثير؛ فأنت الآن قريبة جداً من شكلك حينها يا آنستى، فقط مع بعض النحافة والشحوب، وبعض الجدِّية أيضاً. كنت فى السادسة عشرة، ولست منشغلة بطلب الرزق، فلِمَ لا تكونى امرأة بالمعنى الكامل. كنت حلوة، وساحرة يا آنسة زيا؛ وغيرى يرى ذلك ولا شك".

فقالت زيا: "فى السادسة عشرة، يكون المرء أكثر براءة وأكثر حمقاً".

فقال بوارو: "ربما يكون هذا صحيحاً؛ ففى سن السادسة عشرة يكون المرء ساذجًا، ويكون أميل لتصديق ما يقال له".

لو أنه رأى النظرة الجانبية السريعة التى رمقته بها الفتاة، لادَّعى تحاشيها. ولكن تابع حديثه حالماً: "لقد كانت قضية غريبة جداً يا آنستى، لم يدرك أبوك جوهرها".

"حقاً؟".

حين سألنى عن التفاصيل، والإيضاحات، قلت له: "دون فضائح، سأعيد لك ما فقدت. ولا ينبغى أن تسألنى أية أسئلة؟ هل تعلمين لماذا قلت ذلك؟".

فقالت الفتاة بهدوء: "لا، لست أدرى".

"هذا لأنى كنت متعاطفاً بعض الشىء مع الفتاة الشاحبة، النحيفة، الجادة".

فصاحت زيا ببطء: "لست أفهم ما تتحدَّث عنه؟".

"حقاً، آنستى؟ هل نسيت أنتونيو بيريزيو؟". سمع شهقتها العنيفة لسماعها الاسم.

"لقد أتى للعمل كمساعد فى المتجر، لكن كان هذا أقل مما أراد. يمكن للمساعد أن يرفع عينيه نحو ابنة سيده، أليس كذلك؟ هذا إن كان وسيماً وحلو اللسان؛ ولأنهما لم يستطيعا ممارسة الحب طوال الوقت، فكانا يتحدَّثان أحياناً فى الأمور موضع الاهتمام المشترك بينهما – ومن ذلك ذاك الشىء البالغ الأهمية الذى بحوزة السيد بابولوس. ولما كان الصغار - كما قلت آنستى - حمقى وأغراراً، كان من السهل أن تصدقَه الفتاة وتسمح له بإلقاء نظرة على هذا الشىء الثمين، وأن تريه المكان الذى يحتفظ به فيه. وحين اختفى هذا الشىء بعد فترة – حلَّت الكارثة التى لا تُصدَّق. فواحسرتاه على الفتاة الصغيرة. فكم كان موقفها صعباً. لقد خافت، تلك الفتاة المسكينة. هل تتحدَّث، أم تصمت؟ ثم أتى ذلك الصديق الرائع، هيركيول بوارو. كان ما حدث، وما جرت عليه الأمور أقرب إلى المعجزة. فقد استُعيدت تلك الممتلكات التى لا تقدَّر بثمن ودون أسئلة محيِّرة".

استدارت نحوه زيا ونظرت نحوه فى غضب.

"كنت تعلم كل هذا طوال هذا الوقت؟ مَنْ أخبرك؟ مَنْ – هل هو أنتونيو؟".

فهز بوارو رأسه.

ثم قال بهدوء: "لم يخبرنى أحد؛ فقد خمَّنت ذلك. كان تخميناً سديداً، أليس كذلك يا سيدتى؟ فإن لم يكن للمرء قدرة على التخمين، فلن يكون محققاً جيداً".

سارت الفتاة إلى جواره فى صمت لعدة دقائق؛ ثم قالت فى صوت خشن:

"حسناً، ماذا تنوى أن تفعل بهذا، هل ستخبر والدى؟".

فقال بوارو بحسم:"كلا، بالقطع لا".

فنظرت إليه فى فضول.

"هل تريد منى شيئاً؟".

"أريد مساعدتك يا آنستى".

"ما الذى يجعلك تظن أن بإمكانى مساعدتك؟".

"أنا لا أظن ذلك. أنا فقط أرجو ذلك".

"وإذا لم أساعدك حينها، سوف تخبر والدى؟".

"كلا، كلا ألبتة. اطرحى هذه الفكرة من ذهنك آنسة؛ أنا لست مبتزاً. لم أحتفظ بسرك حتى أعود لأهددك به".

فعادت لتقول ببطء: "إذا رفضت مساعدتك ـــــ؟".

"فأنت إذن ترفضين، وهذا كل شىء".

"إذن، فلِمَ – ؟" ثم توقفت.

"اسمعينى، وسوف أخبرك. النساء يا آنستى، كريمات بالفطرة. فإن استطعن إسداء خدمة لمن أسدى لهن خدمة، فلن يتأخرن عن ذلك. وقد كنت كريماً معك، حين كان بإمكانى الحديث، وأمسكت لسانى".

ساد الصمت ثانية، ثم قالت الفتاة: "لقد ألمح لك أبى بشىء ذلك اليوم".

"لقد كان ذلك لطفًا منه".

قالت زيا ببطء: "لا أظن أنَّ هناك ما يمكننى إضافته على ما قال".

لو أنَّ بوارو شعر بالإحباط، فإنه لم يظهر عليه؛ فلم تتحرك عضلة واحدة فى وجهه.

قال مبتهجاً: "حسنًا؛ فلنتحدَّث إذن فى أمور أخرى".

شرع فى الحديث بابتهاج. لكن الفتاة كانت شاردة، وإجاباتها كانت آلية ودون الغاية. حتى إذا ما اقتربا ثانية من الكازينو، بدا أنها وصلت لقرار.

"سيد بوارو؟".

"نعم يا آنستى؟".

"أود أن أساعدك إن استطعت؟".

"أنت ودودة جدًّا، يا آنسة – ودودة جدًّا بالفعل".

مرة أخرى ساد الصمت. ولم يضغط عليها بوارو. وكان راضياً بالانتظار حتى تأخذ وقتها بالكامل.

قالت زيا: "من جانبى لا أرى ما يمنعنى من إخبارك، إن أبى حذر - دائم الحذر فى كل شىء يقوله. لكننى أعلم أنَّ هذا الحذر ليس ضرورياً معك. لقد أخبرتنا بأنك لا تسعى سوى لكشف القاتل، وأنك لا تهتم بأمر المجوهرات. لقد كنت على حق تماماً حين خمَّنت أنَّ وجودنا فى نيس كان من أجل الماسات. وقد تمَّ تبادل ملكيَّتها هناك وفق الخطة. وهى بحوزة أبى الآن. وقد أعطاك إشارة فى ذلك اليوم عن هوية عميلنا الغامض".

فقال بوارو فى هدوء: "ماركيز؟".

"نعم، إنه هو".

"هل سبق أن رأيت الماركيز يا آنسة زيا؟".

فقالت الفتاة: "مرة واحدة"، ثم أضافت: "لكن ليس بشكل جيِّد؛ فقد رأيته من ثقب الباب".

فقال بوارو فى عطف: "هذا يصعِّب الأمور دوماً، لكنك رأيته بكل الأحوال، ويمكنك التعرُّف عليه ثانية؟".

فهزَّت زيا رأسها.

ثم قالت: "لقد كان يرتدى قناعاً".

"شاب هو أم هَرِم؟".

"كان شعره أبيض. ربما كان شعراً مستعاراً، وربما لا. كان مناسباً له تماماً على أية حال. لكننى لا أظنُّه رجلاً كبير السن؛ فكان يمشى مشية شاب، وكذلك صوته".

فقال بوارو متأملاً: "صوته! آه، صوته! هل يمكنك تمييز صوته ثانية يا آنسة زيا؟".

فقالت الفتاة: "ربما".

"لقد كنت مهتمَّة بأمره، أليس كذلك؟ لدرجة أنك تطلعت من ثقب الباب؟".

فأومأت زيا.

"نعم، نعم. كان لدى فضول نحوه؛ فهو شخص يسمع عنه الكثير – فهو ليس لصاً عادياً – إنه أشبه بإحدى الشخصيات التاريخية".

فقال بوارو مفكِّراً: "نعم، نعم، ربما كان كذلك فعلاً".

قالت زيا: "لكن ليس هذا ما أردت أن أخبرك به؛ فثمة معلومة صغيرة، أظنُّها تكون مفيدة أيضاً".

فقال بوارو مشجِّعاً: "نعم؟".

"لقد سُلِّمت الماسات لأبى فى نيس كما قلت لك. لم أر من أعطاها إياه، لكن ـــــــ".

"نعم؟".

"مَنْ سلَّمها كان امرأة".

الفصل التاسع والعشرون

خطاب من الوطن

عزيزتى كاثرين، إن حياتك بين مجموعة أصدقاء أعزاء - أظنها جعلتك غير مهتمَّة بمعرفة أى من أخبارنا؛ لكننى طالما عرفتك كفتاة طيبة، وربما تكونين أقل غفلة مما ظننت. إنَّ كل شىء يسرى على حاله المعتاد هنا. ثمة ضجة كبرى ثارت حول رجل الدين الجديد، والذى كانت سمعته سيئة للغاية. وهو فى رأيى ليس أكثر أو أقل من كونه رجل دين. لقد تحدَّث الجميع فى الأمر مع رئيسه، لكنَّك تعلمين حال هذا – فهو مَنْ يحصل على كل التبرُّعات فى الوقت الذى لا يتمتَّع فيه بروح طيبة. لقد عانيت مؤخراً من معاملة الخادمات. آنى الصغيرة كانت سيئة للغاية؛ فهى ترتدى التنورات القصيرة، ولا ترتدى الجوارب الصوفية المناسبة. وليس من بين الخادمات من تحتمل الآن أن يُتحدَّث معهن. لقد عانيت مؤخراً من الروماتيزم على نحو ما، وقد أقنعنى الدكتور هاريس بأن أذهب لمقابلة إخصائى من لندن – ما يعنى نفقة ثلاثة جنيهات، وأجرة القطار، لكن بالانتظار حتى الأربعاء يمكننى إيجاد وسيلة عودة أرخص. الطبيب اللندنى راوغ فى حديثه ولم يتحدَّث بشكل مباشر، حتى قلت له: "إننى امرأة صريحة وأحب الصراحة فى عرض الحقائق. هل أعانى من السرطان؟ أم لا؟ وحينها أقرَّ بإصابتى بالسرطان. قالوا لى إنَّ النهاية ستكون فى غضون عام مع الرعاية الجيدة، ودون كثير من الألم، رغم أننى على يقين من أننى سأتحمَّل أى ألم كأى امرأة مؤمنة. أحياناً أشعر بالوحدة بعد وفاة معظم صديقاتى. تمنَّيت لو أنَّك كنت فى ساينت مارى ميد، وتلك حقيقة. فلو لم ترثى ذلك المال وتنتقلى لمجتمع أكبر - لكنت عرضت عليك ضعف الراتب الذى كانت تمنحك إياه جين حتى تتفرغى للعناية بى. لكن ليس ثمة جدوى فى تمنِّى ما لن يحصل. هذا إلا إذا جرت الأمور معك على غير ما يرام، وهذا يحدث دائماً؛ فقد سمعت قصصاً لا تنتهى عن نبلاء زائفين يتزوجون النساء ويستحوذون على أموالهن، ثم يتركونهن على أبواب دور العبادة. وأراك من الرشد بحيث لن تقعى فى شىء كهذا أبداً، لكن مَنْ يدرى، ولعل عدم حصولك على اهتمام أحدهم من قبل قط، يدور برأسك الآن؛ ولذا وفى حال حدوث شىء كهذا، اعلمى أنَّ هنا بيتك فى استقبالك دائماً. واعلمى أنه مع كونى امرأة حادة الصراحة، إلا أننى امرأة حنونة أيضاً.

صديقتك المحبَّة

أميليا فينر

ملاحظة: لقد رأيت ذكْراً لك فى الصحف مع قريبتك، الفيوكونتيسة تامبلين، وقد قطعت هذا الخبر وجعلته بين قصاصاتى الصحفية. وقد دعوت لك أن يحفظك الله من العجب والغرور.

قرأت كاثرين تلك الرسالة مرَّتين، ثم وضعتها وحدقت من نافذة غرفة نومها نحو مياه المتوسط الزرقاء. شعرت بغصة فى حلقها؛ فثمة شوق مفاجئ انتابها نحو ساينت مارى ميد. لكل تلك الحياة

اليومية المعتادة السخيفة وإلى موطنها بكل الأحوال. لقد شعرت برغبة شديدة فى أن ترقد وتضع ذراعيها تحت رأسها وتنخرط فى بكاء شديد.

دخلت لينوكس؛ فأنقذتها من فعلها ذلك.

قالت لينوكس: "كيف الحال كاثرين؟ أرى أنك – ما الأمر؟".

قالت كاثرين وهى تجذب خطاب السيدة فينر إلى حقيبتها: "لا شىء".

فقالت لينوكس: "تبدين فى حالة غريبة. لقد اتصلت بصديقك المحقق بوارو، وأرجو ألا تمانعى، داعية إياه لتناول الغداء معنا فى نيس. قلت له إنَّك تريدين لقاءه؛ لمَّا علمت أنه قد لا يأتى لمجرد دعوتى".

فسألت كاثرين: "هل تريدين لقاءه إذن؟".

فقالت لينوكس: "نعم، لقد أسرنى الرجل. أنا لم ألق رجلاً ذا عينين خضراوين كقط، بهذه الدرجة".

فقالت كاثرين دون اهتمام: "حسنًا". كانت الأيام القليلة الماضية شاقة؛ فالقبض على ديريك كيترينج كان حديث الساعة، ولغز القطار الأزرق تمَّ تناوله من كل زاوية ممكنة.

قالت لينوكس: "لقد طلبت تجهيز السيارة، وكذبت على أمى كذبة بسيطة – لست أذكرها بالضبط، لكن لا بأس طالما أنها لن تذكرها هى أيضاً؛ فلو أنها علمت بأمر ذهابنا لمقابلة السيد بوارو، لرغبت فى القدوم معنا، حتى تأتى عليه".

وصلت الفتاتان إلى نيجريسكو حيث وجدتا السيد بوارو فى الانتظار.

كان فى غاية اللطف، وصار يوزِّع عبارات الملاطفة على الفتاتين حتى ما لبثتا أن انخرطتا فى الضحك؛ ومع هذا لم يكن الغداء مرحاً تماماً؛ فكانت كاثرين شاردة، ومشتتة، وكانت لينوكس تفتح مجالات للحديث تتبعها فترات صمت. وبينما كانوا جالسين فى الشرفة لاحتساء القهوة وجَّهت لينوكس الحديث إلى بوارو فى غلظة.

"كيف تجرى الأمور؟ هل تعرف ما أعنيه؟".

فهز بوارو كتفيه. وقال: "إنها تجرى بمقادير".

"وهل تكتفى بمجرد مراقبة جريانها هكذا؟".

فنظر بوارو إليها ببعض الأسى.

"أنت لا تزالين شابة صغيرة يا آنستى، لكن ثمة أشياء ثلاثة لا يمكن استعجالهم – الله، والطبيعة، والعجائز".

فقالت لينوكس: "هراء، فأنت لست بعجوز".

"تلك مجاملة لطيفة منك".

قالت لينوكس: "ذاك هو الماجور نايتون".

استدارت كاثرين سريعاً ثم التفتت ثانية.

ثم تابعت لينوكس قائلة: "إنه مع السيد فان ألدن. هناك أمر أود سؤال الماجور نايتون بشأنه. أستأذنكم لثوان".

حين غادرت، مال بوارو على كاثرين وقال:

"أنت شاردة تماماً يا آنستى؛ أفكارك فى مكان بعيد تماماً عن هنا، أليس كذلك؟".

"إنها بقدر بُعْد إنجلترا عن هنا".

وبشكل مفاجئ أخرجت الخطاب الذى تلقَّته هذا الصباح وأعطته إياه ليقرأه.

"هذا أول ما وردنى من موطن حياتى السابقة؛ وقد آذانى على نحو ما".

قرأ الخطاب ثم أعاده إليها.

وقال: "ستعودين إلى ساينت مارى ميد إذن؟".

فقالت كاثرين: "لا، لن أعود. ولماذا ينبغى علىَّ العودة؟".

فقال بوارو: "آه، إنه خطئى إذن. هلا أذنت لى بدقيقة؟".

ثم سار إلى حيث كانت لينوكس تتحدث مع فان ألدن ونايتون. بدا فان ألدن هرماً وشاحباً. قام بتحية بوارو بإيماءة مقتضبة دون أدنى إشارة أخرى على الحيوية.

وبينما التفت ليجيب عن لينوكس، سحب بوارو نايتون جانباً.

قال له: "يبدو السيد فان ألدن مريضاً".

فقال نايتون: "وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟ إنَّ خبر القبض على ديريك كيترينج قد أنهى كل شيء، بقدر ما كان اهتمامه به. حتى إنَّه نَدِم على طلبه منك إيجاد الحقيقة".

قال بوارو: "عليه أن يعود إلى إنجلترا".

"نحن عائدون بالفعل بعد غد".

فقال بوارو: "هذه أخبار جيدة".

تردَّد، ثم تطلَّع نحو الشرفة حيث تجلس كاثرين.

ثم قال: "أود، أود أن لو أخبرت الآنسة كاثرين بذلك".

"أخبرها بماذا؟".

"بأنك – أعنى بأن السيد فان ألدن عائد إلى إنجلترا".

بدا نايتون مرتبكاً، لكنه اتَّجه إلى الشرفة والتحق بكاثرين.

تابعه بوارو بإيماءة رضا، ثم التحق بـ لينوكس والأمريكى. وبعد دقيقة أو اثنتين لحقوا بالآخرين. دار الحوار فى إطار عام لبضع دقائق، ثم رحل المليونير وسكرتيره. واستعد بوارو هو الآخر للانصراف.

صاح قائلاً: "شكراً جزيلاً على حسن ضيافتكن يا آنساتى، كان هذا غداءً رائعاً. كنت بالفعل فى حاجة إليه!". نفخ صدره ثم ضرب عليه. "إنَّنى الآن كأسد – عملاق. آه، آنسة كاثرين، فأنت لم ترينى على النحو الذى قد أتحوَّل إليه. لقد رأيتِ بوارو اللطيف الهادئ. أنا سأنطلق للتهديد، وإثارة الرعب فى قلوب مَنْ يستمعون إلىَّ".

نظر إليهما نظرة أقرب للرضا، وبديا وكأنهما تأثرا بكلامه، كانت لينوكس تعض شفتها السفلى، وارتجفت أجناب فم كاثرين.

فقال بوارو بجدِّية: "وسوف أفعل ذلك، نعم، سوف أنجح".

سار بضع خطوات، قبل أن تستلفته كاثرين.

"سيد بوارو، أنا – أود أن أقول لك شيئاً. لقد كنت على صواب فيما قلت. إنَّنى سأعود إلى إنجلترا فوراً".

فنظر إليها بوارو مباشرة، وتحت تأثير تفحُّصه الشديد لها، استحت.

قال فى جمود: "أتفهَّم ذلك".

فقالت كاثرين: "لا، لا أظنك تفهم".

فقال بهدوء: "إنَّنى أعرف أكثر مما تظنين يا آنستى".

ثم تركها، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة لافتة. وولج إلى سيارة كانت فى انتظاره، وانطلق إلى أنتيبس.

كان هيبوليت - خادم دوق لا روش الجامد الوجه - منشغلاً بتلميع طاولة سيده الزجاجية الجميلة التصميم. أما دوق لا روش فقد ذهب إلى مونت كارلو. وبينما كان ينظر من النافذة، رأى هيبوليت، زائراً يسعى بخفة نحو الباب، زائرًا ليس من النوع المألوف لهيبوليت؛ فعلى خبرته، وجد صعوبة فى تصنيفه. نادى زوجته مارى التى كانت منشغلة فى المطبخ، ولفت انتباهها لذلك الزائر.

قالت مارى فى قلق: "هل هى الشرطة ثانية؟".

فقال هيبوليت: "انظرى بنفسك".

فنظرت مارى.

ثم قالت: "بالقطع ليس من الشرطة، أنا سعيدة لذلك".

فقال هيبوليت: "الحق أنهم لم يزعجونا كثيراً، لكن تحذير الدوق يدعونى للشك فى كل غريب".

دق الجرس، فتوجَّه هيبوليت متجهماً ليفتحه.

"سيدى الدوق ليس موجوداً بكل أسف".

بهدوء، ابتسم الرجل الضئيل ذو الشارب الكبير.

ورد قائلاً: "أعلم هذا، أنت هيبوليت فلافى، أليس كذلك؟".

"نعم، سيدى. ذاك هو اسمى".

"ولديك زوجة، هى مارى فلافى؟".

"نعم سيدى، ولكن ـــــ".

فقاطعه الزائر، وهو يخطو بخفة إلى داخل الصالة: "أرغب فى لقائكما".

ثم قال: "لا شك أن زوجتك فى المطبخ، سأتَّجه إلى هناك".

وقبل أن يلتقط هيبوليت أنفاسه، كان الآخر قد اختار الباب المناسب فى مؤخرة الصالة، وعبر ممراً قاده إلى المطبخ؛ حيث وجد مارى مشدوهة تحدق إليه.

فهتف: "ها قد وصلت!". ثم جلس بأحد الكراسى الخشبية وهو يقول: "أنا هيركيول بوارو".

"نعم يا سيدى؟".

"ألم تسمع بهذا الاسم من قبل؟".

فقال هيبوليت: "أبداً".

"اسمح لى إذن أن أُعْلمك بأنك ضعيف الثقافة؛ فهذا اسم أحد أعظم الشخصيات فى هذه البلاد".

ثم تنهَّد وعقد ذراعيه على صدره.

كان هيبوليت ومارى يحدقان إليه فى ارتياب. كانا فى حيرة فى كيفية التصرُّف مع هذا الزائر غير المتوقَّع، والغريب كلية. فقال هيبوليت على نحو آلى: "هل ترغب يا سيدى ـــــ؟".

"أنا أرغب فى معرفة السبب الذى جعلك تكذب على الشرطة".

فصاح هيبوليت: "سيدى! أنا – أنا كذبت على الشرطة؟ أنا لم أفعل شيئاً كهذا قط".

فهز بوارو رأسه.

وقال: "غير صحيح، بل كذبت وفى عدة مناسبات. ولنر". أخرج من جيبه مفكِّرة صغيرة واسترشد بها: "آه، نعم؛ فى سبع مناسبات على الأقل. وسأتلوها عليك".

وبصوت رقيق غير منفعل شرع فى سرد المرَّات السبع.

وكان هيبوليت فى حالة ذهول.

فتابع بوارو: "لكن هذه الزلات السابقة ليست ما أود الحديث عنها، لكن عليك فقط يا صديقى العزيز أن تتخلَّى عن اعتقادك بذكائك الشديد؛ فقد أتيت الآن للحديث عن كذبة محددة تهمُّنى – وهى إفادتك بأن الدوق وصل هنا فى صباح الرابع عشر من يناير".

"لكن لم تكن تلك كذبة سيدى؛ فهى الحقيقة. سيدى الدوق وصل هنا فى صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من الشهر. أليس كذلك يا مارى؟".

فأجابت فى حماسة:

"آه، هذا صحيح تماماً. أنا أذكر ذلك التاريخ تماماً".

فقال بوارو: "حسنًا، وماذا قدَّمتِ له على الإفطار؟".

"أنا – " ثم توقَّفت، محاولة استجماع ذاتها.

فقال بوارو: "غريب أن يذكر المرء شيئاً و – وينسى أشياء".

مال للأمام وضرب الطاولة بقبضته؛ والتمعت عيناه بالغضب.

"نعم، الحق كما قلته؛ فقد كذبتما ظنًّا منكما أن أحداً لا يدرى. لكنَّ هناك اثنين يدريان. نعم – اثنين. أولهما الله ـــــ".

رفع يده إلى السماء، ثم اعتدل فى كرسيه وأغلق جفنيه، وقال فى أريحية:

"ثم هيركيول بوارو".

"أؤكد لك يا سيدى أنك مخطئ؛ فسيدى الدوق غادر مساء الاثنين".

فقال بوارو: "صحيح، وعلى متن القطار السريع. أنا لا أدرى متى قطع رحلته، وربما كنتما أيضاً لا تدريان. لكن ما أعلمه أنه وصل هنا صباح الأربعاء، وليس صباح الثلاثاء".

فقالت مارى فى جمود: "سيدى، أنت مخطئ".

فنهض بوارو واقفاً.

"إذن فليأخذ القانون مجراه، فياللأسف".

فسألت مارى فى قلق: "ماذا تعنى سيدى؟".

"سوف يتم القبض عليكما كشركاء فى جريمة قتل السيدة كيترينج. تلك السيدة الإنجليزية التى قُتِلَتْ".

"قَتْل!".

اصفرَّ وجه الرجل، وارتعدت فرائصه. وسقط مرقاق العجين من يد مارى وبدأت فى البكاء.

"لكن هذا مستحيل – مستحيل. لقد ظننت ـــــ".

"طالما ظللتما متمسكيْن بهذه الرواية، فليس هناك ما يقال. وأظن أنكما أحمقان".

استدار ناحية الباب مغادراً قبل أن يوقفه صوت مرتبك.

"سيدى، سيدى، لحظة لو سمحت. لم – لم تكن لدى فكرة أبداً أنَّ الأمر على هذا النحو. لقد – لقد ظننت أنَّ الأمر يتعلَّق بعلاقة سيدى بامرأة معينة؛ فثمة مشكلات مع الشرطة وقعت من قبل بخصوص نساء. لكن القتل – فهذا أمر مختلف".

فصاح بوارو: "ليس لدى صبر لهذا"، ثم استدار نحوهما وهز قبضته بوجه هيبوليت، وتابع: "هل سأقف هنا طوال النهار، أجادل اثنين من الحمقى؟ الحقيقة هى ما أريد. إن لم تمنحانى إياها، فتحملا مسئولية ذلك. وللمرة الأخيرة أسأل، متى وصل الدوق إلى المنزل – صباح الثلاثاء، أم صباح الأربعاء؟".

فأجاب الرجل لاهثاً: "الأربعاء"، ومن خلفه أومأت المرأة فى تأكيد لكلامه.

تأملهما بوارو للحظات، ثم مال برأسه فى هدوء.

ثم قال فى هدوء: "لقد فعلتما الصواب؛ فقد كنتما على وشك الوقوع بمشكلة عظيمة".

ثم غادر فيلا مارينا وهو يبتسم لنفسه.

قال محدِّثا نفسه: "هذا أحد التخمينات تمَّ تأكيده، فهل سأُوفَّق فى تأكيد الآخر يا ترى؟!".

فى تمام السادسة كانت بطاقة بوارو تُعرَض على ميريلى. حدقت إليها للحظات ثم أومأت بالإيجاب. حين دخل بوارو، وجدها تقطع الغرفة جيئة وذهاباً بانفعال. واستدارت نحوه فى غضب.

صاحت قائلة: "حسنًا، ما الأمر؟ ألم تكتفوا من تعذيبى؟ ألم تدفعونى لخيانة ديريك حبيبى؟ ماذا تريدون فوق هذا؟".

"سؤال واحد فقط آنسة، بعد أن غادر القطار ليون، وحين دخلْتِ قمرة السيدة كيترينج ـــــ".

"ماذا تقول؟".

نظر إليها بوارو فى عتاب ثم بدأ ثانية.

"أقول حين دخَلْتِ قمرة السيدة كيترينج ـــــ".

"أنا لم أفعل".

"ووجدتها قد ـــــ".

"لم أفعل".

"اللعنة!".

التفت نحوها فى غضب وصاح بها، فانكمشت متراجعة أمامه.

"هل ستكذبين علىَّ؟ أنا أعلم ما جرى كما لو أننى كنت هناك. لقد دخلتِ قمرتها ووجدتِها قد ماتت. أقول لك إنَّنى أعلم ذلك. إنَّ الكذب علىَّ أمر جلل. فاحذرى يا آنسة، احذرى".

ارتبكت عيناها تحت تأثير نظراته الحادة ونأت بهما بعيداً عنه.

قالت فى تردد: "أنا – أنا لم – " ثم توقفت.

فقال بوارو: "هناك شىء واحد أريد السؤال عنه، هل وجدت ما كنت تبحثين عنه أم ـــــ".

"أم ماذا؟".

"أم أنَّ غيرك سبقك إليه؟".

فصرخت: "لن أجيب عن مزيد من الأسئلة". أبعدت نفسها عن يدى بوارو المقيدتين، وطرحت نفسها على الأرض فى جنون، وبدأت فى البكاء والصراخ. فاندفعت إلى الغرفة خادمة بدا عليها الفزع.

هز بوارو كتفيه، ورفع حاجبيه، وغادر الغرفة فى هدوء.

لكنه بدا راضياً.

الفصل الثلاثون

الآنسة فينر تدلى برأيها

تطلَّعت كاثرين من نافذة غرفة نوم الآنسة فينر - وقد كان الجو ممطراً دون عواصف. كانت النافذة مطلَّة على حديقة أمامية بها ممر يؤدى إلى البوابة وقليل من أيكات الورود الأنيقة على جانبيه؛ حيث سيزدهر فيها لاحقاً الورد، والقرنفل، والياقوتية الزرقاء.

كانت الآنسة فينر ترقد على سرير فيكتورى ضخم، وقد وُضِعت إلى جوارها صينية بها بقايا إفطار بينما انشغلت هى بمطالعة بريدها وتسجيل التعليقات.

وكان بيد كاثرين خطاب مفتوح، قرأته للمرة الثانية. وكان مرسلاً من فندق ريتز، بباريس.

عزيزتى الآنسة كاثرين، أوقن أنك بصحة جيدة وأنَّ العودة إلى شتاء إنجلترا ليس كئيباً تماماً. بالنسبة لى، فأنا أحقق فى تساؤلاتى بكل الجهد. فلا تظنى أننى هنا فى إجازة. وقريبًا جداً سأزور إنجلترا، وآمل أن نسعد بلقاء آخر. وتذكَّرى أننا شركاء فى هذه القضية. أنا أعلم يقيناً أنك تعرفين ذلك. لك منى آنستى كل مشاعر التقدير والإخلاص.

هيركيول بوارو

تجهَّمت كاثرين قليلاً؛ فقد بدا وكأن شيئاً غامضاً فى هذا الخطاب أربكها وحيَّرها.

جاء صوت الآنسة فينر قائلاً: " لابد من استبعاد تومى سوندر وألبرت دايكس من الرحلة، ولن أشارك فيها إلا إذا حدث ذلك. ماذا يظن هذان الولدان أنهما فاعلان. لقد أنشد تومى: "يا الله، أسرع بإنقاذنا"، ثم لم يلبث بعدها ببنت شفة. أما ألبرت دايكس فإما أنه يمصُّ النعناع فى كل وقت، أو أن أنفى لم تعد كما كانت".

وافقتها كاثرين: "أعرف أنهما ولدان شقيَّان".

فتحت خطابها الثانى، فاحمرَّ وجهها فجأة. وتراجع صوت الآنسة فينر فى الغرفة وكأنه يأتى من بعيد.

وحين عادت للشعور بما حولها كانت الآنسة فينر تعيد خطبة طويلة لنهاية حوار انتهى بانتصارها.

وقالت لها: "على الإطلاق، كل ما فى الأمر أنَّ الآنسة جراى هى قريبة السيدة تامبلين، ماذا ترين فى هذا؟".

"هل كنت تخوضين معاركى بالنيابة عنى؟ هذا لطف بالغ منك".

"يمكنك قول ذلك. فالألقاب لا تعنينى، سواء كانت زوجة رجل الدين أو لم تكن؛ فهذه المرأة كالقطَّة. كانت تلمح إلى أنكِ اشتريت مكانتك الاجتماعية بالمال".

"لعلها لم تبتعد عن الصواب كثيراً".

تابعت فينر: "ثم انظرى لنفسكِ، هل عدتِ من هناك سيدة مغرورة متعجرفة، كما يفترض أن تصبحى؟ كلا، فما زلت تلك الفتاة العاقلة التى كانت دوماً كذلك، بجوربيها القطنيين العاديين، وحذائها المتواضع. لقد حدَّثت إيلين عن ذلك بالأمس. فقلت لها: "إيلين، انظرى إلى الآنسة جراى. كانت فى رفقة واحدة من أعظم النساء؛ فهل ترينها تمشى مرتدية تنورات قصيرة وجوارب حريرية تنسل بمجرد النظر إليها، وتلك الأحذية السخيفة التى ما رأيت فى سخفها بحياتى؟".

ابتسمت كاثرين مع نفسها، كانت على وشك تأييد آراء الآنسة فينر. فاتَّبعت العجوز فى حيوية متزايدة.

"لقد ارتحت كثيراً لأنك لم تغيِّرى رأيك. بالأمس فقط كنت أبحث فى قصاصاتى الصحفية. لدىَّ فيها الكثير عن السيدة تامبلين وعن مستشفاها فى أثناء الحرب، لكننى لم أجد مجموعة قصاصاتى. وودت لو أنك عزيزتى، بحثت عنها؛ فبصرك أفضل منى. إنها جميعاً فى صندوق بدرج المكتب".

نظرت كاثرين إلى الخطاب الذى بيدها وأوشكت على الحديث لكنها تراجعت، وتوجَّهت إلى المكتب ووجدت صندوق القصاصات وبدأت فى مطالعتها. إنَّها منذ أن عادت لساينت مارى ميد - هوى قلبها باتجاه مس فينر منبهرة بثباتها الانفعالى وشجاعتها. شعرت أنه ما من شىء كبير يمكن فعله لأجل صديقتها العجوز، لكنها تعرف من خبرتها أن بعض المعروف الذى قد يبدو تافهاً يعنى الكثير لأمثالها.

قالت فجأة: "تلك واحدة منها؛ الفيسكونتيسة تامبلين - التى تدير فيلتها فى نيس كمستشفى عسكرى لجرحى الحرب - كانت ضحية لواقعة سرقة مثيرة؛ فقد سُرِقَت مجوهراتها، ومن بين تلك المجوهرات زمرُّدة شهيرة، من موروثات عائلة تامبلين".

فقالت مس فينر: "غالباً من الماس الصناعى، هكذا تكون مجوهرات عديد من نساء هذا المجتمع".

قالت كاثرين: "وتلك قصاصة أخرى، وهى صورة تامبلين؛ صورة رائعة لها مع ابنتها الصغيرة لينوكس".

فقالت فينر: "أرينيها، لا أحد يشبع من النظر فى وجه طفل. لكن قد يحدث العكس أيضاً؛ فالعالم يسرى على متناقضات. فالأمهات الجميلات يرزقن بأطفال دميمين. وأكاد أجزم أنَّ المصوِّر أدرك أنَّ أفضل شىء لهذه الطفلة أن يلتقط ظهر رأسها لا مقدمته".

ضحكت كاثرين.

"إن إحدى أكثر المضيفات نشاطاً وحيوية فى الريفييرا بأسرها هذا الموسم "للسيدة تامبلين" التى تمتلك فيلا فى كاب مارتن. تحل بها قريبتها الآنسة جراى ضيفة عليها، التى ورثت حديثاً ثروة ضخمة بقصة غاية فى الرومانسية".

فقالت الآنسة فينر: "تلك هى القصاصة التى أردتها، أتوقَّع أنَّ لك صورة فى إحدى تلك الصحف التى فقدتها. تعرفين مثل هذه الأخبار؛ فالسيدة فلانة أو السيد فلان فى مناسبة كذا، تحمل مضرباً وترفع قدمها فى الهواء. إنَّ على أمثال هؤلاء أن يقوموا بتجربة أداء أولاً؛ ليروا كيف يبدون فى الصور الصحفية".

لم تجب كاثرين. كانت تسوِّى بإصبعها تلك القصاصة، وعلى وجهها نظرة ارتباك وقلق، ثم سحبت خطابها الثانى من مظروفه وحقَّقت فحواه مرة أخرى، ثم عادت لصديقتها.

"آنسة فينر، ثمة صديق لى، صديق قابلته فى الريفييرا، وهو يريد بإلحاح أن يأتى إلى هنا".

"أهو رجل؟".

"نعم".

"مَنْ هو؟".

"إنه سكرتير السيد فان ألدن، المليونير الأمريكى".

"ما اسمه؟".

"نايتون. الماجور نايتون".

"ها – سكرتير مليونير. ويريد القدوم إليك هنا. اسمعى يا كاثرين، ما سأقوله الآن هو لمصلحتك. أنت فتاة لطيفة وعاقلة أيضاً، ورغم أنَّ عقلك ميسَّر فى الاتجاه الصحيح، إلا أنَّ أى امرأة تتحامق مرة واحدة فى حياتها على الأقل. هذا الرجل فى الغالب الأعم يسعى وراء مالك".

بإشارة منها، منعت رد كاثرين: "لقد كنت أتوقَّع حدوث شىء كهذا؛ فما الذى يعنيه سكرتير بالنسبة لمليونير؟ فلا شك أنَّه شاب يحب الحياة الناعمة المرفَّهة. شاب بأخلاق لطيفة ومحب للرفاهية وبلا أفكار وبلا مشروع عمل، فإنَّ كان شىء أكثر نعومة ورفاهية له من صحبة مليونير؛

فسوف يكون الزواج من امرأة لمالها. أنا لا أقول إنك لا تثيرين أى رجل. لكنك لست شابة، ورغم أنَّ لك مظهراً جذّاباً إلا أنك لست بجميلة جداً، وما أشير عليك به هو ألا تتحامقى، لكن إن كنت عازمة، فاحرصى أن يكون مالك مرهوناً بك. ها قد انتهيت. فماذا ترين؟".

فقالت كاثرين: "لا شىء، لكن هل تمانعين فى أن يأتى لمقابلتى؟".

فقالت الآنسة فينر: "سأكون بريئة من ذلك؛ فقد أديت ما علىَّ من واجب النصيحة، وأيًّا ما حدث بعد ذلك فهو مسئوليتك. هل تودين أن أدعوه إلى الغداء أم إلى العشاء؟ أظنُّ أن إيلين يمكنها تدبُّر أمر عشاء، هذا إن لم تكن قد فقدت عقلها".

فقالت كاثرين: "أفضِّل الغداء، هذا لطف شديد منك يا آنسة فينر. لقد طلب منى الاتصال به؛ ولذا فسوف أتَّصل به وأبلغه أننا نسعد بدعوته على الغداء، وسوف يأتى بالسيارة قادماً إلينا من المدينة".

قالت الآنسة فينر: "إن إيلين تطهو شرائح اللحم مع البطاطس المهروسة بشكل معقول، صحيح هى لا تجيدها تماماً، لكنها تجيدها أكثر من أى شىء آخر. ولا داعى لصنع كعكة؛ لأن إيلين غير بارعة فى صنع الحلويات، لكن لا بأس بما تصنعه من البودينج، ولعلك تجدين شيئاً من جبن ستيلتون اللذيذ فى محلات أبوت؛ فطالما سمعت أنَّ الرجال يحبون تناول جبن ستيلتون وهناك قدر لا بأس به متبق من العصائر".

"هذا لن يكون ضرورياً".

"كلا يا عزيزتى، فليس هناك من رجل يشعر بالرضا حتى يشرب شيئاً مع طعامه. افعلى الآن ما أقوله لك ولا تجادلى".

فتوجَّهت كاثرين لإحضار ما أخبرتها به فينر.

قالت مس فينر: "على الرف الثانى؛ فالأول به أقراطى الماسية والبروش المزخرف".

فقالت كاثرين مندهشة: "أوه، ألا تضعينهما فى صندوق مجوهراتك؟".

أصدرت فينر صوت تذمُّر ممتد وعجيب.

"بالطبع لا؛ فلدى حساسية شديدة نحو هذه الأمور. عزيزتى، إننى أذكر جيداً كيف أن أبى المسكين كانت له خزانة مركَّبة فى باطن السلم. وكان سعيداً بها، وقال لأمى: "الآن يا مارى، يمكنك أن تحضرى مجوهراتك كل ليلة فى علبتها وسوف أغلق عليها الخزانة". كانت أمى امرأة خلوقة، وكانت تعلم أنَّ الرجال يحبون تسيير الأمور على طريقتهم، وأعطته علبة المجوهرات ليغلق عليها خزانته كما قال.

"وفى إحدى الليالى اقتحم اللصوص المنزل، وبالطبع، كان أول ما فتحوه الخزانة؛ وكان هذا لحديث أبى المتواصل وثرثرته بأمر الخزانة؛ حتى ليظن السامع أنه يحفظ فيها كنوز سليمان. مسحوا كل شىء، أخذوا الأباريق، والأكواب الفضِّية، وطبق التقديم الذهبى، وكذلك صندوق المجوهرات".

تنهَّدت مسترجعة ذكريات الماضى، وتابعت: "كان أبى فى وضعية جيِّدة بوجود مجوهرات والدتى. كان فيها مجموعة فينيسية وبعض الأحجار الكريمة المميزة للغاية، وبعض الأحجار المرجانية ذات اللون الأحمر الباهت، وخاتمان ماسيان لهما حجران كبيران. ثم كان عليها بالطبع أن تقول له - لكونها امرأة عاقلة - إنَّها كانت تحفظ مجوهراتها ملفوفة فى مشدَّين نسويين، ولا تزال بأمان".

"وهل كان صندوق المجوهرات فارغاً؟".

فقالت الآنسة فينر: "أوه، لا يا عزيزتى، لو كان فارغًا لبدا خفيفًا جداً. إنَّ أمِّى كانت سيدة فى غاية الذكاء. فاحتفظت بزرائرها فى صندوق المجوهرات، والذى كان ذا مساحة معقولة؛ ففى رفِّه الأول وضعت أزرار الأحذية، وفى الثانى وضعت أزرار البناطيل، وفى الأسفل وضعت أزراراً متنوعة. العجيب أنَّ أبى غضب، وقال إنَّه لا يحب أن يكون محل خداع. كفانى الآن ثرثرة؛ فأنت ترغبين فى الاتصال بصديقك، واختيار قطعة لحم مناسبة، وعليك أن تخبرى إيلين بألا تظهر بجورب ذى ثقوب فى أثناء الخدمة على الغداء".

"اسمها إيلين أم هيلين، آنسة فينر؟ أظنها – ".

فأغلقت فينر عينيها.

"يمكننى نطق الهاء لكن هيلين لا يبدو اسماً مناسباً لخادمة. لست أدرى إلى أى مدى وصلت الأمهات فى الطبقات الدنيا هذه الأيام".

كان المطر قد توقَّف حين وصل نايتون إلى الكوخ الريفى. وأطل ضوء الشمس الشاحب المتقطِّع عليه ولوَّن وجه كاثرين وهى تقف على الباب فى استقباله، وقد أسرع نحوها بشكل أقرب إلى الصبيانية.

"آمل أن تكونى غير منزعجة من حضورى. وددت ببساطة أن ألقاك ثانية وبشكل عاجل. وآمل أن تكون صديقتك التى تنزلين لديها لا تمانع هى أيضاً".

فقالت كاثرين: "تفضَّل بالدخول وكن أحد أصدقائها أنت أيضاً، قد تكون أكثر الناس إزعاجاً، لكن سريعاً ما ستدرك أنها صاحبة أطيب قلب قابلته".

كانت الآنسة فينر تجلس فى جلال بقاعة الاستقبال، وقد ازدانت بمجموعة كاملة من الأحجار الكريمة التى يبدو أنها ورثتها عن العائلة؛ حيَّت نايتون بوقار وأدب صارم لابد أنه أضجر منها رجالاً كثيرين. فى الوقت الذى يتمتَّع فيه نايتون بجاذبية لا يسهل تجاهلها، وبعد مرور عشر دقائق تقريباً انسجمت معه الآنسة فينر كثيراً. ساد المرح جو الغداء، وقامت إلين أو هيلين - التى ارتدت زوجاً جديداً من الجوارب الحريرية الخالية من التنسيل - قامت بواجبات الخدمة المعتادة. بعد قليل خرجت كاثرين مع نايتون للمشى، وعادا بحلول موعد الشاى؛ لحلول موعد استراحة الآنسة فينر.

حين انطلقت به السيارة مغادرة فى نهاية اليوم صعدت كاثرين الطابق الثانى فى بطء، فسمعت من ينادى فتوجهت لغرفة نوم مس فينر.

"هل رحل صديقك؟".

"نعم. أشكرك كثيراً؛ لأنَّك سمحت لى بدعوته".

"لا حاجة للشكر. هل تظنيننى عجوزاً بخيلة لا تحب فعل أى شىء لأى أحد؟".

فقالت كاثرين فى حب: "بل أظنُّك صديقة غالية".

فقالت مس فينر مخففة: "لا تبالغى".

وبينما كانت كاثرين تغادر الغرفة نادتها ثانية.

"كاثرين".

"نعم".

"لقد كنت مخطئة فيما قلت عن ذلك الشاب. فحين يتصنَّع الرجل فقد يكون ودوداً ومهذباً وغاية فى اللطف والجاذبية. لكن حين يحب الرجل بحق فلا يسعه سوى النظر كحَمَل ضعيف. والآن، ومتى نظرت إلى هذا الشاب ستجدينه ينظر كحَمَل. إننى أتراجع عن كل ما قلت. إنه شاب مخلص".

الفصل الحادى والثلاثون

السيد أرونز يتناول غداءه

صاح السيد جوزيف أرونز فى تقدير: "آه!".

أخذ رشفة كبيرة من العصير، ثم وضعه متنهداً، وأخذ يمسح شفتيه، وابتسم لمضيفه على الجانب الآخر من الطاولة، إنه السيد بوارو .

قال السيد أرونز: "ائتنى بشريحة لحم بقرى، وأى شىء يستحق الشراب، وأى من إضافاتكم الفرنسية التى يحبها الجميع: أوردوفر، أو أومليت، أو لحم سمان". ثم عاد ليكرر: "أعطنى شريحة لحم بقرى".

ابتسم بوارو فى إشفاق واستجاب لطلبه.

فتابع السيد أرونز: "ليس هناك من ضير فى شريحة اللحم مع سجق الكلى، وفطيرة التفَّاح؟ نعم، سآخذ فطيرة تفاح، شكراً آنستى، آه، وأحضرى لى طبقًا من الكريمة".

أُعِدَّت المائدة. وأخيراً، وبتنهيدة طويلة، وضع السيد أرونز الملعقة والشوكة للعبث ببعض الجبن قبل أن يغيِّر رأيه فى اتجاه آخر.

قال: "ثمة أمر أظنُّك تطلبه سيد بوارو ، سيكون من بواعث سعادتى أن أساعدك بأى شىء يمكننى عمله".

فقال بوارو: "هذا لطف شديد منك، لقد قلت لنفسى: "إنَّ أى شىء تود معرفته فى مجال التمثيل والدراما - فهناك شخص واحد يمكن استشارته، إنه صديقى القديم جوزيف أرونز".

فقال السيد أرونز فى رضا: "وأنت على صواب فى هذا؛ فأياً ما كان ما تسأل عنه، سواء كان ماضياً، أو حاضراً، أو فى المستقبل، فإن جو أرونز هو مَنْ يجب أن تقصده".

"بالضبط. والآن أنا أسألك، هل تعرف شابة تدعى كيد".

"كيد؟ كيتى كيد؟".

"نعم، كيتى كيد".

"كم كانت فتاة رائعة. تعمل مقلِّدة للرجال، تغنِّى وترقص – أهذه مَنْ تقصد؟".

"نعم هى".

"كانت رائعة. تحقق دخلاً جيداً. كانت مطلوبة للعمل دائماً. فى الغالب تقوم بتقليد الرجال، لكن فى الواقع هى ممثلة لا يشق لها غبار".

فقال بوارو: "هكذا سمعت، لكنها لم تظهر مؤخراً، أليس كذلك؟".

"لا. لقد توقَّفت عن العمل. وذهبت إلى فرنسا حيث ارتبطت هناك برجل بارز. لقد استقالت من عملها بالمسرح نهائياً حسب ظنى".

"منذ متى كان ذلك؟".

"منذ ثلاث سنوات. ابتعادها عن العمل كان خسارة حقيقية – حسب رأيى".

"هل كانت ماهرة؟".

"لأبعد حد".

"هل تعرف اسم الرجل الذى ارتبطت به فى باريس؟".

"كان ذا مكانة، هذا ما أعلمه. كان دوقاً أو لعله ماركيز؟ أظننى أذكر الآن أنه ماركيز".

"ولم تسمع عنها شيئاً منذ ذلك الحين؟".

"مطلقاً. ولا حتى بالمصادفة. أظن أنها الآن بإحدى تلك المنتجعات الأجنبية. لا أحد يمكنه السيطرة على نمط حياة كيتى. وهى دائماً تعطى بقدر ما تأخذ".

فقال بوارو: "مفهوم".

"أنا آسف يا سيد بوارو أنَّك لم تجد عندى المزيد؛ فلقد وددت أن أكون فى عونك ما احتجت العون؛ فقد كنت فى معونتى قبل الآن".

"لقد تعادلنا؛ فقد كنت فى عونى على خير ما يرام الآن".

فقال أرونز: "معروف مقابل معروف، ها،ها!".

قال بوارو: "عملك يبدو مثيراً للغاية".

فقال بوارو فى غير اهتمام كبير جداَ: " بمحاسنها وعيوبها مقبولة. أنا أؤدى العمل بشكل جيد، وأضع كل شيء فى الاعتبار، لكن لا بد أن تبقى يقظاً؛ فلا أحد يدرى ما الذى سينجذب إليه الجمهور غداً؟".

فقال بوارو مفكِّراً: "الرقص هو ما يأتى فى مقدمة الاهتمامات فى السنوات الأخيرة".

"لم أر أبداً ما يلفت فى الباليه الروسى، لكن الناس تحبه. إنه أكاديمى أكثر من اللازم بالنسبة إلىَّ".

"لقد قابلت فى الريفييرا راقصة – تدعى ميريلى".

"ميريلى؟ إنها فنانة بكل المقاييس. هى دائماً خلف المال. ومع ذلك، فهى فنانة جيدة؛ لقد شاهدتها وأعرف تماماً ما أقول. لم يحدث قط أن تعاملت معها، لكننى أسمع أنها صعبة المراس؛ فهى متقلِّبة المزاج وغضوبة طوال الوقت".

فقال بوارو فى تدبُّر: "نعم، أرى ذلك منطقياً".

فقال السيد أرونز: "حساسية المزاج، هكذا يسمونها. لقد كانت زوجتى تعمل راقصة قبل الزواج منى، لكننى أشكر الله أنها لم تكن بهذا المزاج. فلا أحد يحب فى بيته نصيباً من هذا".

"أتَّفق معك، فلا مكان لهذا فى البيت".

فقال أرونز: "ينبغى أن تكون المرأة هادئة وعاطفية، وطبَّاخة ماهرة أيضاً".

سأل بوارو: "لم تشتهر ميريلى إلا منذ فترة قصير، أليس كذلك؟".

فقال أرونز: "منذ عامين ونصف تقريباً، هذا كل شيء، حين ارتبطت بدوق فرنسى. أسمع أنها الآن قريبة من رئيس وزراء اليونان السابق. هؤلاء هن النساء الماهرات حقاً، يعرفن كيف يستلبن المال فى هدوء".

فقال بوارو: "هذه أخبار جديدة بالنسبة إلىَّ".

"إنها لا تضيع الوقت. يقولون إنَّ كيترينج الصغير قتل زوجته لأجلها. لست أدرى بالضبط. لكن على أية حال هو الآن فى السجن، وعليها أن تبحث من حولها، ولطالما كانت ماهرة فى ذلك. يقولون إنَّها ترتدى ماسة بحجم بيضة حمامة – أنا لم أر بيضة الحمامة من قبل، لكن هكذا يقولون فى الأعمال الأدبية".

فقال بوارو: "ماسة بحجم بيضة الحمامة! ياله من أمر مثير!".

فقال أرونز: "ستقول فى الغالب إنّها تلقّتها من أحد الأصدقاء، لكنها على الأرجح قطعة من زجاج ملون؛ فالنساء كلهن فى ذلك سواء، يطلن الحديث والحكى عن مجوهراتهن. وهى تبالغ إلى حد التباهى بأنها ماسة ملعونة. وتدعوها: "قلب النيران" حسب ما أذكر".

فقال بوارو: "لكن حسب علمى، الماسة المعروفة بهذا الاسم، هى الماسة الوسطى لعقد ماسى".

"أرأيت! ألم أقل لك إنَّه لا نهاية لأكاذيب النساء بشأن المجوهرات؟ إنَّ هذه الماسة بمفردها مثبّتة بسلسلة بلاتينية تلف بها رقبتها، لكن كما قلت لك، الغالب أنَّها فى الحقيقة زجاج ملوَّن".

فقال بوارو بلطف: "كلا، لا أظنُّها زجاجاً ملوناً".

الفصل الثانى والثلاثون

كاثرين وبوارو يوازنان القرائن

قال بوارو بشكل مفاجئ: "لقد تغيَّرت يا آنستى". كانا يجلسان فى كرسيين متقابلين على طاولة فى فندق السافوى.

تابع قائلاً: "نعم، لقد تغيَّرت".

"على أى نحو؟".

"هذه أمور يصعب التعبير عنها".

"أبدو أكبر سناً".

"نعم، تبدين أكبر سناً. وأنا لا أعنى بهذا التجاعيد وقد بدأت تهاجِمُك. إننى حين رأيتك لأول مرة، بدوتِ كمراقب للحياة من علٍ. كنت تتمتَّعين بتلك النظرة الهادئة المستمتعة لمن يجلس فى المؤخرة على إحدى كراسى المسرح يُشاهد مسرحية".

"والآن؟".

"الآن، ما عدت فى موقف المراقب. لعله سخيف ما أقوله الآن، لكنك الآن تنظرين نظرة محارب يقظ يلعب مبارة صعبة".

فقالت كاثرين بابتسامة: " إن سيدتى العجوز تكون صعبة المراس أحياناً، لكنى أؤكد لك أننى لا أنخرط معها فى مجادلات حادة. أرجو أن تأتى يوماً ما للقائها يا سيد بوارو؛ فأظن أنَّك أحد الذين سيقدِّرون شجاعتها وروحها العالية".

وبينما كان النادل يضع بمهارة دجاج الطناجر الذى طلباه صمتا قليلاً. وحين غادر قال بوارو : "هل سمعتنى أتيت على ذكر صديقى هاستنجس؟ كان يقول إنَّنى محارة بشرية. حسناً آنسة، لقد رأيت فيك قرينى؛ فأنت تفوقيننى فى العمل على انفراد".

قالت كاثرين بهدوء: "هراء".

"بوارو لا يقول هراءً أبداً. الأمر كما وصفته بالضبط".

مرة ثانية، امتدَّ بينهما الصمت، ثم تجاوزه بوارو بسؤال:

"أرأيت أحداَ من أصدقاء الريفييرا منذ عودتك؟".

"رأيت السيد نايتون".

"آها. هكذا إذن!".

شىء ما فى عينى بوارو الملتمعتين جعل كاثرين تصرف بصرها عنه.

"ما زال السيد فان ألدن فى لندن إذن؟".

"نعم".

"لابد لى أن أراه غداً أو بعد غد".

"هل لديك أخبار له؟".

"ما الذى يجعلك تظنين ذلك؟".

"كنت – أتساءل وحسب".

رماها بوارو بنظرة من عينيه البارقتين.

"والآن يا آنستى، لديك الكثير تريدين سؤالى عنه على ما يبدو. ولمَ لا؟ أليست هى قضية القطار الأزرق التى نتشاركها معًا؟".

"نعم، هناك الكثير مما أود سؤالك عنه".

"حسنًا".

انتابت كاثرين ومضة تصميم مفاجئة فى حديثها.

"ماذا كنت تفعل فى باريس يا سيد بوارو؟".

فابتسم بوارو ابتسامة خفيفة.

"قمت باتِّصال بالسفارة الروسية".

"أوه".

"أرى أن جوابى لم يرضك. حسنًا، لن أكون محارة بشرية؛ فأعمل بمفردى. لقد كنت أضع أوراقى على الطاولة، وهو ما لا تفعله المحارة أبداً. لعلك تشكِّين فى أننى لست مقتنعاً بتوجيه التهمة لكيترينج؟".

"هذا ما كنت أتساءل بشأنه؛ ففى نيس بدا لى أنك أنهيت القضية".

"أنتِ لا تقولين كل ما بخاطرك آنسة، لكننى أقرُّ بكل شىء. نعم، إن تحقيقاتى هى ما جعلت ديريك كيترينج حيث هو الآن. لكن قاضى التحقيقات لا يزال يحاول عبثاً إلصاقها بدوق لا روش. حسنًا يا آنسة، إننى لا أندم على شىء فعلته. إنَّ لدى مهمة محددة – وهى اكتشاف الحقيقة، وقد قاد هذا السبيل مباشرة إلى ديريك كيترينج. لكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟ هو كذلك بالنسبة إلى الشرطة، لكن بالنسبة إلىَّ، أنا لست مقتنعاً".

خرج عن هذا فجأة، وقال: "أخبرينى يا آنسة، هل وصلك شىء من الآنسة لينوكس مؤخراً؟".

"مجرد خطاب قصير يتيم. أظنها غضبت لعودتى إلى إنجلترا".

فأومأ بوارو .

"لقد تحدَّثت معها ليلة القبض على كيترينج. كان حديثاً مثيراً للاهتمام فعلاً".

ومرة أخرى سكت، ولم تشأ كاثرين قطع حبل أفكاره، ثم قال أخيراً: "آنسة، إننى الآن ما أزال على أرض هشَّة. لكن دعينى أقل إنَّ هناك مَنْ تحب السيد كيترينج، وصححى لى إن كنت على خطأ، ولأجلها – أقول لأجلها – أرجو أن أكون أنا على صواب والشرطة على خطأ. هل تعرفين مَنْ هى؟".

بعد صمت قليل، قالت كاثرين:

"نعم – أظننى أعرفها".

"لست مقتنعاً يا آنسة، لست مقتنعاً. الحقائق كلها تشير مباشرة إلى السيد كيترينج. لكن لا يزال هناك شىء لم يُؤخَذ بالاعتبار".

"وما هو؟".

"الوجه المشوَّه للضحيَّة. لقد سألت نفسى مئات المرات، هل يعقل أنَّ كيترينج من النوع الذى قد يُقدِم على هذا التشويه بعد أن يتم القتل؟ فأى فائدة تعود من ذلك؟ ما الغرض الذى يحققه فعل ذلك؟ هل كان ذلك بفعل الغضب؟ إنَّ الإجابات غير مقنعة على الإطلاق. ومرة بعد مرة أعود لذات السؤال: "لماذا؟"، والشىء الوحيد الذى أراه عوناً لى على حل اللغز هو هذه".

أخرج مفكَرته، ثم أخرج منها شيئاَ أمسكه بين سبابته وإبهامه.

"هل تذكرين يا آنستى؟ لقد رأيتنى وأنا ألتقط هذه الشعرات من أرضية العربة".

مالت كاثرين للأمام، تتحقَّق من تلك الشعرات.

فأومأ بوارو برأسه فى بطء مرات عديدة.

"أرى أنها لم توح لك بشىء. ومع هذا، أظن أنَّ لديك الكثير عن الأمر".

فقالت كاثرين: "إن لدى أفكاراً، أفكاراً مثيرة؛ ولهذا سألتك عما كنت تفعله فى باريس يا سيد بوارو".

"حين كتبت إليك ـــــ".

"من فندق الريتز؟".

علت ابتسامة مثيرة وجه بوارو .

"نعم كما قلت، من فندق الريتز؛ فأحياناً ما أكون مترفاً حين يكون مليونير هو مَنْ يدفع لى".

قالت كاثرين فى تجهُّم: "والسفارة الروسية، كلا، لا أرى لها موقعاً فى الأحداث مطلقاً".

"هى ليست كذلك على نحو مباشر. لقد ذهبت إليها للحصول على معلومات معيَّنة؛ فقد قابلت شخصاً هناك وهددته – نعم يا آنستى، أنا "هيركيول بوارو" هددت الرجل".

"بصحبة الشرطة؟".

فقال بوارو فى برود: "كلا، بل بصحبة الإلحاح، وهو سلاح أشد فتكاً".

نظر إلى كاثرين، فابتسمت له، وهزت رأسها.

"هل ستعود لغموضك ثانية يا سيد بوارو؟".

"لا، لا، لا أريد خلق ألغاز. سأخبرك بكل شىء. كنت أشك فى أنَّ هذا الرجل هو الوسيط فى عملية بيع مجوهرات السيد فان ألدن. فاتَّهمته بذلك، وفى النهاية حكى لى القصة بكاملها. فعرفت أين تمَّ تسليم الماسات، وعلمت أيضاً بذلك الرجل الذى كان يقطع الشارع جيئة وذهاباً – رجل كان أشيب الشعر، لكنه يمشى مشية شاب – وقد أسميته من عندى بالسيد ماركيز".

"وقد أتيت الآن لتخبر السيد فان ألدن بذلك".

"ليس لهذا تحديداً. فلدىَّ غير ذلك أقوم به. ومنذ أن ذهبت إلى لندن قابلت شخصين آخرين – أحدهما وكيل أعمال مسرحى وطبيب بشارع هارلى. ومن كل منهما حصلت على معلومات معيَّنة. ضعى هذه الأمور إلى جوار بعضها يا آنستى؛ لترى إن كان من الممكن أن نخلص منها بشىء".

"أنا؟".

"نعم، أنت. لقد كنت طوال الوقت شاكاً فيما إذا كان القتل والسرقة قد قام بهما شخص واحد. ولوقت طويل، لم أكن متأكداً – ".

"والآن؟".

"أنا الآن أعرف".

صمتا للحظات، ثم رفعت كاثرين رأسها. كانت عيناها مشرقتين.

"أنا لست فى مهارتك سيد بوارو؛ فنصف ما تقول لى لا يضيف لى أى شىء على الإطلاق؛ فالأفكار التى تخطر لى ربما تكون من زاوية مختلفة تماماً – ".

فقال بوارو بهدوء: "وهذا ما يحدث دوماً؛ فبالأضداد تعرف الحقائق، رغم وقوف كل منَّا فى زاوية مختلفة".

"أفكارى ربما تكون سخيفة – إنها مختلفة تماماً عمَّا لديك، لكن – ".

"نعم؟".

"أخبرنى، هل يفيدك ذلك على أى نحو؟".

تناول من يديها الممدودتين قصاصة من صحيفة. قرأها، ثم نظر إليها، وأومأ فى اهتمام.

"كما قلت لك يا آنستى، كلانا يقف فى زاوية مختلفة من المرآة، لكننا نعكس فيها الحقائق ذاتها".

نهضت كاثرين، وقالت: "لابد لى بالإسراع فى الذهاب. علىَّ اللحاق بالقطار، يا سيد بوارو ـــــ".

"نعم يا آنستى".

"لا – لا ينبغى أن يطول الأمر أكثر من ذلك. لا – لا يمكننى المتابعة طويلاً".

فربت يديها مثبتاً إياها.

"تحلِّى بالشجاعة يا آنستى، لا ينبغى التراجع الآن؛ فالحقيقة الآن صارت أقرب".

الفصل الثالث والثلاثون

نظرية جديدة

"السيد بوارو يرغب فى مقابلتك سيدى".

فقال فان ألدن: "اللعنة عليه!".

فبقى نايتون صامتاً.

نهض فان ألدن من كرسيِّه وأخذ يذهب ويجىء داخل غرفته.

"هل رأيت ما قالته تلك الصحف اللعينة هذا الصباح؟".

"ألقيت نظرة عليها سيدى".

"تنبش وتكشف فى الأمر أليس كذلك؟".

"أخشى أنَّ الأمر كذلك بالفعل سيدى".

جلس المليونير ثانية ومرَّر يده على جبهته.

قال ممتعضاً: "لو أننى كنت أعلم هذا، ما كلَّفت ذلك البلجيكى الضئيل بكشف الحقيقة. إنَّ كشف حقيقة قاتل روث كان كل ما أريده".

"هل كنت تحب أن يفلت زوج ابنتك بفعلته؟".

فتنهَّد فان ألدن.

"كنت أفضِّل لو أننى اقتصصت منه بنفسى".

"لا أظن أنَّ ذلك كان التصرُّفَ السديد، سيدى".

"على كلٍّ – هل أنت متأكد من أنَّ الرجل يريد رؤيتى فعلاً؟".

"نعم، سيد فان ألدن. إنه يلحُّ فى ذلك".

"فهو أمر طارئ إذن. يمكنه القدوم هذا الصباح إن أراد".

كان بوارو منتعشاً ومبتهجًا حين أُرْشِد إلى حيث السيد فان ألدن يبدو ماكثاً. بدا أنه لا يلحظ أى تغيير فى وجه السيد فان ألدن نحوه، وتحدَّث بلطف فى أمور عديدة غير ذات بال. قال إنَّه ذهب إلى لندن وقابل طبيبه. وذكر اسم جرَّاح بارز هناك.

"لا، لا، ليست الحرب. إنها من ذكريات أيامى فى الشرطة، كانت رصاصة من أحد قطَّاع الطرق الأشرار".

لمس كتفه اليسرى وجفل على نحو حقيقى.

"أنا دائماً ما أعتبرك رجلاً محظوظاً سيد فان ألدن؛ فلست بالصورة النمطية لأثرياء أمريكا، الذين يموتون من البطنة".

فقال فان ألدن: "أنا رجل صلب لحد كبير؛ فأنا أحيا حياة بسيطة- كما تعلم - أتناول من الطعام ما يقيم ولا أُفْرِط".

فسأل بوارو فى براءة، وهو يلتفت إلى السكرتير: "هل قابلت الآنسة جراى؟".

فقال نايتون: "أنا – نعم؛ مرة أو اثنتين".

احمرَّ وجهه قليلاً وقال فان ألدن مستعجباً:

"غريب أنك لم تذكر لى شيئاً عن ذلك، يا نايتون".

"لم أر أنَّ هذا قد يثير اهتمامك، سيدى".

فقال فان ألدن: "أنا أحب هذه الفتاة للغاية".

قال بوارو: "من المؤسف جداً أنها عادت لتدفن نفسها مرة أخرى فى ساينت مارى ميد".

فقال نايتون فى حرارة: "بل هذا لطف كبير منها؛ فليس هناك الكثير ممن يقدمون على دفن أنفسهم لأجل رعاية عجوز مشاكسة لا تملك عليها أى سلطان".

فقال بوارو - وعيناه تلتمعان: "لا بأس، لكن بكل الأحوال هو أمر يدعو للأسف. والآن أيها السادة دعونا نأت لأمور العمل".

نظر الآخران لبعضهما فى دهشة.

"لا حاجة للاندهاش مما أقول؛ فلتفترض سيد فان ألدن أنَّ السيد كيترينج بعد هذا كله لم يكن هو قاتل زوجته".

"ماذا؟".

حدق كل من الرجلين إلى الآخر فى دهشة.

"أقول، ماذا لو أنَّ كيترينج لم يكن هو قاتل زوجته؟".

"هل أنت مجنون يا سيد بوارو؟".

لقد كان فان ألدن هو المتحدث.

قال بوارو: "كلا، لست مجنوناً. ربما أكون غريب الأطوار- فعلى الأقل هناك أناس معينون يقولون ذلك، ولكننى في العمل أكون كما يقولون "فى كامل تركيزى"، وأنا أسألك الآن يا سيد فان ألدن، هل ستكون سعيداً أم حزيناً إذا كان ما أخبرتك به هو الصحيح؟".

حدق فان ألدن فيه.

وأخيراً قال: "بالطبع سأكون سعيداً، هل هذا هو الحال مع المشتبه بهم يا سيد بوارو، أم أن هناك حقائق أخرى؟".

نظر بوارو إلى السقف.

وقال بهدوء: "هناك فرصة أخرى وهى تخص دو لا روش؛ فعلى الأقل لقد نجحت فى تفنيد عذره بأنه لم يكن موجوداً فى مكان وقوع الجريمة".

"كيف نجحت فى ذلك؟".

هز بوارو كتفيه بتواضع.

"لدىّ طرقى الخاصة، فبممارسة القليل من التخطيط والقليل من المهارة يتم إنجاز الأمر".

قال فان ألدن: "ولكن الماسات، تلك الماسات التى كانت بحوزته كانت مزيفة".

"ومن الواضح أنه لم يرتكب جريمته إلا من أجل الماس، ولكن أغفلت نقطة واحدة يا سيد فان ألدن، وهى أن حيث كانت الماسات هى محل اهتمام، فلربما سبقه إليها شخص ما".

صاح نايتون: "ولكن هذه نظرية جديدة تماماً".

وألح المليونير قائلاَ: "هل تؤمن حقاَ بكل هذا الهراء يا سيد بوارو؟".

قال بوارو بهدوء: "الأمر لم يثبت بعد؛ فهو لم يَعْدُ مجرد نظرية بعد، ولكننى أخبرك بهذا يا سيد فان ألدن لأعرفك بأن الحقائق تستحق التحقيق. يجب أن تأتى معى إلى جنوب فرنسا ونذهب إلى قلب الحدث".

"أنت تعتقد حقاً أن هذا ضرورى – أننى ينبغى أن أذهب إلى هناك؟".

قال بوارو: "لقد كنت أعتقد أنك سترغب فى ذلك من تلقاء نفسك".

وكان فى نبرة صوته تلميح باللوم لم يفهمه الكثيرون.

قال له: "نعم، نعم بالطبع، متى تود أن نبدأ يا سيد بوارو؟".

غمغم نايتون: "أنت مشغول للغاية فى الوقت الحالى يا سيدى".

ولكن المليونير كان قد عزم أمره وطرح جميع الاعتراضات الأخرى جانباً.

وقال: "أعتقد أن هذا العمل يأتى فى المقام الأول، حسناً سيد بوارو فى أى قطار نذهب غداً؟".

قال بوارو: "أعتقد أننا سنذهب بالقطار الأزرق"؛ ثم ابتسم.

الفصل الرابع والثلاثون

القطار الأزرق مرة أخرى

تمايل "قطار الأثرياء" - كما يُطلَق عليه أحياناً - عند منحنى تخطَّاه بسرعة بدت خطيرة. كان بوارو، وفان ألدن، ونايتون جالسين معاً فى صمت. كان فان ألدن ونايتون فى قمرتين متَّصلتين، كما كانت روث مع خادمتها فى الرحلة القاتلة. أمَّا بوارو فكان فى قمرة تبعد عنهما قليلاً لكن فى ذات العربة.

كانت الرحلة مؤلمة لفان ألدن؛ فاسترجاعه الأمر كان موجِعاً له جداً. وكان بوارو ونايتون يتبادلان الحديث هامسين دون أن يزعجاه.

لكن حين أتمَّ القطار رحلته البطيئة حول سينتير ووصل إلى جارى دى ليون - تفجَّر نشاط بوارو . أدرك فان ألدن أنَّ جزءاً من هدف بوارو من السفر بالقطار هو محاولة إعادة تصوُّر الجريمة. حتى إنَّه أعاد تمثيل كل أدوار أبطالها. فأدى دور الخادمة وقد أغلقت قمرتها على نفسها، والسيدة كيترينج وهى تكتشف وجود زوجها بمزيج من الدهشة والقلق، وديريك كيترينج الذى اكتشف سفر زوجته على القطار. وقد جرَّب عدة احتمالات، من بينها أفضل سبيل لأن يخفى أى شخص نفسه بالقمرة الثانية.

وفجأة واتته فكرة، فأمسك بذراع فان ألدن.

"يا إلهى، هذا شىء لم أفكِّر به من قبل قط! لابد أن ننهى رحلتنا إلى باريس. سريعاً، سريعاً، دعونا نترجَّل من القطار فى الحال".

انتزع الحقائب وهو يسرع بالنزول. فان ألدن ونايتون كانا مندهشيْن لكنهما كانا طيعين فاتَّبعاه. وبإعادة تشكيل رأيه فى بوارو مرة أخرى، كان فان ألدن أبطأهم فى مغادرة القطار. وعند الحاجز تمَّ إيقافهم؛ فقد كانت تذاكرهم مع قاطع التذاكر بالقطار، وهو الشىء الذى نسوه جميعاً فى أثناء مغادرتهم.

كانت تبريرات بوارو سريعة ولبقة ومثيرة للتعاطف، لكنها قُوبِلَت بموقف متصلِّب من الموظف.

فقال فان ألدن: "خلِّصونا من هذا الموقف. سيد بوارو، أرى أنك فى عجلة من أمرك. فبالله عليك يمكننا الدفع من كاليه ودعنا نلحق بما تنوى إلحاقنا به".

لكن اندفاع بوارو فى الكلام توقَّف بشكل مفاجئ، وأصبح كرجل تحوَّل فى جموده إلى صخرة. لا تزال ذراعه ممدودة بآخر ما كان يشير به إلى الموظف، وظلَّ على ما هو عليه وكأنه شُل.

ثم قال ببساطة: "لقد كنت معتوهاً، يا إلهى لقد فقدت عقلى هذه الأيام. دعونا نرجع ونتابع رحلتنا فى هدوء؛ فلعل الحظ يحالفنا ونلحق بالقطار قبل انطلاقه".

وصلا فى الوقت تماماً؛ فقد بدأ القطار رحيله ونايتون آخر الثلاثة، يقفز فى القطار ملقياً بحقيبته فى أرضية القطار. تجادل معهم قاطع التذاكر وساعدهم فى حمل حقائبهم إلى قمراتهم. لم يتكلم فان ألدن، لكنه بدا مشمئزاً من تصرُّف بوارو الغريب. وبعد دقيقة أو اثنتين بدأ تعليقه مع نايتون منفرداً:

"هذا الذى نحن فيه لا جدوى منه؛ فالرجل فقد سيطرته على مجريات الأمور؛ فقد كان يهدف إلى شىء ما، وحين خاب ظنه صار يترنَّح كأرنب خائف".

اقترب منهما بوارو بعد لحظات، وغمرهما باعتذارات بائسة وبدا عليه الإحباط الشديد حتى إنَّ الكلمات لم تَبْدُ كافية. قَبِل فان ألدن اعتذاره على مضض، وتمكَّن من كبح نفسه عن التعليقات اللاذعة.

تناولوا العشاء على متن القطار، وبعد مدة، ومما أثار دهشتهما، أن اقترح بوارو أن يبقوا جميعاً فى قمرة فان ألدن.

فنظر إليه المليونير بفضول:

"هل هناك ما تخفيه عنَّا يا سيد بوارو؟".

فتح بوارو عينيه فى اندهاش برىء، قائلاً: "أنا؟ يا لها من فكرة".

لم يتحدث فان ألدن، لكنه لم يكن مقتنعاً بما يفعل. تم إخبار قاطع التذاكر أنه ليس بحاجة لترتيب الأسرَّة. وكان البقشيش الضخم الذى منحه إياه فان ألدن كفيلاً بإزاحة أية دهشة قد اعترته لهذا التصرُّف. وجلس الثلاثة فى صمت. بدا بوارو متململاً وغير مستقر. وبشكل مفاجئ التفت إلى السكرتير.

"ماجور نايتون، هل باب قمرتك مغلق؟ أعنى باب الممر؟".

"نعم؛ فقد أغلقته بنفسى الآن".

فقال بوارو: "هل أنت متأكد؟".

فقال نايتون مبتسماً: "سأذهب لأتأكَّد، إن أردت".

"لا، لا، لا ترهق نفسك. سأذهب لأتأكد بنفسى".

مرَّ من خلال الباب الواصل بين القمرتين وعاد بعد ثوان، وهو يومئ برأسه.

"نعم، نعم، إنه كما قلت؛ فلتعذر هواجس رجل عجوز مثلى"، ثم أغلق الباب الواصل وتابع جلوسه فى الركن اليمين من القمرة.

مرت الساعات. وبدأ ثلاثتهم يغفون، ويستيقظون فزعين. لم يحدث من قبل أن حَجَزَ ثلاثة رجال أسرَّة على أكثر القطارات فخامة، ثم لا يفيدون بالخدمة التى دفعوا مقابلها. وبين الحين والآخر كان بوارو يرمق ساعته، ثم يومئ برأسه ويعدِّل من وضعه ويغفو ثانية. وفى إحدى المرَّات، نهض من مكانه وفتح الباب الواصل، ونظر بحدة داخل القمرة الملحقة، ثم عاد لمقعده، وهزَّ رأسه.

قال نايتون هامساً: "ما الأمر؟ هل تنتظر حدوث شىء ما؟".

فقال بوارو: "إننى متوتِّر، أنا كالقط على بلاط ساخن. كل همسة حولى تجعلنى أقفز".

تثاءب نايتون وغمغم قائلاً: "هذه أسوأ رحلة مررت بها، لعلك تعرف ما تريد من كل هذا يا سيد بوارو".

ثم عدَّل وضعه قدر الإمكان لكى ينام. كان هو وفان ألدن قد استسلما للنعاس، حين نظر بوارو فى ساعته للمرة الرابعة عشرة، ثم مال نحو المليونير وربت ذراعه".

"إيه؟ ما الأمر؟".

"خلال خمس أو عشر دقائق، سيصل القطار إلى ليون يا سيدى".

فامتقع وجه فان ألدن وهو يقول: "يا إلهى! لابد إذن من أنَّ هذا هو الوقت الذى قُتِلَت فيه ابنتى المسكينة".

جلس محدقاً إلى الفراغ. ارتجفت شفتاه قليلاً، واسترجع ذهنه المأساة الفظيعة التى أتعست حياته.

تناهى إلى مسامعهم صرير فرامل القطار المعتاد، انخفضت سرعة القطار واستقرَّ فى ليون. أنزل فان ألدن شباك قمرته، ومال نحوه.

"لو أنَّ ديريك ليس الفاعل – لو أنَّ نظرتك صائبة، فهنا حيث غادر الرجل القطار".

ولدهشة فان ألدن، هز بوارو رأسه.

قال مفكِّراً: "لا، لا أحد غادر القطار، لكنى أظن – نعم، أظن أن امرأة هى التى فعلت ذلك".

فشهق نايتون.

قال فان ألدن فى حدة: "امرأة؟".

فقال بوارو - مومئاً برأسه: "نعم امرأة، تذكَّر سيد فان ألدن، فى إفادة مس جراى أنها ذكرت أنَّ شاباً بقبَّعة ومعطف ترجَّل من القطار إلى رصيف المحطة حتى يمدِّد ساقيه. أنا أظن أنَّ ذلك الشاب كان امرأة".

"لكن مَنْ هى؟".

سأل فان ألدن متشكِّكاً، لكن بوارو ردَّ بشكل جاد:

"اسمها – أو الاسم الذى عُرِفَت به لسنوات عديدة هو كيتى كيد، لكنك سيد فان ألدن، تعرفُها باسم آخر هو أدا ماسون".

قفز نايتون قائماً على قدميه.

وصاح: "ماذا؟!".

دار بوارو حول نفسه.

ثم قال: "آه! قبل أن أنسى"، وسحب شيئاً من جيبه وأمسك به.

"اسمح لى أن أعطيك سيجارة – من خارج علبة سجائرك؛ فقد سقطت علبتك حين أسرعنا فى النزول من القطار بباريس".

حدق إليه نايتون وكأنَّه لا يفهم شيئاً مما يقول، ثم بدأ فى التحرُّك، لكن بوارو أشار إليه بيده محذِّراً.

وقال فى صوت عذب: "لا، لا تتحرَّك. إن باب القمرة الثانية مفتوح، وأنت مُراقَب منها فى هذه اللحظة. لقد فتحت باب الممر حين غادرنا باريس، وأخبرنا أصدقاءنا فى الشرطة أن يأخذوا أماكنهم فيها؛ فأظنك تعلم أنَّ الشرطة الفرنسية تطلبُك بشدة يا ماجور نايتون – أو فلنقل – يا سيد لو ماركيز!".

الفصل الخامس والثلاثون

الحقائق تتضح

"هل لك أن توضح؟".

ابتسم بوارو. كان يجلس قبالة المليونير على مائدة الغداء فى جناحه الخاص بفندق نجريسكو. كان الارتياح يبدو على وجه المليونير لكنه مع ذلك كان محتاراً. مال بوارو إلى ظهر كرسيه، وأشعل واحدة من سجائره الصغيرة تلك، وحدَّق متأملاً إلى السقف.

"نعم، سوف أوضِّح لك. لقد بدأ الأمر بأمر حيَّرنى. هل تعلم ما هو؟ إنه الوجه المشوَّه. لم يكن ذلك طبيعياً؛ فأول ما نسأل عنه حين نحقق فى جريمة هو السؤال عن هوية الضحية. وهذا بالطبع أول ما خطر لى. هل المتوفاة هى السيدة كيترينج فعلاً؟ لكن هذا لم يقدنى إلى شىء على الإطلاق؛ لأن إفادة الآنسة جراى كانت إيجابية ويمكن الاعتماد عليها؛ ولذا تركت هذه الفكرة جانباً. واعتبرت السيدة كيترينج هى القتيلة".

"متى بدأْت الشك بالخادمة؟".

"لم أشك بها لبعض الوقت، لكن أمراً غريباً هامشياً لفت انتباهى نحوها. إنها علبة السجائر التى وُجِدَت فى عربة القطار والتى أخبرتنا بأن السيدة كيترينج أهدتها إلى زوجها. كانت العلبة على وجهها، ومن غير المحتمل أن ترى ما عليها من حروف تعريف. لقد زرع هذا الشك فى نفسى من صدقية شهادة أدا ماسون بشكل عام. وثمة حقيقة أخرى مثيرة للشك توجِب وضعها فى الاعتبار، وهى أنها لم تكن فى خدمة سيدتها سوى لشهرين. لقد بدا بالطبع أنه لا علاقة لها بالجريمة؛ حيث إنَّها تخلَّفت عن السيدة كيترينج فى باريس وكانت لا تزال حية وفق شهادة عديدين، لكن ــــــــ".

مال بوارو للأمام. ورفع سبَّابته وأخذ يشير به فى تأكيد نحو فان ألدن.

"لكننى محقِّق ماهر؛ والشك أحد طبائعى. فليس هناك من شىء أو شخص لا أشك به. ولا أصدِّق شيئاً يقال لى. لقد قلت لنفسى: كيف لنا أن نوقن أنَّ أدا ماسون قد غادرت القطار فى باريس؟ وللوهلة الأولى، بدت الإجابة عن هذا السؤال مقنعة تماماً. فكانت هناك إفادة مساعدك ماجور نايتون، وهو خارج الدائرة تماماً، وتبدو إفادته غير قابلة للدحض، هذا بالإضافة إلى كلمات الضحيَّة ذاتها إلى محصل التذاكِر. لكنى تجاهلت النقطة الأخيرة لحين؛ وذلك لفكرة غريبة – فكرة ربما تبدو خيالية ومستحيلة – تبدَّت لى؛ فلو أنَّ احتمالاً طفيفاً جداً وقع، لم يعد لهذه الشهادة قيمة.

ركَّزت على حجر العثرة الرئيسى فى النظرية التى تصوَّرتها، وهى إفادة ماجور نايتون بأنه رأى أدا ماسون فى فندق ريتز بعد أن غادر القطار باريس. لقد بدت هذه إفادة قاطعة بما يكفى،

لكن مع هذا، وبالتدقيق فى الحقائق المتاحة لاحظت أمرين: الأول - أنَّ ماجور نايتون هو الآخر، يعمل لديك منذ شهرين فقط، فى مصادفة مريبة. والثانى، أن اسمه الأول هو الآخر يبدأ بحرف k. وبافتراض – مجرد افتراض – أنَّ علبة سجائره هى التى وقعت فى عربة القطار؛ ومن ثم فإنَّه هو وأدا ماسون يعملان معًا، وقد استطاعت التعرُّف عليها حين أريناها إياها، وما كانت لتتصرَّف بالضبط كما فعلت؛ فقد اندهشت فى البداية، ثم سريعاً ما اخترعت تصوراً يتماشى مع إدانة السيد كيترينج. لكن لم يكن هذا هو الترتيب الأصلى. لقد تمَّ الترتيب لأن يكون الدوق لا روش هو كبش الفداء، إلا أنَّها لم تجزم بتعرُّفها عليه، لاحتمال أن تكون لديه حجة غياب قوية. والآن، لو استرجعت ما حدث فى حينها، ستذكُر واقعة ذات بال. لقد اقترحْت على أدا ماسون أن يكون الرجل الذى رأته لم يكن الدوق لا روش، بل كان ديريك كيترينج. وقد بدت غير موقنة فى حينه، لكن بعد أن عدت إلى الفندق اتَّصلت أنت بى وقلت إنَّها أتتك وقالت: إنَّه بعد إمعان النظر، أصبحت مقتنعة تماماً بأن الرجل محل الشك كان السيد ديريك. لقد توقَّعت شيئاً من هذا القبيل. لم يكن هناك سوى تفسير واحد لهذا اليقين المفاجئ من قبلها. أنه بعد أن غادرت الفندق، كان لديها متسع من الوقت لكى تتشاور مع شخص ما، وتلقَّت منه تعليمات العمل وفقها. فمَنْ أصدر تلك التعليمات؟ إنه الماجور نايتون. وهناك دلالة أخرى صغيرة جداً، ربما لم تكن تعنى شيئاً، وربما عنت الكثير؛ ففى معرض حديثه، ذكر نايتون واقعة سرقة مجوهرات فى بيت كان يقيم به فى يورك شير. ربما كان ذلك من باب المصادفة، ولعله كان حلقة أخرى فى السلسلة".

"لكن هناك شيئاً واحداً لم أفهمه يا سيد بوارو. لعلى بليد العقل، أو كنت كذلك من قبل. مَن الرجل الذى كان على القطار فى باريس؟ أكان ديريك كيترينج أم دوق لا روش؟".

"ذاك هو موطن البساطة فى الأمر كله. فلم يكن هناك رجل. ألا تلاحظ المهارة فى هذا التدبير؟ لم يكن هناك سوى أدا ماسون. وقد صدَّقناها؛ لأن نايتون أفاد بأنها تخلَّفت فى باريس".

"لكن روث أخبرت محصل التذاكِر بنفسها أنها ستترك خادمتها فى باريس".

"آه! سآتى إلى ذلك. لقد توفَّرت لنا إفادة السيدة كيترينج. لكننا لم نحصل على إفادتها بالفعل؛ لأن امرأة ميتة سيد فان ألدن، لا يمكنها الحديث بشىء. فلم تكن تلك إفادتها، بل كانت إفادة محصل التذاكر – والأمر هنا مختلف تماماً".

"هل تعنى أنه كان يكذب؟".

"كلا، كلا، على الإطلاق. لقد تحدَّث بما ظن أنَّه الحقيقة. لكن المرأة التى أخبرته بأنها تركت خادمتها فى باريس لم تكن كيترينج".

فحدق إليه فان ألدن.

"سيد فان ألدن، إنَّ روث كيترينج كانت قد قُتِلَتْ قبل وصول القطار إلى جارى دى ليون. لقد كانت أدا ماسون التى ارتدت ثياب سيدتها المميزة للغاية، وهى التى اشترت سلة العشاء، وهى التى

تحدَّثت بتلك العبارة المهمة مع محصل التذاكر".

"مستحيل!".

"كلا يا سيد فان ألدن غير مستحيل. إنهنَّ النساء. إنهن يشبهن بعضهن كثيراً هذه الأيام حتى إنَّ أحدنا ليعرف المرأة من ثيابها لا من وجهها. لقد كانت أدا ماسون بذات الطول الذى كانت عليه ابنتك. وحين ترتدى ذات معطف الفراء الثمين، وتضع بعض الطلاء الأحمر تحت عينيها، وبعض الخصل الكستنائية عند كلتا أذنيها، يكون من السهل خداع محصل التذاكر. ولعلك تذكر أنَّه لم يتحدَّث من قبل مع السيدة كيترينج. صحيح أنه رأى الخادمة للحظة حين أعطته التذاكِر، لكن انطباعه عنها لم يزد عن كونها امرأة نحيفة سمراء. ولو كان ألمعياً لأقصى حد، ربما وصل للقول بأن السيدة وخادمتها ليستا متشابهتين، لكنه على ما يبدو لم يفكِّر فى ذلك على الإطلاق. وخذ باعتبارك أن أدا ماسون أو كيتى كيد تعمل ممثلة، وهى قادرة على تغيير مظهرها ونبرة صوتها للحظات. إنَّ الخطر لم يكن متمثلاً فى تعرُّف محصل التذاكر على الخادمة وهى فى ثياب سيدتها، بل تمثَّل فى أن يأتى ليكتشف الجثة فيدرك أنَّ هذه لم تكن المرأة التى تحدَّث إليها بالأمس. ومن هنا يأتى سر تشويه الوجه. لقد كان الخطر الأعظم فى ذهن أدا ماسون متمثلاً فى كاثرين جراى التى ربما تزور قمرتها بعد أن يغادر القطار باريس، وقد تحاشت ذلك من خلال طلبها سلة عشاء وبإغلاق قمرتها".

"لكن مَنْ قتل روث – ومتى؟".

"فى البداية عليك أن تعى أنَّ الجريمة خُطِّطَ لها ونُفِّذَت من قِبَل شخصين – نايتون وأدا ماسون، فكانا يعملان معًا. كان نايتون فى باريس يقوم ببعض الأعمال التى كلَّفَتَه بها. وقد صعد إلى القطار فى نقطة ما من طريقه حول سينتير. فوجِئَت السيدة كيترينج بوجوده، لكن لم يثر ذلك لديها شكوكاً. ولعله جذب انتباهها لشىء خارج النافذة، فالتفتت لتنظر إليه فقام هو بتمرير الحبل حول رقبتها – وانتهى الأمر فى غضون ثوان. أغلق باب القمرة. وبدأ هو وأدا ماسون فى العمل. قاما بنزع ثياب السيدة الخارجى. وقاما بلفِّها فى سجَّادة ووضعها فى كرسى بالقمرة الملحقة بين الحقائب. غادر نايتون القطار ومعه علبة المجوهرات وفيها الماسات؛ ولأن الجريمة سيُفْتَرض وقوعها بعد ذلك بإحدى عشرة ساعة، فسيكون هو فى أمان تام، بالإضافة إلى إفادة شريكته وحديث السيدة كيترينج المفترض مع محصل التذاكر سيوفِّران لها حجة غياب قوية.

فى جارى دى ليون، حصلت أدا ماسون على سلة العشاء، وأغلقت على نفسها مرحاض القمرة، وبدَّلت سريعاً ملابسها بملابس سيدتها، ورتَّبت خصلتين عند أذنيها بلون شعر سيدتها، ووضعت زينة تقرِّب الشبه بينها وبين سيدتها قدر الإمكان. وحين أتى محصل التذاكر كى يرتِّب السرير، أخبرته بروايتها المُعَدَّة سلفاً حول أن الخادمة بقيت فى باريس؛ وبينما كان هو يرتب السرير، وقفت هى تنظر من النافذة، فكان ظهرها باتجاه الممر فى أثناء مرور الناس فيه. وكان هذا تصرفاً حكيماً؛ لأن الآنسة جراى كانت من بين مَنْ مروا، وكانت لهذا متأكِّدة من أنَّ السيدة كيترينج كانت حية حتى تلك الساعة".

قال فان ألدن: "تابع".

"قبل الوصول إلى ليون، وضعت أدا ماسون جسد سيدتها فى السرير، ورتَّبت ملابسها بعناية، ثم غيَّرت ملابسها بملابس رجل وتأهَّبت لمغادرة القطار. حين دخل ديريك كيترينج قمرة زوجته، رآها - حسب ما ظن - نائمة فى سريرها، لقد تمَّ الأمر، وكانت أدا ماسون فى قمرتها منتظرة اللحظة التى تغادر فيها القطار دون أن يراها أحد. وبمجرد أن نزل محصل التذاكر إلى رصيف ليون، تبعته هى فى تراخ وكأنها نزلت لمجرد اشتمام بعض الهواء. وفى التو، ودون أن يلاحظها أحد انتقلت إلى الرصيف المقابل واستقلَّت أول قطار إلى باريس ونزلت بفندق ريتز. وفيه كانت هناك غرفة محجوزة باسمها من الليلة السابقة من قِبَل إحدى شريكات نايتون. لم يكن عليها سوى البقاء فى انتظار وصولك. لم تكن المجوهرات بحوزتها فى أى وقت. لم يتَّجه الشك نحوه أبداً باعتباره سكرتيرك؛ ولذا أحضرها إلى نيس دون أدنى خوف من اكتشافه. تسليمها إلى السيد بابولوس كان أمراً مُعدًّا له سلفاً. وقد أوكل بماسون أمر تسليمها إلى التاجر اليونانى. كانت خطة مُرتَّبة بعناية فائقة، كما يُتَوقَّع من شخص بدهاء الماركيز".

"هل تعنى حقاً أنَّ ريتشارد نايتون هو مجرم ذائع الصيت، وهو يزاول هذا منذ سنوات؟".

فأومأ بوارو .

"إن أحد المميزات الأساسية التى يُعْرَف بها المدعو ماركيز هو أسلوب حديثه الوصولى والذى يسهل تصديقه. لقد أخذك سحر منطقه يا سيد فان ألدن، حين ارتبطت به بهذه السهولة وبعد معرفة سطحية".

فصاح المليونير قائلاً: "أكاد أجزم أنه لم يَرْم إلى الوظيفة".

"لقد فعل ذلك بدهاء بالغ – دهاء يكفى حتى لخداع رجل خبير مثلك".

"لقد درست تاريخه أيضاً. لقد كان سجل الرجل رائعاً".

"نعم، نعم، كان ذلك جزءاً من اللعبة؛ فسيرة ريتشارد نايتون خالية تماماً من كل ذنب؛ فهو حسيب المولد، رفيع الصلات، شارك فى الحرب ببسالة، ويبدو أنه فوق الشبهات بالكلية، لكن حين بدأت استجلاء الحقيقة حول الماركيز الغامض، وجدت تشابهات عديدة؛ فنايتون يتحدَّث الفرنسية كأهلها، وقد ذهب إلى أمريكا وفرنسا وإنجلترا فى الأوقات التى قام فيها الماركيز بعملياته هناك. آخر ما سُمِعَ عن الماركيز أنه أدار عدة عمليات لسرقات مجوهرات فى سويسرا، وقد صادف أنَّك قابلت ماجور نايتون فى سويسرا، وكان ذلك تحديداً فى الوقت الذى سرت الشائعات بأنك تحاول الاستحواذ على الماسات الشهيرة".

فقال فان ألدن فى انكسار: "لكن لماذا القتل؟ إنَّ اللص الذكى هو مَنْ يستطيع سرقة المجوهرات دون أن يخاطر برقبته".

فهز بوارو رأسه: "هذه ليست واقعة القتل الأولى التى تَنْسَب إلى الماركيز؛ فهو قاتل بالفطرة، وهو يؤمن أيضاً بأنه لا ينبغى أن يترك خلفه أى دليل عليه؛ فالأموات لا يمكنهم التحدُّث.

لقد كان الماركيز مغرماً بالمجوهرات الشهيرة والتاريخية. لقد رتَّب خطَّته قبل تنفيذها بكثير من خلال تثبيت نفسه فى العمل كمساعد لك، وتمكين شريكته من أن تصبح خادمة ابنتك، والتى خمَّن أن تكون المجوهرات من أجلها، ورغم هذا الترتيب المحكم، إلا أنه لم يتردَّد فى محاولة القيام بالاستيلاء عليها بطريق مختصر من خلال تسليط اثنين من قطَّاع الطرق للخروج عليك ليلة أن ابتعت تلك المجوهرات فى باريس. فشلت تلك المحاولة، وهو الأمر الذى لم يندهش له حسب ظنى. لقد كانت تلك الخطة آمنة تماماً. فليست هناك احتمالية للشك فى ارتباط ريتشارد نايتون بأمر كهذا. لكنه، وككل العظماء – والماركيز كان أحد العظماء – له نقاط ضعْفِه. لقد أحبَّ مخلصاً الآنسة جراى، ولشعوره بأنها تحب ديريك كيترينج لم يقاوم رغبة لديه بإلصاق التهمة بديريك حين لاحت الفرصة لذلك. والآن دعنى أخبرك يا سيد فان ألدن بشىء غريب جداً. إن الآنسة جراى ليست من النوع الذى يؤمن بالأوهام مطلقاً، إلا أنها اعتقدت بشدة فى أنها شعرت بوجود ابنتك بجوارها فى أحد الأيام بحدائق الكازينو فى مونت كارلو، بعد حوار طويل دار بينها وبين نايتون. وقد اقتنعت بشدة فى أنَّ الفقيدة كانت تريد إخبارها بشىء، وفجأة خطر ببالها أنها أرادت إخبارها بأن نايتون هو قاتلها! لقد بدت الفكرة أسطورية تماماً حتى إنَّ الآنسة جراى لم تُحدِّث بها أحداً. لكنها كانت مقتنعة تماماً بذلك حتى إنَّها تصرَّفت على هذا الأساس. لم تكبح محاولات تقرُّب نايتون، وادَّعت قناعتها بأنَّ ديريك هو القاتل".

قال فان ألدن: "أمر غريب".

"نعم، كان أمراً غريباً بالفعل. لا أحد يمكنه تفسير أمور كهذه. أوه بالمناسبة، هناك أمر واحد أخير أربكنى جداً. سكرتيرك كان يعانى من عرجة واضحة فى مشيته؛ وهى نتيجة جرح أُصِيب به فى الحرب. أمَّا الآن فماركيز لا يعانى من أى عرجة فى مشيته. كانت تلك حجر عثرة. لكن الآنسة لينوكس تامبلين ذكرت ذات مرة أنَّ عرجة نايتون كانت مفاجئة للجرَّاح الذى كان مسئولاً عن حالته فى مستشفى أمها. هذا يعنى أنَّ عرجته هذه هى للخداع. وحين كنت فى لندن ذهبت إلى ذلك الجرَّاح، وحصلت منه على العديد من التفاصيل التى أكدت لى هذا الاعتقاد. وقد ذكَرْت اسم ذلك الجرَّاح على مسامع نايتون أول أمس. وكان الطبيعى منه أن يذكر أنَّ هذا الجرَّاح هو مَنْ عالجه فى أثناء الحرب، لكنه لم يتكلم – وهذه التفصيلة على صغرها أكَّدت لى صدق نظريتى. إضافة إلى أنَّ الآنسة جراى أمدَّتنى بإضافة أخرى قاطعة، وهى أنَّ مستشفى السيدة تامبلين تعرَّض للسرقة فى أثناء خضوع نايتون إلى العلاج فيه. لقد أدركَت كاثرين أننى أتبنَّى نظريتها حين كتبت إليها من فندق الريتز فى باريس.

واجهتْ تساؤلاتى هناك بعض العقبات، لكننى حصلت على ما أردت – إفادة بأنَّ أدا ماسون وصلت صباح يوم الجريمة، وليس فى مساء اليوم السابق".

ساد صمت طويل، ثم مدَّ المليونير يده نحو بوارو عبر الطاولة.

"أظنّك تدرك ما يعنيه ذلك لى يا سيد بوارو، سأرسل إليك شيكاً فى الغد، لكن أى شيك مهما بلغت قيمته لن يعبِّر عن شعورى حيال ما قمت به نحوى. إنَّك الأفضل سيد بوارو، أنت الأفضل دائماً".

نهض بوارو، وقد انتفخ صدره.

وقال فى تواضُع: "أنا فقط هيركيول بوارو، إلا أننى كما تقول رجل عظيم على طريقتى، تماماً كما أنك رجل عظيم. إننى سعيد بأننى كنت فى خدمتك. والآن سوف أذهب لأرتِّب ما بعثَره السفر؛ فرفيقى العزيز جورج ليس معى".

فى بهو الفندق قابل صديقاً – السيد بابولوس وابنته زيا بجواره.

غمغم اليونانى وهو يصافح يد المحقق الممتدة نحوه: "ظننت أنك غادرت نيس يا سيد بوارو".

"لقد أجبرنى العمل على العودة يا سيد بابولوس".

"العمل؟".

"نعم، العمل. وبالحديث عن العمل أرجو أن تكون بصحة جيدة يا صديقى العزيز!".

"أفضل بكثير. الحقيقة أننا عائدون إلى باريس غداً".

"إننى مشتاق لسماع أخبار جيدة. آمل أنَّك لم تأت على مال الوزير اليونانى السابق".

"أنا؟".

"علمت أنك بعته ماسة رائعة، أليس هى ما ترتديه الآنسة ميريلى، الراقصة؟".

فغمغم بابولوس قائلاً: "نعم، هذا صحيح".

"إنها ماسة تشبه تلك الماسة الشهيرة: "قلب النيران".

فقال اليونانى على نحو عارض: "بينهما أوجه تشابه بالطبع".

"إنَّ لك يداً رائعة فى صياغة المجوهرات يا سيد بابولوس. تهانئى للآنسة زيا بالعودة السريعة إلى باريس. وددت لو أننى قابلت الكثير من أمثالكم حتى يتم لى عملى".

فسأله بابولوس: "هل لى أن أسأل عن هذا العمل؟".

"بكل سرور. لقد نجحت لتوِّى فى القبض على الماركيز".

علت ملامح وجه بابولوس الكريمة نظرة سعيدة جداً.

وغمغم قائلاً: "الماركيز؟ وما الذى يجعل هذا مرتبطًا بى؟ لا – إننى لا أذكره".

فقال بوارو: "بالطبع أنا على يقين من ذلك؛ فهو مجرم شهير ولص مجوهرات. لقد قُبِضَ عليه للتو بتهمة قتل السيدة الإنجليزية، السيدة كيترينج".

"حقاً؟! هذه القضايا تكون على جانب كبير من الإثارة!".

تبادلا عبارات الوداع المهذَّبة، وبعد أن ابتعد بوارو التفت بابولوس لابنته.

"زيا، هذا الرجل هو الشيطان بعينه".

"إننى أحبه".

فقال بابولوس: "أنا كذلك أحبه؛ لكنه شيطان بكل حال".

الفصل السادس والثلاثون

على شاطئ البحر

قاربت شجرة الميموزا على الذبول. الرائحة المنبعثة منها لم تكن لطيفة. كانت نباتات إبرة الراعى الوردية تُعلّق بدرابزين فيلا السيدة تامبلين، ومقادير كبيرة من أزهار القرنفل تُرسل عبيرها الفوَّاح. والبحر المتوسط يمتد فى أشد حالاته زرقة. كان بوارو يجلس فى شرفة الفيلا مع الآنسة لينوكس. كان قد أتمَّ لتوِّه رواية ذات القصة التى حكاها من قبل لفان ألدن. استمعت إليه لينوكس باهتمام مطلق، وحاجباها معقودان فى غم.

وحين انتهى قالت:

"وماذا عن ديريك؟".

"أُطْلِقَ سراحه بالأمس".

"وإلى أين رحل؟".

"لقد غادر نيس ليلة أمس".

"إلى ساينت مارى ميد؟".

"نعم، إلى هناك".

صمتا لحظات.

ثم قالت لينوكس: "لقد كنت مخطئة فى ظنِّى بكاثرين. لقد ظننت أنها لا تبالى".

"إنها متحفِّظة. ولا تثق بأحد".

قالت لينوكس برنَّة مرارة فى صوتها: "لعلها كانت تثق بى".

فقال بوارو فى جمود: "نعم، لعلها كانت تثق بك. لكن الآنسة كاثرين عاشت ردحاً طويلاً من عمرها فى استماع غيرها، وهؤلاء الذين يجيدون الاستماع لا يسهل عليهم التحدُّث؛ فيحتفظون بأحزانهم ومسرَّاتهم لأنفسهم ولا يخبرون بها أحداً".

قالت لينوكس: "لقد كنت حمقاء، لقد ظننت بالفعل أنها قد أحبَّت نايتون. أظننى اقتنعت بذلك لأننى – لأننى وددت ذلك".

تناول بوارو يدها وضغطها فى ود قائلاً: "تشجَّعى يا آنستى".

تطلَّعت لينوكس مباشرة نحو البحر، وبدا وجهها - بصلابته القبيحة - جميلاً.

قالت فى النهاية: "أوه حسناً، ما كان ذلك ليحدث بيننا. أنا صغيرة جداً بالنسبة لديريك؛ إنه يبدو كطفل لن يكبر أبداً".

ساد بينهما الصمت طويلاً ، ثم استدارت نحوه لينوكس سريعاً وعلى نحو انعكاسى، وقالت: "لكننى ساعدت، سيد بوارو – على أى نحو – أرانى ساعدت".

"نعم آنسة؛ لقد كانت ملاحظتك هى ما منحنى الإشارة الأولى نحو الحقيقة حين قلتِ إنَّ الشخص الذى ارتكب الجريمة ليس بالضرورة أن يكون على متن القطار؛ فقبل حديثك هذا ما كنت لأرى الأمور على النحو الصحيح".

تنفَّست لينوكس بعمق.

وقالت: "إننى سعيدة، على نحو ما أنا سعيدة".

من بعيد دوت صافرة موتور صارخة.

قالت لينوكس: "تلك هى صافرة القطار الأزرق اللعين، إنَّ القطارات آلات قاسية، أليس كذلك، سيد بوارو؟ فالناس عليها تُقْتَل وتموت، وهى تواصل سيرها على كل حال. حديثى هذا هراء، لكنك تفهم ما أعنى".

"نعم، نعم، أعلم؛ فالحياة مثل القطار آنستى؛ فهى تواصل المسير، وهذا شىء جيد".

"لماذا؟".

"لأن القطار يصل لمحطته النهائية فى نهاية الأمر، وهناك مَثَلٌ عندكم يعبر عن هذا يا آنستى".

فقالت لينوكس ضاحكة: "الأحباب يلتقون فى نهاية الرحلة. لكن هذا المثل لا يصح فى حالتى".

"نعم، نعم، هذا صحيح. أنت صغيرة يا آنستى، أصغر مما ترين نفسك. فثقى بالقطار؛ لأنه يسير بعناية الله".

دَوت الصافرة مرة أخرى.

ثم غمغم مرة أخرى قائلاً: "ثقى بالقطار، وثقى بهيركيول بوارو؛ فهو يعرف".

فيلم لغز القطار الأزرق

مقابلات كواليس الفيلم

تريفور هوبكنز 365

جيف تيسلر 368

ديفيد سوشيت 370

إليوت جولد 378

جايمى مورای 382

ليندسای دونكان 385

جورجينا ريلانس 390

جوزيت سايمون 391

أبطال العمل

ديريك كيترينج	جيمس دارسى
ليدى روزالى تامبلين	ليندسى دانكان
لينوكس تامبلين	أليس إيف
ماجور نايتون	نيكولاس فاريل
أدا ماسون	برونا جاليجر
روفوس فان ألدن	إليوت جولد
كوركى	توم هاربر
المفتش كوكس	روجر لويد باك
دوق لا روش	أوليفر ميلبيرن
روث كيترينج	جايمى موراى
كاثرين جراى	جورجينا ريليانس
ميرى ميليسى	جوزيت سايمون
هيركيول بوارو	ديفيد سوشيت

السيناريو	جاى أندروز
المخرج	هيتى ماكدونالدز
المنتج	تريفور هوبكنز

المنتجون
المنفذون

ميشيل باك

داميان تيمر

فيل كلايمر

ديليا فاين

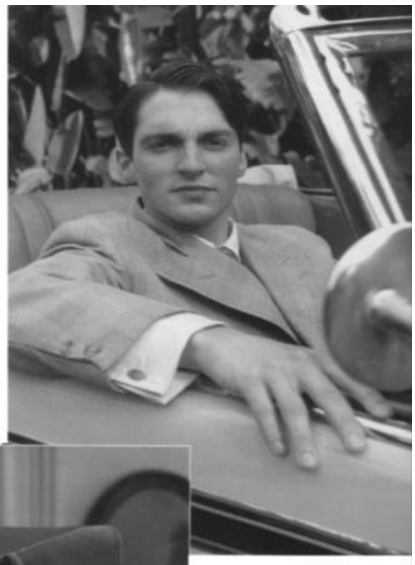

(الصفحة السابقة) ديفيد سوشيت مع روجر لويد بالك فى دور المحقق كوكس، وإليوت جولد فى دور روهوس فان ألدن. جوزيتى سايمون فى دور ميريلى ميلسى (على اليمين)، وتوم هاربر فى دور كوركى، وجورجينا ريلانس فى دور كاثرين جراى.

بـوارو مع الماجور كينجتون نايتـون (نيكولاس فارل) وأدا ماسـون (برونا جالاجار، بالأعلـى)، وأليس إيف هـى دور لينوكس تامبلـين، وليند.سای دونكان هـى دور أمها السيـدة روزای تامبلـين (بالأسفـل). ديفيـد سوشيـت هـى موقـع التصوير (على اليسار).

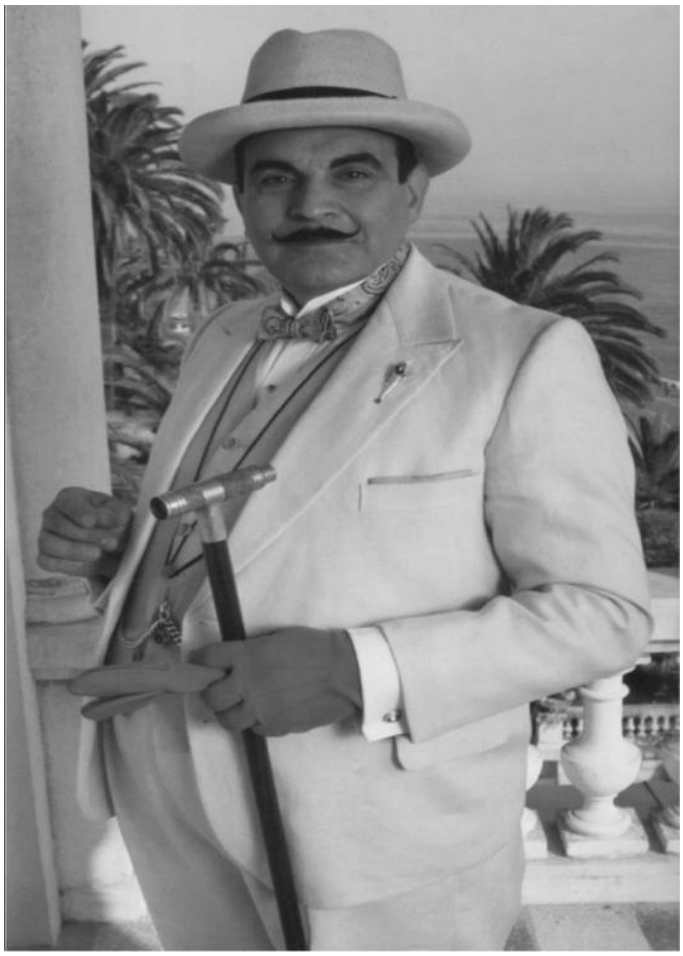

نيكولاس فارل فى دور الماجور كينجتون نايتون (على اليمين) والسيدة روزالى وكوركى (ليندساى دونكان وتوم هاربر، على اليسار) وتجمع للممثلين بالمحطة (بالأسفل).

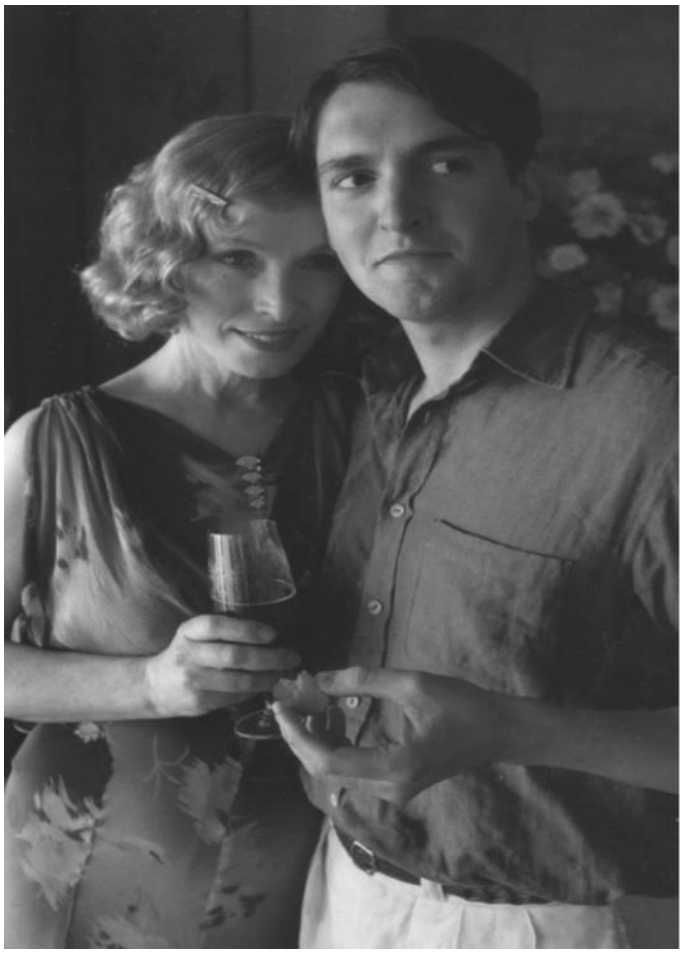

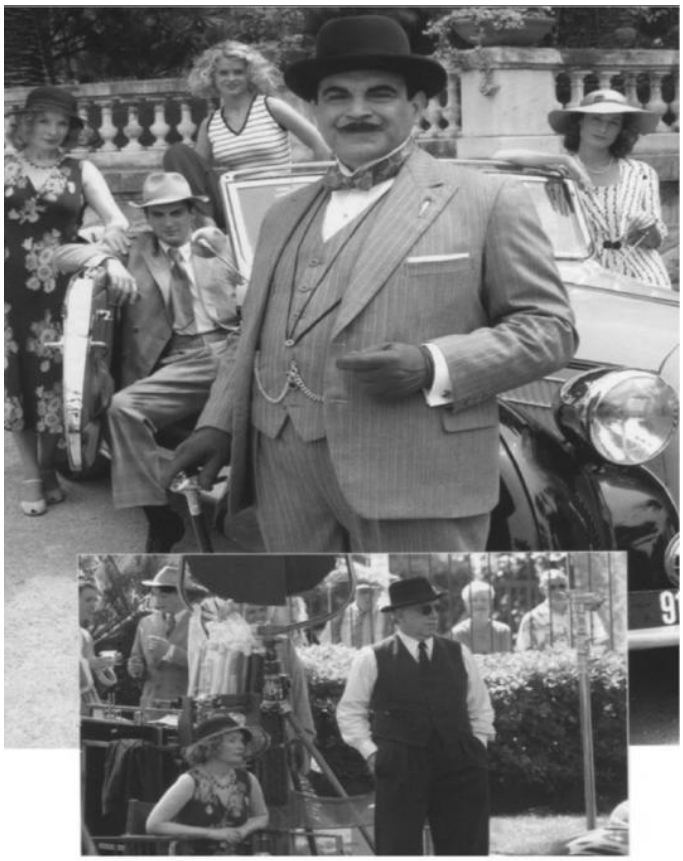

ديفيد. سوشيت وأصدقاؤه فى موقع التصوير بجنوب فرنسا.

نبذة عن الفيلم

يعود ديفيد سوشيت لأداء الشخصية الشهيرة التى ابتكرتها أجاثا كريستى، شخصية المحقق البلجيكى الشهير هيركيول بوارو فى أربعة أفلام جديدة. الفيلم الأول هو لغز القطار الأزرق، وسوف يتبع هذا العمل بإنتاج ثلاث روايات أخرى لأجاثا كريستى وهى: أوراق لعب على الطاولة، ما بعد الجنازة، انجراف مع الفيضان.

وقد تمَّ تصوير الفيلم الذى تبلغ مدَّته ساعتين فى فيلا رائعة على الحدود الفرنسية الإيطالية، ومنتجعات مينتون بيالوى سير مار، وكذلك فندق بارك لان بلندن، وسكك حديد نين فالى خارج مدينة بيتربورو، وقد التقينا ببعض من فريق العمل فى أثناء التصوير وبدأنا مع منتج السلسلة، تريفور هوبكنز.

تريفور هوبكنز
المنتج

ليس هناك الكثير من صنَّاع الأفلام ممَّن يستطيعون إغلاق الطريق الساحلى بين فرنسا وإيطاليا. لكن هذا ما استطاع تريفور هوبكنز منتج أفلام المحقق بوارو فعله من أجل تصوير مشاهد لغز القطار الأزرق؛ فبعد أن وجد فيلا مطلَّة على البحر على بعد مائتى متر من الحدود الإيطالية، استطاع تريفور وفريق إعداد موقع التصوير إقناع السلطات الفرنسية بإغلاق الطريق السريع.

"حين عرض عليهم هذا للمرة الأولى، ارتابوا فيه للوهلة الأولى، ظانين أننا نحاول المستحيل. قدَّمنا طلباً إلى السلطات الفرنسية المحلية، وكانوا فى غاية التعاون، لكن بعد أسبوعين أخبرت بأنَّ علينا أن نتحدث مع الإيطاليين فى الأمر، فعدت لشكِّى مرة أخرى. لكن العجيب أنهم وافقوا هم أيضاً.

والحقيقة أنهم لم يغلقوا لنا الطريق فحسب، لكنهم اختطُّوه فى مسار جبلى آخر قبل أسبوع من سباق الجراند بركس فى مونت كارلو!".

لقد كان لغز القطار الأزرق هو الفيلم الأول بين أربعة أفلام سيتم إنتاجها هذا العام.

"إنَّ البدْء بالقطار الأزرق هو خيار أملاه علينا الطقس، وحقيقة أنه يجب علينا أن نكون فى جنوب فرنسا قبل أن ينزل الجميع هناك إلى المصيف.

ولأن ديفيد يرتدى الكثير من الحشوات فى تجسيده شخصية بوارو، كان علينا أن نصوِّر فى درجة حرارة معقولة. وتحدَّثنا عن التصوير فى أماكن أخرى – كانت هناك إمكانية للتصوير فى كرواتيا، وتركيا، لكن لم يكن من السهل استبدال جنوب فرنسا بأماكن أخرى.

مع تقنيات الجرافيك الحديثة، يمكنك خلق كل أنواع البيئات الاصطناعية، لكننا أردنا ساحلاً نشعر معه بالواقعية. وكنت مرتاباً بشدة فى إمكانية إيجاد فيلا بالحجم المطلوب والقرب الشديد من الشاطئ وبحالتها الأصلية تقريباً؛ فالأثرياء الروس يحبون اقتناء هذه الفيلات وتحديثها.

"والفيلا التى صوَّرنا بها - بناها رجل إنجليزى وتُرِكَت فى تصرُّف الإدارة المحلية للمدينة، وهى الآن تحت تصرُّف عمدة المدينة. وكان لدينا مدير فرنَسى رائع لموقع التصوير والذى نسَّق للنزول إلى البلدة والحديث مع كبار السنِّ بها، والذين كانوا من كبار محبِّى شخصية المحقق بوارو، والتى تُعْرَض حلقاته مرة كل أسبوع فى تليفزيون مونت كارلو؛ ولذا كانت سعادتهم بنا غامرة".

كانت مهمة تريفور منذ البداية ألا يعمل على تنميط هذه القصص الجديدة؛ فقدَّم عنصراً جديداً لخلطة بوارو المعتادة.

للمرة الأولى، تقوم امرأة بإخراج إحدى قصص المحقق بوارو. إننى أحب العمل مع مخرجات؛ فأجد أنهن يتناولن القصة موضع العمل بمنطق عاطفى مختلف. وقد وجدت أنه سيكون من الممتع تكليف نساء بإخراج مغامرات بوارو. لقد عملت مع هيتى ماكدونالاد فى فيلم ويليم ومارى، وأدركت أنها ستحب هذا التحدى. ستكون سارا هاردنج هى المرأة الثانية التى ستُخْرِج الرواية التالية وهى "أوراق لعب على الطاولة". وقد سبق لها أن أخرجت فيلم بوليانا والذى كَنت المنتج له.

ما لا يتغيَّر هو الإيحاء الناجح بالفترة الزمنية للأحداث".

"أحداث الأفلام الأربعة تجرى فى أواسط الثلاثينيات. والسنة المرجعية لكتابنا ومصممينا هى عام 1936، لكننا لم نسمِّ قط العام بشكل صريح".

يقول بوارو إنَّ أكثر مراحل العمل إثارة كانت حين اكتشف مدى حماسة الممثلين للعمل فى مغامرات بوارو والعمل مع ديفيد سوشيت.

"إنها ليست قضية مال؛ فهم يقومون بذلك لأنهم يودون القيام بذلك. فهم يكنُّون احتراماً هائلاً لديفيد وللشخصية التى يجسِّدها. وهو يتعامل فى كل يوم وكأنها أول مرة يجسِّد فيها شخصية بوارو، ولديه معرفة مذهلة بالفترة الزمنية للأحداث، وبالشخصية وبحبكة كريستى للعمل".

جيف تيسلر
مدير الإنتاج

يدرك جيف تيسلر مدير الإنتاج من عنوان قصة الفيلم ما يستلزمه الأمر.

يقول جيف: "ندرك جميعاً أنه كان علينا بناء هيكل داخلى للقطار؛ لحل إشكالية المساحة. فحصنا بعض العربات المرمَّمة خارج محطة باريس وكانت فاخرة جداً، لكن التشطيبات كانت هشَّة للغاية

بحيث لا يمكن تثبيت إضاءة تليفزيونية خوفاً من خطر تشويهها.

ولذا استقرَّ الرأى على أن نعيد بناء قمرة طعام فخمة وعربة نوم لقطار أوروبى، وذلك باستخدام خشب الرقائق، والورق، والدهانات. آمل أن ينجح ذلك – ولعلنا نعود لاستخدامها فى تصوير قطار الشرق السريع".

ولكن جيف أقرَّ بصعوبة الأمر؛ فمع الحاجة للسفر المتلاحق إلى ساحل الريفييرا الفرنسى لتصوير معظم المشاهد، كان طاقم العمل مضطراً لنقل هيكل عربات الدرجة الأولى والسكة الحديدية؛ لتصوير المشاهد الخارجية للقطار والمحطات الفرنسية فى كمبريدج شاير!

سكك حديد نين فالى فى بيتربورو تملك مجموعة من القاطرات والعربات هى الأكثر تنوُّعاً فى البلاد، وتحتوى على نماذج من فرنسا وبلاد أوربية أخرى، إضافة لكونها مقراً لقاطرة توماس!

"حين شرعنا فى العمل فى الفيلم، لم تكن لدينا أية فكرة أنَّ هناك عربات قطارات فى بيتربورو؛ فتجوَّلنا عبر الإنترنت بحثاً عن عربات القطار فى أوربا، حتى ذكر أحدهم نين فالى. والآن، ومن خلال التقنيات الحديثة والاستخدام الحاذق للكاميرا استطعنا أن نجعل ثلاث عربات تعطى الإيحاء بقطار كامل.

أما بالنسبة لموقع التصوير فى فرنسا والذى يتمثل فى فيلا السيدة تامبلين؛ فقد وجد جيف واحدة تسمى فيلا ماريا سيرينافى منتون وهى لا تبعد إلا مائتى متر عن الحدود الفرنسية الإيطالية.

إنه منزل جميل لم يتغير منذ عشرينات القرن العشرين إلا تغييرات طفيفة، وكان من سكنوه أناسًا يشبهون شخصيات القصة جداً.

ديفيد سوشيت
هيركيول بوارو

فى استفتاء جرى حديثاً حول أكثر الشخصيات التليفزيونية قبولاً لدى الناس فى نصف القرن الماضى، حل بوارو فى المرتبة الثالثة عشرة. لكن هذه لم تكن نتيجة سيئة إذا وضعنا فى الاعتبار استفتاء آخر جرى حول أحب شخصيات أجاثا كريستى للجمهور والذى تم فيه اختيار بوارو فى المرتبة الأولى.

سألنا ديفيد سوشيت عن رأيه فى هذه الاستفتاءات وهو الذى قضى سنوات يمثل هذه الشخصية؛ فكان رده كما يلى:

إننى فى غاية السعادة لأن الحلقات التليفزيونية التى صورناها لم تقلل من شعبية تلك الشخصية التى عرفها الناس عن طريق الكتب. إننى منذ بدأت تصوير هذه الشخصية فى ثمانينيات القرن العشرين، كنت على يقين من أنها ستنجح ولن تفقد جاذبيتها أبداً؛ فشخصية بوارو والتى ظهرت

أول مرة فى عشرينيات ذلك القرن نالت شعبية جارفة أشبه بشعبية مطربى البوب فى زمننا هذا، ولم يتوقف نجاحها حتى الآن.

كلنا يعلم أن تلك الشخصية قد مثلها الكثيرون، وأبرزهم آلبرت فنلى وبيتر أوستينوف اللذان نجحا نجاحاً كبيراً. وعندما طلب منى أن أستكمل المسيرة، كانت شعبية أفلام بوارو وحلقاته التليفزيونية آخذة فى الانخفاض. فقد صار الناس يرونه شخصية كاريكاتورية أكثر من كونه محققاً فائق الذكاء، وهو ما لم يكن هدف أجاثا كريستى على الإطلاق.

لقد تناولت ذات مرة غداء طويلاً للغاية مع روزاليند هيكس، ابنة أجاثا كريستى، وزوجها أنتونى الذى نظر إلىَّ مباشرة وقال لى: "لقد اخترناك أنت لتلعب شخصية بوارو، ولكننى أريد منك أن تفهم شيئاً واحداً فهماً جيداً، إننا نريد أن نضحك مع بوارو لا أن نضحك عليه؛ فهو ليس بمهرج، إنه رجل فكه، ولطيف، وغريب الأطوار، ويثير الأعصاب بشكل غير معقول، وله عقل جبار يستطيع أن يحل الألغاز بشكل لا يستطيعه غيره".

إننى مازلت أذكر هذا الحديث حتى هذا اليوم، ولهذا فكلما سمعت عن استفتاء عن أحب شخصيات أجاثا كريستى، أسر لأن الناس ما زالت تحبها.

حتى بعد سبعة عشر عاماً من أدائه للدور، يظل ديفيد شديد التدقيق فى الإعداد وتنفيذ دوره.

"لا أجد فى الأمر ما يدعو إلى الملل؛ فعلىَّ الالتزام، قد يرى البعض أنى أبالغ فى الالتزام؛ فقد قال لى أحد المخرجين: "إنَّ العمل معك يا سوشيت، أقرب إلى جلسات التعذيب اليابانية بالماء؛ أنت لا تفوِّت شيئاً أبداً، أبداً! فأنت تتابع وتكرر حتى تصل إلى الكمال وهذا أحياناً ما يثير جنون مَنْ حولك!".

ولهذا فأنا أعلن على الملأ اعتذارى لكل مَنْ عمل معى. لكن هذا لن يثنينى عن المضىِّ قدماً فى دقتى البالغة فيما يخص المحافظة على معايير الأداء الذى ينبغى أن أكون عليه. والآن، وباعتبارى المنتج المساعد، أصبحت لدىَّ فرصة لقول ما أراه إذا شعرت أنَّ المعايير الكليَّة للإنتاج لم تتم المحافظة عليها.

إنَّ المشاهدين لا يلحظون بشكل مباشر تلك التفاصيل الدقيقة، لكنهم يُعْجَبُون بها إن وجدوها؛ فهم مثلاً لن يلاحظوا شيئاً إذا لم يخلع الرجال قبَّعاتهم حين يمر الملك، لكن إن فعلوا، سيقول الناس: "أوه انظروا، لقد خلعوا القبعات، أليست هذه لمسة إتقان؟".

كذلك الحال فى هيئة الممثل عند ارتداء ملابس فترة زمنية معينة؛ فحين يرى المشاهدون الممثلين مثلاً يتحرَّكون بإتقان فى ملابس معينة، يقولون: "أوه، يالها من أناقة!"".

لكن ديفيد قادر على تناسى شخصية المحقق البلجيكى الضئيل حين ينخرط فى أى عمل آخر كما هو الحال فى أدائه دوره فى مسرحية "الرجل والصبى"، قبل أن يعود مباشرة إلى أدائه شخصية

بوارو عام 2005.

"إنَّ شخصية بوارو لا تخطر ببالى إلا حين يأتينى الناس كل يوم لإمضاء الأوتوجرافات أو حين يحدثوننى عنه. وبنهاية آخر مشهد لى فى آخر فيلم من الأفلام الأربعة، سأضع الشخصية جانباً وستظل هكذا حتى أحتاج لتقمُّصها ثانية. وأنا أؤكد لك أنه بعد أسبوع واحد من هجرة الشخصية فإننى أنسى كل شىء دار بشأنها فى الشهور الستة الأخيرة. لابد من المتابعة، لابد من مواصلة المسيرة مع أعمال أخرى وشخصيات أخرى يطلب منى أداؤها".

بعد تمام ستة أشهر من الالتزام بالعمل فى الأفلام الأربعة الجديدة، انضم ديفيد إلى المسرح الوطنى، وقد لعب دور المنتج الهليودى هيرمان جلوجوار فى مسرحية "مرة فى العمر"، وهو الدور الذى سبق أن لعبه مع شركة رويال شكسبير.

"حين أتامَّل تصميم ملابس شخصية جلوجوار التى لعبْتُها فى عام 1979 - قبل تسع سنوات من تجسيدى لشخصية بوارو - فكانت الياقة مجنَّحة، ورباط الرقبة الفراشية، والنظارة الأنفية، والبنطال المخطط، وأغطية الحذاء، والحذاء اللامع. وأنا أعلم أنَّ هذا هو نمط الملبس فى الثلاثينيات، لكننى نزعت نفسى منه وتقمَّصت بوارو وما ينبغى أن يكون عليه بوارو !".

حين يعلم ديفيد أنَّ الموسم الجديد من أفلام بوارو قد هَلَّ، يذهب مباشرة إلى النصوص الأصلية من روايات كريستى.

"حين كنَّا طلاب دراما صغارًا كان يقال لنا دائماً: "لا تقلق بشأن دراسة الكُتب، فسوف تعمل على نصوصها لاحقاً". لكن لا أستطيع ذلك مع بوارو فهو شخصية أدبية شهيرة".

أخرج ديفيد من حقيبته نسخة من الكتاب الذى يقوم بتصويره حالياً.

قال وهو يذكر مقطَعاً من رواية Taken at the Flood: "كما ترى، أنا أثنى الصفحات التى أتوقَّف عندها.

"بلل بوارو إصبعه، وحكَّه بطول الركن الأيمن للمدفأة، ثم استطلع النتيجة".

"هذا هو المشهد الذى قمت بتصويره تماماً كما قرأته الآن؛ فقد أخبرنى أحدهم حين دخلت موقع التصوير بما كان علىَّ فعله، كما لو أنه لا يوجد عبارات بالنص فيما يخص هذا.

"والآن أى شخص يرى الفيلم سيدرك أننى مخلص لشخصية بوارو التى هى من خلق أجاثا كريستى. إنها تفصيلة صغيرة، لكنها مهمة".

مع كل فيلم جديد، يستضيف ديفيد طاقم ممثلين وفنِّيين جدد.

"إننى أدرك تماماً - وكما كنت فى شبابى وأنا أشارك بالعمل فى سلاسل تَقدَّم لمدد طويلة - أنَّ كل شىء يعوَّل على الممثل الرئيسى للسلسلة. وأؤمن بأنه من واجب الممثل الرئيسى للعمل - وبشكل صادق غير متكلَّف - أن يرحِّب بكل من وافق على الظهور فى هذا العمل.

"إننا الآن نعمل مع أفضل الممثلين، ونعمل جميعاً دون أى نوع من الرتابة؛ فبهذا المنطق يشعر المشاركون فى العمل بالدفء والإقدام على العمل؛ ومن ثم يُقدِّمون أفضل ما لديهم".

السلسلة الجديدة التى تتكوَّن من أربعة أفلام أخذت من وقت ديفيد ستة شهور عام 2005 ، ومعظم وقته خلالها.

"حين أعود إلى منزلى ليلاً وبعد اثنتى عشرة ساعة فى موقع التصوير - أُخصص ثلاث ساعات لدراسة الشخصية ليلاً، ثم فى الصباح أُخصص ساعتين أخريين للعمل ذاته، قبل أن أبدأ العمل. منبِّه ساعتى يدق فى الرابعة؛ فأقوم بالدراسة لساعة ونصف أخرى، ثم أقوم بالدراسة وأنا فى السيارة متَّجهًا إلى موقع التصوير.

أحب أن أكون سابقاً على التصوير فى دراستى للنص بفترة تتراوح بين أسبوع وأسبوعين. المشاهد المجملة قد تمتد لأكثر من تسع عشرة صفحة ونقوم بتصويرها فيما يقارب يومين ونصف. وينبغى أن أكون متقناً تماماً لدورى بها؛ وهذا لأن المشاهد المجملة تكون هى المشاهد الجماعية فى الرواية أو على الشاشة، ونحن نحاول تأخير تصويرها إلى النهاية فى العادة قدر الإمكان. لكننى أدرس المشاهد الأخرى فى ذات الوقت الذى أدرس فيه المشاهد المجملة".

فكيف إذن يتمكن ديفيد من المحافظة على معدَّلات نشاطه؟

"أنا لا أفعل أى شىء خارج المألوف. لكننى دائماً أقول إنَّ الله خلقنى أحب العمل".

لكنه اعترف بأنه لا يحتاج إلى كبير عناء ليتقمَّص شخصية ذلك المحقق.

"بمجرد أن ينضبط لى ذلك الشارب، أُصبح بوارو؛ فأنا أعرفه تمام المعرفة؛ بل إننى أحياناً أظننى أعرفه خيراً من معرفتى بنفسى! أظن أنَّ بإمكانى تقمُّصه فى أى موقف وأعرف كيف أتصرَّف؛ فلتعطنى مثلاً قائمة طعام وسأطلب ما يهواه منها نيابة عنه".

وبعد إتمام أربعة أفلام جديدة، ما الذى يراه ديفيد فى مستقبل هذه السلسلة؟

"مَنْ يدرى؟ أنا لا أدرى وكذلك بوارو".

لكن لا تزال هناك رواية جريمة فى قطار الشرق السريع؛ ليتم تقديمها فى سلسلة تليفزيونية، وهى الرواية التى تمَّت الإشارة إليها فى لغز القطار الأزرق.

"من حسن الحظ أننا قدَّمناها بالترتيب الصحيح. فلغز القطار الأزرق كَتِبَ قبل قطار الشرق السريع، كما أننى كنت صارماً جداً فى توضيح ذلك فى أثناء قراءة النص؛ فأنا شديد الدقة! فقد كانت عبارتى الأصلية رداً على كاثرين، أننى ركبت قطار الشرق السريع مرة واحدة، لكن حين تأمَّلت تواريخ إصدار الروايتين، أدركت أنَّ هذا غير ممكن! فغيَّرت جملتى لتكون: "ليس بعد، لكنى آمل أن أركبه يوماً ما".

مع إعادة تصنيع باذخة للقطار الأزرق، يوجد الآن فى مخازن شيبرتون قماش البلش الذى تُكْسَى به الحوائط الداخلية للقطار، فى انتظار مَنْ يعيد استخدامها.

فقال مبتسماً: "أنا لم أقطع تذكرة بعد على متن قطار الشرق السريع! لكننى أعلم الآن أنه حتى لو كان إلى بيتربورو وليس استانبول، فسيبقى على مظهره الرائع".

إليوت جولد
روفوس فان ألدن

قاس لكنه غير منعدم الضمير. هكذا يرى إليوت جولد شخصيته؛ فهو يجسِّد شخصية رجل الأعمال الأمريكى رفوس فان ألدن، فى مغامرة بوارو"لغز القطار الأزرق".

"هكذا ينبغى أن يكون، حتى يصل إلى النجاح والثراء الذى هو عليه". هكذا يتحدث إليوت عن شخصية فان ألدن فى أثناء التصوير فى لندن بعد نوبة عمل فى الريفييرا الفرنسية. ويقول عمَّن قد يرد إلى ذهنه من شخصيات حقيقية حين يجسِّد شخصية فان ألدن: "لقد قابلت ذات مرة جاك وارنر (المؤسس المشارك لشركة وارنر برازرز)".

لكن ما الذى يدفع نجماً أمريكياً شارك فى أفلام ضخمة مثل Mash و The Long Goodbye و Ocean's Eleven إلى أن يسافر ستة آلاف كيلو متر؛ ليلتحق بديفيد سوشيت وفريق العمل الإنجليزى من أجل صناعة هذا الفيلم؟

"إدارة الإنتاج كانت تبحث عن وجه أمريكى معروف لأداء دور مهم، وشعرت أنَّ هذا هو الوقت المناسب. وأصارحك القول بأنى لم أكن قرأت من النص ما يكفى للموافقة على القدوم والمشاركة مع الفريق البريطانى فى عمل تراثى هو الأهم من بين كل ما شاركت فيه.

منذ عدة سنوات قمت بعمل فيلم من إنتاج بى بى سى، هو "Doggin' Around"، وهو على اسم مقطوعة من موسيقى الجاز سجَّلها كونت بازى عام 1936 ، وهو ذات العام الذى ظهر فيه بوارو! تعرَّفت على إيوان ماكجريجر – وعزف أمامى فعلمت أنَّ له مستقبلاً باهرًا".

خلال إقامته بلندن - إليوت الذى بدأ عمله كراقص جماعى بمسارح برودواى - لم يتمكَّن من حضور مسرحية إيوان التى أعيد تقديمها "جايز أند دولز" فى مسرح ويست إند. لكنه، وبدلاً من ذلك تمكَّن من حضور العرض الموسيقى بيلى إليوت.

يقول ساخراَ: "لم أدفع مقابل عرض كما دفعت لقاء هذا! لقد كلفنى دخول المسرح ثمانين جنيهاَ وفوقها عشرة أخرى. إضافة لأربعة جنيهات لقاء برنامج عروض، وأربعة أخرى لقاء الشراب، وأنا نادراً ما أشرب!

أعجبنى الفيلم وكنت سعيداً جداً؛ لأننى ذهبت إلى مشاهدة العرض؛ فقد استحق العناء والتكلفة. لقد كان كنزاً وطنياً بحق وعرضاً يمكنك السعى خلفه - برجاء المشاهدة - لسنوات!".

أُعْجِب الكثيرون بأداء إليوت لشخصية جاك جيلر، والد مونيكا وروس، فى المسلسل الأمريكى الكوميدى الشهير "الأصدقاء". وخلال إقامته بلندن التقى مجدداً بديفيد شويمر، الذى كان يشارك بمسرحية "Some Girls" على الوست إند.

"ذهبت لرؤية مسرحية ديفيد ثم تناولنا الغداء معاً. قلت له: "لا أريدك أن تدفع لى فأنا ناضج بما يكفى؛ ولذا سنقسِّم التكلفة!".

إليوت يعرف الكثير عن شخصية بوارو، وعن أداء ديفيد سوشيت للشخصية الرئيسية فيه من خلال الإعلام الأمريكى. لكنه لم يبحث عن أى تجسيد سابق لشخصية هذا المحقق.

"لم أكن أعرف - حتى أخبرنى ديفيد - بأنَّ الممثل المفضَّل لديه - وهو تشارلز لافتون - لعب هذا الدور على المسرح عام 1928، ويعد لافتون بالنسبة إلىَّ هو البوتقة التى أنجبت مارلون براندو.

"حتى أننى شرفت بفرصة عظيمة للحديث مع ألفريد هيتشكوك عن تشارلز لافتون. وقد أخبرنا بكل شىء عنه – فقد قضيت ما يقارب من ثمانى ساعات على مائدتى غداء مع هيتشكوك".

على الرغم من أنه ظهر فى الفيلم حليقاً، إلا أن إليوت رأى فى البداية أنَّ شخصية فان ألدن ربما يجب أن تكون ملتحيَة.

"لقد بدت لحيتى لطيفة جداً، قريبة من لحية دونالد سثرفيلد، لكن أشد سواداً. وقد بدت لى فكرة جيَّدة. لكنى اتَّصلت من أمريكا بتريفور منتج الفيلم، وقلت له: "لو لم تعجبْك حين تراها، سوف أحلقها فوراً" وهذا ما فعلت".

قابل إليوت جايمى موراى، التى تلعب دور ابنته فى الفيلم، بعد وصوله للوس أنجلوس وقبل الذهاب إلى نيس، برغم أن دورها لم يحتم عليها السفر إلى فرنسا.

"لقد هاتفتْنى وتحدَّثنا معاً لضبط اللهجة الأمريكية بيننا، ثم تقابلنا فى لندن، وأراها ممثِّلة مميَّزة للغاية".

وبالحديث معه قليلاً فى موقع التصوير قبل أن يطير عائداً إلى كاليفورنيا، تحدَّث إليوت عن إيمانه بأن كل الوقت هو الحاضر فقط.

"لقد قال ديفيد إنّه حزين؛ لأن هذا هو آخر أيام التصوير. وأنا لا أنظر للأمر بهذه الزاوية، فهذا هو آخر يوم يحتاج فيه الإنتاج لدورى، وبعد ذلك سأعود حراً لعمل ما أريد، وخيارى الأول هو أن أعود إلى المنزل".

فى النهاية، قال النجم الأمريكى: "لطالما أجدت العمل ضمن فريق. وبقدر رغبتى فى العمل، بقدر عدم حاجتى إليه، لكننى سعيد حقاً لملاقاة الفريق، وطاقم العمل كله؛ فالعمل بأحد روايات أجاثا كريستى إضافة عظيمة لى".

جايمى مورای
روث كيترينج

جيمى مورای كانت قلقة من مواجهة أبيها على الشاشة - إليوت جولد – قبل أن تقتل.

"اتَّصلْتُ بإليوت فى لوس أنجلوس، وتبادلنا الحديث على الهاتف، بغرض أساسى هو ضبط اللكنة فيما بيننا، وحين حضر إلىَّ فى لندن قبل أن يطير إلى موقع التصوير، قابلته هناك حتى يعرف على الأقل كيف ستكون ابنته التى سيُعْتَدى عليها فى جنوب فرنسا!

إليوت جذَّاب على نحو غير معقول. فله ذلك الصوت العميق الهادئ وله ذلك القوام المثالى؛ ولذا فقد كان العمل معه رائعاً. أخبرنى كل شيء عن لوس أنجلوس وكيف تبدو، وأننى متى ذهبت هناك، فعلىَّ فقط الاتصال به. لقد كان لطيفاً حقاً؛ ولذا فإننى قد استمتعت حقاً بالعمل معه. إنَّ لديه مخزوناً كبيراً من القصص عن نجوم السينما القدامى. وهو يمتلك تاريخاً مهنياً طويلاً ويتمتع بجِرَفِيَّة كاملة".

على الرغم من كونها أحد الركاب المهمِّين على القطار الأزرق، إلا أنَّ جيمى لم تسافر على متنه أبعد مما بين شيبرتون وبيتربرو حتى تصوِّر دورها فى الفيلم باعتبارها روث كيترينج السيدة الأمريكية الأرستقراطية.

"لقد قال لى وكيل أعمالى: "إنَّ لدى نصاً درامياً عن رواية للمحقق بوارو، إنَّه دور رائع، وسيكون عليك الذهاب إلى جنوب فرنسا". بدأت قراءة السيناريو، حتى وجدتنى قُتِلْت! فجعلت أبحث فى السيناريو من أوله إلى آخره، معتقدة أنَّ ثمة خطأ ما.

وهكذا ذهب بقيَّة طاقم العمل إلى نيس وقضوا معاً وقتاً ممتعاً، فى حين كان علىَّ أن أذهب إلى بيتر بورو".

لقد كان فيلم بوارو هو أول مشاركة درامية لتلك النجمة التى شاركت فيما بعد فى مسلسل " Hustle ".

"إننى أحب هذه الحقبة على وجه الخصوص – ذلك التأنق وتلك الملابس؛ إنها حقبة رائعة حقاَ. منذ صغرى كنت أرغب فى أن أصبح ممثلة، وكان الجزء الذى لفت انتباهى هو الملبس ورغبتى فى أن أكون أميرة؛ ولذا أقدمت على هذا العمل وكان رائعاً".

تصف جايمى شخصيتها قائلة: "كنوعية من أغنى النساء فى العالم. فهى فتاة صغيرة غنية مسكينة حقاً". وهى فتاة مفعمة بالحيوية ولعوبة للغاية، ولديها الكثير من الأشياء التى تستمتع بها.

تعتبر روث شخصية مثيرة لأنها تمثل السيدة ديريك كيترينج المبجلة. وقد تزوجت من رجل إنجليزى من علية القوم، ولكن لم تكن علاقتهما على ما يرام، وكان لها علاقة بشخص آخر!".

إذن كيف أصبحت جايمى شخصية اجتماعية؟

"لقد كنت مستمتعة حقاً بالتدريب على اللهجة الأمريكية لأنه أتاح لى الفرصة للعمل مع مدربة الصوتيات "باولا جاك"؛ مما منحنى المزيد من المتعة، وهذا بدوره أضفى طاقة مختلفة على الشخصية مما أسعدنى بتقديم تلك الشخصية".

وتتذكر جايمى كيف اشتمت رائحة وصول المحقق البلجيكى للتحقيق فى جريمتها!

"لقد جسد ديفيد سوشيت الشخصية ببراعة؛ فبمجرد أن ارتدى الشارب، كان مثل بوارو تماماً، ولكننى أعتقد أن هناك الكثير من الصفات الشخصية المشتركة بين بوارو وديفيد. لقد كان مناسباً تماماً لأداء الشخصية.

لقد أحببته كثيراً عندما كان يرتدى البطانة والشارب. كما أنه يتعطر بعطر اللافندر بعد الحلاقة، ولذا فإنه بمجرد أن يصبح بوارو، يمكنك أن تشتم رائحته وهو قادم!".

ليندساى دونكان
السيدة تامبلين

لقد بذل كل من الزوج الشاب لـ ليندساى دونكان وابنتها فى الفيلم قصارى جهدهما لإقناع الشرطة الفرنسية بأنهم عائلة واحدة عند إحدى نقاط التفتيش على أحد الطرق السريعة. وخلال رحلة العودة الخاصة بهم إلى نيس بعد يوم من التصوير فى فيلم بوارو الجديد، كان ثلاثتهم – ليندساى، أليس إيف، توم هاربر – يخضعون لاستجواب من قبل الشرطة.

تتذكر ليندساى الموقف فتقول: "لم نكن نحمل بطاقات هوية – فلم أعتد على حملها. ولذا فقد اعتقدنا أن المشكلة كانت تتمثل فى ذلك. فارتكن الشرطى على باب السيارة، وستجد أننا بدأنا فى قول أى شىء للتخفيف من حدة الموقف؛ فقد أخبرته أليس قائلة: "نحن جميعاً فى الحقيقة ممثلون، ونمثل فى هذه القصة عائلة واحدة"، ويبدو أن هذا لم يكن قابلاً للتصديق، فكنت أقول لنفسى: "أليس، توقفى الآن"

فتخلصت من زينتى لذلك اليوم وكنت أقرب كثيراً لعمرى الحقيقى، وكان من الواضح أن توم الذى كان يلعب دور زوجى يناهز التاسعة عشرة!

وقلت بأسلوب دفاعى: "لقد كنا أسرة سعيدة للغاية على أية حال"، فقال الشرطى: "هذا بالنسبة لك، ولكن ماذا عنه؟".

وبغض النظر عما أحدثه ذلك من ضرر لكبريائى، فقد أدركنا أننا يجب أن نظل معاً ونفعل الشىء الصحيح – أن نخبره أنه كان موقفاً كوميدياً".

فى الحقيقة، تبذل ليندساى قصارى جهدها لاستمرار استقرار الأسرة من خلال أدائها لدور أم أليس إيف فى فيلم بريطانى جديد بعنوان Starter for Ten، مع تشارلز دانس فى دور زوجها.

"لقد فوجئت بكلام مثير من أليس وهى تسألنى ببساطة: "هل ستفعلين ذلك؟"، وفى تلك المرحلة، لم أكن أعرف حقاً ما كانت تتحدث عنه! وعندما عرفت أنها كانت تتحدث عن أدائى لدور أمها ثانية، كنت متحمسة لقبول الدور حتى قبل أن أقرأ السيناريو. ولكن صوت العقل علا على كل شىء فقلت: لقد قرأت الدور وهو رائع فعلاً".

لقد نشأت ليندساى فى فترة الملابس التى كانت ترتديها فى المناسبات الاجتماعية فى رواية Blue Train.

"لقد كانت فترة الثلاثينيات من القرن العشرين أزهى فترة بالنسبة للمرأة – إذا كان لديك المال. فقد كان يتم تفصيل الملابس بكل أناقة وكانت تبرز محاسن الجسم بشكل رائع وفى نفس الوقت تتميز بالأناقة والبساطة. لقد كانت فترة مثيرة بحق!

فجميع ملابسى أصلية من فترة ثلاثينيات القرن العشرين، وذات جودة عالية. وعلى الأرجح لا يمكن أن يحصل المرء على تلك الأناقة مرة أخرى".

ولكن كان هناك خطر غير ملموس فى تلك الأقمشة البالية.

"فى اليوم الأول من التصوير، كانت الليدى تامبلين وكوركى – وعريسها الطفل كما أطلق عليه – يؤديان مشهداً صاخباً. ولا يمكنك أن تطلق عليه مشهداً جنسياً؛ لأن بوارو لا يؤدى مشاهد جنسية حقاً فى رواياته، ولكنه قطعاً كان مشهداً صاخباً.

وكنت أرتدى فستاناً طويلاً جميلاً للغاية من فترة الثلاثينيات حيث كانت الشخصية تستعد للحفلة التى كانت تقيمها، وقد اندمجنا معاً فى مشهدنا الصاخب القوى حتى إن ظهر الفستان كان قد تمزق تماماً. ولم يخبرونى بذلك لبعض الوقت لأننى لم أكن لأتمكن من رؤيته.

فتجاوزنا الموقف ولكننا عرفنا أننا بحاجة لفستان من أجل مشهد الحفل الكبير، وبحاجة أيضاً لبعض الأقمشة القوية الإضافية لحياكة بعض الصدريات لنتمكن من الطيران من لندن لإصلاح

الفستان".

كما هو الحال مع باقى طاقم العمل، كانت ليندساى مبتهجة لتبدأ تصوير فيلم **القطار الأزرق** فى جنوب فرنسا.

"لقد كان بالفعل أمراً رائعاً حقاً أن نكون هناك، وقد ساعدنا هذا حقاً فى أداء أدوارنا؛ فحيثما كنا نصور الفيلم، كان هناك الكثير من البريطانيين الذين كانوا يشيدون أو يبنون الكثير من الفيلات. لقد اشتمننا عبق أسلوب المعيشة فى الريفييرا لعام 1936.

وفى الحديث عن شخصيتها، تواصل ليندساى قائلة:

"تتمتع السيدة تامبلين بشهية للحياة تحسد عليها؛ فليس هناك حد لما يمكن أن تستمتع به السيدة تامبلين. ولكننى أوافقها فى الكثير من هذا؛ فهى رائعة".

لقد ظهرت ليندساى مؤخراً فى دور سيرفيليا فى فيلم Rome من إنتاج بى بى سى، ففى أيهما تفضل أن تعيش – روما القديمة أم الريفييرا؟

"أعتقد إما فى ريفييرا عام 1936 أو روما المعاصرة على حد سواء؛ فأنا مشتتة بين فرنسا وإيطاليا؛ لأننى بالأحرى قد اشتريت منزلاً فى فرنسا قبل عدة شهور من معرفتى بدورى فى فيلم Rome. وأنا فى الأساس أعشق إيطاليا.

وأنا لا أعرف أى اللغتين ينبغى أن أركز عليها. فأنا حاصلة على المستوى المدرسى فى اللغة الفرنسية، ولكننى أتحمس بالجلوس فى مطبخ مزرعتى فى فرنسا حيث لا يوجد من يتحدث الإنجليزية ويجب عليك الانخراط معهم بالفرنسية".

وهناك آراء عما يشير إليه اسم الشهرة الجديد الذى اشتهرت به فى أثناء تصوير فيلم بوارو.

"لقد كنا نتحدث عن مدى الإغراء المدهش للحياة. وقد كنت أتخيل وصولى لشراب الشعير فى حوالى الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وقلت إننى قد أحتسيه مثل الإسفنجة.

ومن ثم كان برونای كالجار هو الذى أطلق علىّ اسم الإسفنجية دونكان والتصق الاسم بى. وعندما ننادى بعضنا، فإنهم ينادوننى باسم الإسفنجية!".

جورجينا ريلانس
كاثرين جراى

قامت جورجينا ريلانس بدور من تحظى باهتمام بوارو وحبِّه. وفى رأيها كان هذا لطيفاً جداً!

تقول الممثلة المولودة فى لندن والتى تعيش الآن فى لوس أنجلوس: "إنَّ بوارو يهتم لأمر كاثرين على نحو ما؛ لأنها تحتاج إلى الشعور بالرعاية". فى المرة الأولى التى التقيا فيها بالفندق الكبير، لم تكن تدرى ما تفعل؛ ولذا شعر هو بالمسئولية تجاهها.

"وبالطبع - ومع تطوُّر الأحداث - شعر بهذه المسئولية تزداد يوماً بعد يوم، وأظنُّه كان مفتوناً بها على نحو ما".

حين أتت كاثرين إلى الريفييرا، كانت لا تزال فى رهبة من الوضع الاجتماعى المحيط بها.

"هى لم تُولَد فى جو الثراء الذى وُلِدَ فيه مَنْ حولها؛ ولذا فلم يكن هذا الوضع مريحاً بالنسبة لها؛ فهى لا تعرف ما ترتدى أو أنها تسخر من طريقة استخدامها للشوكة والسكين. كان فيها بعض السذاجة الطريفة، وبعض البراءة، وتتمتَّع بحس فكاهى حقيقى".

جورجينا لم تكن تدرى أنَّ هذه الحلقة من سلسلة بوارو هى الأولى التى تخرجها سيدة، هى هيتى ماكدونالادز.

"هيتى دائماً ما تكون على يقين من أنك تدرى ما تفعل وسعيد به، وتطلب آراء مَنْ معها، وهو ما يرفع من معنوياتهم. لطالما عملت من قبل مع مخرجين رجال، وأظن أنَّ امرأة يمكنها أن تفهم بشكل أفضل مشاعر كاثرين وتعقيداتها".

جوزيت سايمون
ميريلى ميليسى

كان على جوزيت سايمون أن تلكم نجماً سينمائياً فى فكِّه فى أثناء أدائها دورها فى لغز القطار الأزرق.

"هناك مشهد أقوم فيه باقتحام حفل، وأتوجَّه مباشرة نحو إليوت جولد وألكمه بقوة فى فكِّه. كان أمراً طريفاً جداً!".

بعيداً عن لكمها لإيليوت، فإن جوزيت لا تحمل للممثل الأمريكى سوى التقدير.

"كنت رفيقته - وكان هو رفيقاً رائعاً. من الرائع أن تجدى ممثلاً أمريكياً بين مجموعة ممثلين بريطانيين، بطرق عمل مختلفة، وأحاسيس مختلفة، وقد كان رائعاً حقًّا. لقد تناقشنا طويلاً فى علاقتنا وعن نشأتنا، ورتَّبنا كل التفاصيل التى ينبغى معرفتها فى أدائنا أدوارنا؛ فرغم أنك لا ترى هذا، إلا أنَّ من المفيد جداً أن تكون على ذات الهوى وأن تكون ملمًّا بكل التفاصيل اللازمة التى تصنع العلاقة.

"أنت لا تدرى أبداً ما تفكِّر به ميريلى. حتى حين تتحدَّث مع الشخصيات الأخرى؛ فهى تُبْقِى ما لديها أقرب إلى نفسها. إنها مخادعة لأقصى حد، إنها شخصية مربكة.

أذكر أنه فى اليوم الأول للبروفات، أتيت مرتدية ملابسى العادية، وفى لمح البصر تحولت إلى تلك المرأة المذهلة. إنها امرأة من النوع الذى قد تمشى فى الشارع؛ فيرتبك الناس لرؤياها، وهى تعلم ذلك. إنه دور يحب المرء أن يلعبه – وقد استمتعت بارتداء بعض من ملابسها المذهلة".

أجاثا كريستي Agatha Christie

لغز القطار الأزرق

حين وصل القطار الفاخر إلى مدينة نيس حاول أحد اللصوص إيقاظ روث كيتريدج بدق جرس مهجعها، لكنها لم تستيقظ؛ لأنها ماتت بفعل ضربة شديدة على رأسها، قتلتها وشوهت ملامحها حتى كاد الناس لا يعرفونها، وكذلك فقدت جواهرها الثمينة.

أول المشتبه بهم في جادلة قتل روث هو زوجها «دريك» الذي انضمت عنه، لكن بوارو لم يكن مقتنعاً بذلك؛ ولذا فقد أعاد تمثيل الأحداث بشكل يضمن أن يكون القاتل على متن القطار...

«إنها رواية بوليسية مثيرة في شكل عمل كلاسيكي».
- جريدة نيو يورك هيرالد تريبيون

«الملكة المتوجة على عرش روايات الجريمة».
جريدة صنداي إكسبريس

6 281072 062705
282204606